

فلاديمير نابوکوف

الحب

الولي

الوليستا

قصة حب شاذ .. بين شيخ في
الخمسين وفتاة في الثانية عشرة

تأليف الكاتب الروسي

فلاديمير تابوكوف



حقوق الطبع والنشر والاقتباس محفوظة لدار أسامة

الجمهورية العربية السورية

دمشق ص.ب ٤٣٠٦ — هاتف ٢٢٣٢٣٢٦ — فاكس ٢٢٤٨١٨٠

مقدمة

تحت عنوان « لوليتا — أو اعترافات رجل أرمل » كتب همبرت همبرت هذه الصفحات قبل ان يتوفى في تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٥٢ وهو في سجنه وقيل محاكمته بأيام .

لقد خول همبرت في وصيته محامية بأن ينشر هذه الصفحات العجيبة الغريبة التي تروي قصة « لوليتا » . وعهد الي المحامي بأن أعد هذه الصفحات للنشر ولكنني لم احدث فيها سوى تعديلات بسيطة يقتضيها السياق الروائي بحيث احتفظت القصة بطابعها واسلوبها على الرغم مما تحفل به من عبارات مثيرة ومن اوصاف مكشوفة لارتعاشات جنسية .

ان همبرت يشرح في هذه الصفحات الاعترافية جميع غوامض الجريمة التي اتهم بها والتي كانت خليقة بأن تظل لغزاً محيراً لو لم يوص بنشر اعترافاته .

واذا كان هناك من القراء من يصر على متابعة مصير

الاشخاص الحقيقيين الكامنين وراء هذه القصة « الحقيقية »
فاني اقدم لهم المعلومات التالية عنهم مستقاة من المستر
« ويندمولر » الذي يرغب في ان تبقى هويته مكتومة حتى
لا يصل ظل هذه القصة الفاجرة الى المجتمع الذي يفتخر
بالانساب اليه .

ان ابنته « لوز » هي اليوم تلميذة جامعية . اما « موناداهل »
فقد سافرت الى باريس حيث تدرس هناك ، اما « ريتا » فقد
تزوجت صاحب فندق في فلوريدا واما المسز ريتشارد تيلر
فقد لفظت انفاسها بحمى النفاس وهي تضع مولودتها في عشية
ميلاد ١٩٥٢ أما « فيفيان دار كتلوم » فقد اصبحت كاتبة
ووضعت كتاباً عن حياتها .

ان قصة (لوليتا) تعالج حالات وانفعالات عاطفية قد يجد
فيها المنافقون الاجتماعيون ما يجب ان يثير الخجل والذعر
ولكنها في الواقع ليست سوى رواية واقعية تبسط الواقع
ببساطة وصرامة وصدق .

ولست اهدف هنا الى تمجيد (همبرت همبرت) فهو مخلوق
رهيب مخيف ، (وهو شيء) جهنمي لا اخلاقي ، وهو رمز
عن الانحطاط النفسي وهو مزيج من الضراوة والضعفة يتكشف
عن شقاء نفسي عميق قد يكون (رفيع) الانحطاط الا انه
ليس بالجنون ولا بالمشير للعطف والاعجاب .

ومهما كان القارئ موضوعياً فانه لن يستطيع ان يحله ،
وهو يقرأ هذه الصفحات بتجرد ، من خطاياهم كمخلوق ذي دهاء

شيطاني خبيث. انه مخلوق شاذ يفتقر الى الكياسة والشهامة ولكنه مع ذلك يعمل نحو (لوليتا) بمشاعر تهز أوتار الوجدان .. ومن غرة هذا التناقض بين حب همبرت المتسامي وبين تصرفه الحيواني تبدو طرافة هذا الكتاب الخليق بأن يشير مشاعر متناقضة ويخلق ضجة اخلاقية في اي وسط يقرأ فيه .

والواقع ان « لوليتا » ستصبح قضية دراسية نموذجية في اوساط علماء النفس وكعمل فني فانها لن تعدم نفوذاً تزاوله على المقاييس الاخلاقية لدى القارئ اذ تعرض بأسلوب جديد أخاذ دراسات صريحة تنطوي على دروس عامة مستوحاة من شخصيات مألوفة في حياتنا كشخصية الطفل الجانح المنحرف وشخصية الأم الانانية وشخصية المهووس الفاجر .

إلا ان القيمة الادبية للكتاب لا تكمن في تحليل هذه الشخصيات بقدر ما تكمن في تحذيرنا من الاتجاهات الباطنية والنفسية المكبوتة الخطيرة وفي كشفها للأخطار الخفية بالنفس التي تشعر بوحدة قاتلة ..

ان قصة « لوليتا » خليقة بان تدفعنا جميعاً من آباء وامهات وعاملين اجتماعيين ومثقفين ومعلمين الى ان نكرس مزيداً من العناية والسهر لمهمه بناء جيل أفضل في عالم أسلم نجنب فيه اليافعين المراهقين الانحراف في غرة حريسة لا واعية نحو الخطيئة والفساد .

جوان راى الابن
دكتور في الفلسفة

لوليتا يا ضوء حياتي .. أيتها النار المتوقدة في عروقي ..
 لوليتا يا خطيئتي .. يا من تهزج روحي باسمك .
 لو - لي - تا .. رأس اللسان حين يمضي في رحلة من ثلاث
 خطوات عبر الحلق ، ليدق ثلاثاً فوق الأسنان : لو - لي - تا .
 انها « لولو » في الصباح إذ تهب واقفة خارجة من سريرها
 يحسها الضئيل القصير ..
 انها « لولا » في فساتينها القصيرة .. انها « دولي » في
 المدرسة ... وانها « دولوريس » في سبيل النفوس .
 ولكنها « لوليتا » .. لوليتا فقط وهي بين راعي .
 هل كتبت اللعنة منذ الأزل على لوليتا ذات الاثني عشر
 ربيعاً ؟

الواقع انها ولدت ملعونة .. والواقع ان لوليتا ما كانت
 خليفة بان تأتي الى الحياة لو لم أحب ذات مساء .. ذات مساء
 في ضمير الأزل حورية أصلية ؛ في امارة سحرية على ساحل

سحري من بحر الغيب .
ولكن أين كان ذلك ؟
لقد كان قبل ان تولد لوليتا بسنوات تساوي ما كنت ابلغ
من العمر في ذلك الصيف ...
سيهز القارئ رأسه مكذباً وسيقول ان الاسلوب الخيالي
هو من سمات المجرمين .. القتلة ..
حضرات المحلفين انني اوجه اليكم هذه الاعترافات لا لتقاضوني
على اساسها انما لاعرض فيها قبل كل شيء لعبة الإقداو معي ..
فانظروا الى القصة من هذا الضوء .

- ٢ -

ولدت في باريس عام ١٩١٠ طفلاً تجري في عروقه دماء كثير
من الامم فقد كان والدي الرجل الميسور صاحب الفندق الفخم
على الريفيرا ، سويسري الجنسية من أب فرنسي وام نمسوية !!
أما أمي فهي انكليزية وقد توفيت بضربة صاعقة عندما كنت
في الثالثة من عمري . فلست اذكر عنها شيئاً سوى ما تنطوي
عليه ذاكرة وجداني من دفء الحنان الذي كانت تغمرنني به ..
ولقد حلت محل امي في البيت ، كمديرة لاعمال المنزل غير
مأجورة ، شقيقتها الكبرى « سيبيل » التي كان قد تزوجها ابن
عم لأبي ثم اهلها .

ولقد قال لي أحدهم انها كانت تحب أبي وانه أقدم على انتهاز
هذا الحب في ذات يوم مطير فأمضى معها وقتاً طيباً ثم نسي الأمر
بعد ان راق الجو .

والواقع أنني اغرمت بهذه الأم الجديدة على الرغم من تعسف
بعض القواعد التي وضعتها لحياتنا في البيت ولعلها ارادت ان
تعدني للحياة كأرملة افضل من أبي المترمل .

كانت خالتي سبيل ذات عينين زرقاوين وبشرة شاحبة
بلون الشموع وكانت تقرض الشعر وذات مزاج شاعري متشائم،
فكانت تقول أنها تعرف انها ستموت بعد ان ابلغ السادسة
عشرة بقليل ..

ولقد فعلت .. وتوفيت بعد عيد ميلادي السادس عشر ! .
اما زوجها تاجر العطور المشهور فقد أمضى معظم وقته في
امريكا حيث اسس شركة عطورات واخذ يشتري من ارباحها
الضياع والعقارات .

اما انا فقد ترعرعت طفلاً صحيح البنية سعيداً في عالم وضاء
من الكتب المصورة والسواحل البحرية النظيفة وحدثات
الليمون والكلاب الاليفة والوجوه الباسمة .

لقد كان عالمي قائماً في محيط فندق « ميرانا » حيث كانت
العجائز من السائحات الاميركيات يحدقن بي كظاهرة عجيبة
وهن مائلات على عصيهن .. والواقع انني كنت في طفولتي
موضع التدليل من الجميع، فهناك مثلاً اميرة روسية مفلسة كانت

تشتري لي الحلوى الفالية بينما كانت عاجزة عن سداد حسابها لأبي .

وكان أبي .. البابا العزيز الصغير .. يأخذني في نزعات بحرية بالقرب ، وكان يقرأ لي صفحات من دون كيشوت والبؤساء . وكنت مولعاً بحبه أكن له الاحترام الشديد وكنت اشعر بالسعادة اذ اسمع خادמות الفندق يروين الاقاصيص عن صديقاته وعشيقاته الكثيرات اللواتي كن دوماً من النساء الجميلات الحنونات اللواتي طالما اغدقن علي العطف وذرفن الدموع تأثراً من يتمي .

اما في الدراسة فقد كنت ناجحاً كما نجحت كذلك في اكتساب مودة زملائي واساتذتي على حد سواء ولست اذكر تجربة جنسية واضحة المعالم حدثت لي قبل ان ابلغ الثالثة عشرة وألتقي بالصغيرة « آنا بيل » سوى حديث جدي مثير ونظري للغاية جرى لي مع رفيق امريكي عن المفامرات الفرامية التي تجري بين خمائل الزهور وسوى انفعال جنسى عضوي كلما اخذت ارى الصور العارية المهيجة .

وما لبث والدي ان حدثني بلهجته المرححة النشوى عن الجنس بما قدّر أنه يكفيني في مراهمتي وذلك قبل ان يرسلني الى الكلية الثانوية في ليون .

ويا للأسف فقد ذهب في صيف ذلك العام في رحلة الى ايطاليا مع سيدة حسناء وابنتها وتركني وحدي لا اجد من اشكو اليه ولا من أستشيريه .

كانت « آنا بيل » مثلي ذات دم خليط من أب انكليزي وأم هولندية الا انني لم أعد اذكر ملامحها بذلك الوضوح الذي كنت أتذكرها به قبل ان اعرف لوليتا .

هناك نوعان من الذاكرة البصرية نوع تستطيع أن تتذكر به مخلوقاً ما وانت مفتوح العينين كما كنت افعل لأرى في ذاكرتي آنا بيل ببشرتها العسلية وذراعيها النحيلتين وشعرها الاجعد واهداها الطويلة وفمها الكبير .

ونوع ثان للذاكرة تسترجع به صور الناس وانت مغلق العينين فتدري في بصيرتك الداخلية الصورة الوجدانية لمن تتذكر ... تراه كطيف ضئيل بالوان طبيعية (وانني لا أتذكر لوليتا إلا بهذه الوسيلة) .

وكانت آنا بيل تصغرنى باشهر معدودات وكانت تعيش مع ابياها وأماها (وهما صديقان لحالتي) في فيلا قريبة من الفندق . واني لاذكر كم كنت ابغضها . فقد كانت الأم متزمنة وكان الأب اصلع معروفاً . اما آنا بيل فقد كانت تماثلني وتماثل افراد الجيل الذين اشرفوا على فجر مراهقتهم من حيث الشعور بتمرد « الحيوان » وبيقظته في جسد كل منا . ومن حيث الهوس بالدراما ، فكانت آنا بيل تحلم بأن تكون ممرضة في بلد آسيوي يقاسي المجاعة ، بينما كنت احلم بان اكون جاسوساً مرموقاً مشهوراً . . وكانت انفعالات « الحيوان » في جسد كل منا ، وهي انفعالات لا تجدد لنفسها

تعبيراً ، تسبب لنا الكثير من الألم والاضنى .

ولقد وقعنا في حب بعضنا بعضاً حباً جارفاً يائساً دونما استحياء أو خجل . واقول يائساً لاننا كنا تحت رقابة صارمة فلا يسمح لنا بالابتعاد معاً عن مرمى ومسمع اهلنا فما اختلينا إلا سرقة وليلاً في حديقة دارها في حين أن صبية الشوارع كانوا يجردون مئة فرصة مناسبة لاشباع رغبة الامتلاك ..

وحينما كنا نذهب إلى الشاطئ برفقة اهلينا كنا نبتعد عنهم باقصى قدر مسموح وننتهز كل فرصة مباركة للتلقي ببعضنا وتبادل الملامسات المحمومة .

فكانت تدخل يدها تحت الرمل وتزحف بها نحوي حتى تلامس أطراف جسدي باصابعها وفي بعض الاحيان كانت ساقها تقوم برحلة حذرة بطيئة لتلامس ساقى وكم كنا نبتهج عندما تبعث الصدفة بصغار يبنون تلال من الرمل تحجبنا عن اعين اهلينا وتتيح لنا قبلات نرشف فيها رضاب بعضنا بعضاً .

ان هذه الملامسات المبتورة كانت تسبب لجسدينا ارهاقاً وهياجاً بالغين ما كانت حتى كل مياه البحر الزرقاء لتستطيع تفريج كربتنا واطفاء اللظى الذي يستعر في جسدينا . ولست آسفاً على ما اضعته من كنوز ذكرياتي اكثر من اسفي على صورة لي ولها بين افراد العائلتين التقطت في المقهى الساحلي في اليوم الاخير من ذلك الصيف المشؤوم وقبيل لحظات من المحاولة النهائية التي قمنا بها لمصارعة القدر .

والحكاية هي اننا استطعنا بالتججج بالذهاب الى بيت الخلاه

ان نهرب من المقهى الى الشاطيء حيث عثرنا على بقعة رملية معزولة عن الانظار وهناك في ظل بنفسجي من الصخور الحمراء المحيطة بتلك البقعة على شكل كهف طبيعي قمنا بوصلة مختصرة من المعانقات والمداعبات الجريئة التي لم يكن علينا فيها من شاهد سوى نظارة شمس نسيها صاحبها المجهول على الرمال .

وما لبثت ان جثوت على ركبتي ، ولكن في الوقت الذي كدت اوشك فيه على امتلاك حبيبي خرج من البحر رجلان ملتحيان كانا يستحمان وصعدا الى الشاطيء ومما يصيحان بعبارات الاستحسان والتشجيع الهازئة .

وبعد اربعة أشهر من هذه الحادثة توفيت آنايل بالتيفوس عندما ذهبت الى جزيرة كورفو اليونانية .

- ٤ -

انني اقلب واقلب ذكرياتي متسائلا طيلة الوقت عما اذا كان التصدع في حياتي قد بدأ في ذلك الصيف السحيق أم ان شقيقي الشديد الى تلك الطفلة كان اول قرينة على فرديتي الانعزالية الوراثة .

وانني اذ احاول ان احلل نوازع شهواني ودوافعي واعمالى فانني استسلم الى نوع من الخيال المتداعي نحو الماضي وهو خيال يغذي ملكة المناقشة بما لا يخص من العوامل والاسباب والاحتمالات ليجعل من ذلك الماضي شيئا معقداً يثير هومي ولكنني يقنعي في النهاية بان قضيتي مع لوليتا قد بدأت بآنايل بطريقة سحرية مشؤومة .

انني اعرف كذلك بان الصدمة التي سببتها لي وفاة آتابيل
قد عززت التشتت النفسي الذي أصابني ذلك الصيف المشؤوم
المفعم بالكبت وجعل من ذلك التشتت عقبة دائمة في طريق
اي غرام صادفته في سنوات شبابي الباردة .

ذلك لانني ظلت أشعر حتى بعد مرور زمن طويل على وفاتها
بأن ذكرها تلاحقني وتحاصرني وتنفذ الي من خلال ذكرياتي عن
ذلك التائل العجيب بيننا حتى في الصدف .. ففي حزيران من
ذلك العام (١٩١٩) قبيل وفاتها بأيام دخل الى بيتنا في فرنسا
كناري تائه وكذلك دخل الى بيتها في كورفو كناري تائه !!!..
هكذا حدثني في آخر رساله لها .

إيه يا لوليتا هل أحببتني هكذا !

لقد أبقيت لحتام قصة آتابيل رواية خبر الموعد الاول الفاشل
بيننا ففي ذات ليلة استطاعت ان تخدع العيون الساهرة في عائلتها
فالتقينا على بلاطة تحت ظل خيمة « الميموزا » وكنا نستطيع ان
نرى من بين أغصانها الداكنة النوافذ المتألقة بالضوء حيث
« الاعداء » منشغلون بلعبة « البريدج » .

كانت آتابيل ترتجف وتهتز عندما كنت اقبلها على طرف
شفتها وعلى لحة اذنها الدافئة .. وكانت السماء صافية يلتمع فيها
عنقود من النجوم التامغا خفيفاً خلال أشباح اوراق الميموزا
الحادة ، واستطعت ان ارى وجه آتابيل بوضوح كما لو كان
يتألق بضوء خفي .

كانت هناك فرجة ضيقة بين ساقها الجميلتين البضتين .. فلما

مددت يدي بينها واستطاعت يدي أن تعثر على ما كانت تسعى
اليه ارتسمت على قسماآت آنا بيل آعا بئر آأأة وحاأة ، آناق
بشور هو مزيج من الأأة والألم .

كانآ آعلوني في آلسآها فكان رأسها يناآني ناوي آركة
ناآسه ناأمة كلما شعرت وهي في غرة نشوآها بما يآعها الى آقبيلي
بينما كانت ساآاها الالآأان آطبآان على معصمي وآضغطان
عليه لآناآرا من آآيآ .

أما فها المرآآف المآور فكان يرسل أنفاأاً مأآرأة آنا عما
كان يعآلآ فيها من ضنى كانت آآاول أن آفرآ عنه بأن آفرك
شآآها الآاآآين بشآآي آم آآآعآ بواآها عني وآقآف آآالها
إلى الآلف بانآفاضة مآشآة من رأسها ، آم آعود من آآيآ
بناآرات غائمة وآآركني أرآشف رضاها .. وفي غرة هذا الهياآ
كنت أشعر بكرم يآعني لأن أهما كل شي .. قلمي .. عناقى ..
أآشائى .. وهي آمسك بيآها البضة بوآش شبقى ..

واننى لأآرك عبق راآآها .. راآأة هي مزيج
من راآأة البورة الآى سرآآها من وصيفآها الاسبانية ومن راآأة
البسكويت المآعم بالشوكولاته .. مزيج من راآأة امراة
وأطفلة .. لآآ أسكرنى ذلك العبير وآآلى على أن أهم بالآطوة
آالآة .. وهنا اهآز الالآ القريب وفرآعت الأعشاب فابآعنا
مبهورين مآعورين عن بعضنا بعضاً والشبق يآوينا . وعنا
أآر كنا أن مآآر هذه الآلبة كان هرة ناأة في الآآيقة سمعنا

صوت أمها يناديها بلهجة متصاعدة القوة ... فتسللت من خيمة الميموزا عائدة .

لقد ظلت ذكرى هذه الجلسة تحت خيمة الميموزا تلاحقني كاللعنة ، ظلت دائماً أشعر بشيخ تلك الفتاة الصغيرة باطرافها النخيلة ولسانها الدافىء وهو يلاصقني ولم أستطع أن أفك هذا السحر عني إلا بعد أربعة وعشرين عاماً يوم أعدت إلى الحياة آنا بيل في جسد لوليتا وشخصها .

- ٥ -

كلما رجعت بذاكرتي إلى أيام شبابي بدت لي هذه الأيام وكأنها تتناثر حطاماً أمامي .. وفي تلك الأيام كنت في علاقتي الجسدية مع النساء عملياً وساخراً ونشطاً فكنت أجد كفايتي أثناء دراستي بلندن وباريس في بائعات الهوى .

وفي بادىء الدراسة نويت أن أحصل على شهادة في علم النفس كما يفعل الكثيرون من المفتقرين الى المواهب ولكنني وجدت نفسي أكثر أدقاعاً من هؤلاء فانتقلت إلى دراسة الأدب الانكليزي ، تلك الدراسة التي ينتهي فيها الكثيرون من الشعراء الخائبين كأستاذة يدخنون الغليون ويرتدون الألبسة الخشنة .

على أن باريس هي التي لاءمتني فكنت أقضي وقتي فيها مناقشاً الأفلام السوفياتية مع الروس البيض المجردين من الجنسية ، مجالساً الفوضويين والمهسترين والفلكيين في «مقهى لي دو ماغو» .

وفي باريس نشرت دراسات ركيكة في صحف ومجلات غامضة ووضعت كتاباً باسم « التاريخ المختصر للشعر الانكليزي » ثم مضيت أضع مرجعاً عن الأدب الفرنسي للطلاب البريطانيين وقد اشغل ذلك سنواقي حتى بلغت الأربعين ، وعندما اعتقلت كان الجزء الأخير من هذا المرجع قد أعد للطباعة .

وقد تنقلت من وظيفة قلمية إلى أخرى مستثمراً صداقاتي مع الأخصائيين الاجتماعيين والمحللين النفسانيين كما أزور معهم المياتم والاصلاحيات حيث كنت أرى في وجوه الفتيات الشاحبات ذوات الأهداب المسدلة ما يذكرني بصورة تلك التي تلازم أحلامي ..

هنا أريد أن أبسط الفكرة التالية التي خلصت اليها من تعرفي على عالم الصغيرات والمراهقات :

هناك فتيات بين سن التاسعة والرابعة عشرة يظهرن لعين بعض الرجال المسعورين أكبر مما هن بضعفين . فيتكشفن لهذا النوع من الرجال عن طبيعتهن الحقيقية التي ليست بالطبيعة الإنسانية إنما هي طبيعة شهوانية مسعورة .. طبيعة جهنمية إبليسية .. ولهذا فقد أطلقت على هذا النوع من الصغيرات اسم « الحوريات المسعورات بالشبق » .

ربما لاحظ القارئ أنني وضعت حدوداً زمنية لهذا النوع من المخلوقات ، وأريد من القارئ أن يرى السنوات الممتدة في حياة الفتيات من التاسعة حتى الرابعة عشرة كتخوم تحد جزيرة سحرية تقطنها تلك « الحوريات المسعورات » اللواتي يتكشفن

لي عن مظهر شهواني يغري بهن .

وقد يتساءل القارئ : هل جميع الفتيات بين سن التاسعة والرابعة عشرة هن من « الحوريات المسعورات » ؟
الجواب كلا بالطبع وإلا جننا أنا وأمثالي العائشين في أسرة الوحدة الذين يكتشفون المبهجات في بعض تلك الفتيات ويستذوقون نوعهن .

إن هناك شيئاً خفياً يفرق بين « الحورية المسعورة » وغيرها من الصغيرات .. انه شيء يشعر به الخبير بهن ويحس بسحره الجنسي الخفي فيكتشف الواحدة منهن من بين رفيقاتها الكثيرات .. فالواقع أن نسبة « الحوريات المسعورات » هي قليلة جداً بين الفتيات وانه ليقضي منك ان تكون فناناً او مجنوناً او فريسة السويداء المزممة أو رجلاً تضطرم في عروقه نيران شهوة آكلة حتى تستطيع أن تتعرف على « الحورية المسعورة » في الحال من بين رفيقاتها اللواتي يظهرن للشخص العادي متشابهات قلباً وقالباً معها .

ان « الحورية المسعورة » انما هي شيطان في ثياب طفل ملاك وانها لتختلط برفيقاتها فلا يشعرن بما تمتاز عنهن ولا هي تشعر بتأثيرها المزلزل الكاسح ..

اما وان فكرة الحدود الزمنية تلعب مثل ذلك الدور السحري في هذا الأمر فانه لا يجب على القارئ ان يدهش إذ يعلم بانه يجب ان يكون هناك فارق في السن قدره ثلاثون أو اربعون عاماً (وفي بعض الحالات ٩٠ عاماً) بين « الحورية

المسعورة» . والرجل حتى يقع هذا الأخير تحت سحر « الحورية المسعورة » . فالقضية هي قضية تكيف مع البؤرة وقضية مسافة معينة تطرب العين الباطنية لقهرها اذ تذللها باجتيازها لها ثم انها اخيراً قضية تناقض معين. يدركه الذهن ويلاحظه بحواسه الداخلية وفي غمرة لهثات من الغبطة العارمة .

فعندما كنت طفلاً وكانت آنا بيل العزيزة طفلة لم تكن تلك الحبيبة « حورية مسعورة » في نظري فقد كنت أشعر بأنني نظيرها المتساوي معها العائش وإياها على نفس تلك الجزيرة الزمنية المسحورة .

ولكنني اليوم في عام ١٩٥٢ وبعد مرور تسعة وعشرين عاماً على تلك الفترة ، اظن بأنني استطيع ان أتعرف فيها على « العفريته » الاولى التي ركبت حياتي .

لقد احببنا بعضنا حباً فجاً سابقاً لأوانه وبضراوة غالباً ما تدمر حياة المراهقين ، واذا كانت قوتي قد انقذت حياتي من الدمار فان السم قد وصل الى الجرح الذي احده حبها في كيان حياتي فظل جرحاً مفتوحاً مقروحاً الى الأبد، وسرعان ما وجدتي بعد اصابتي به انضج واترعرع وسط حضارة تسمح لرجل في الخامسة والعشرين ان يغازل فتاة في السادسة عشرة من عمرها ولكنها لا تسمح له بمغازلة فتاة في الثانية عشرة من عمرها .

فلا عجب والحالة هذه ان كانت حياتي في عهدها الاوروي مزدوجة ذات كيانين وعالمين مختلفين . فظاهرياً كنت على

علاقات طبيعية مع عدد من النسوة اللواتي يتمتعن بوقتهن أما باطنياً فقد كنت اشعر بلهيب جهنمي من الشهوة والشبق حيال كل « حورية مسعورة » تمر بي من دون ان اجرؤ على التحرش بها بصفتي مواطناً يوادع القانون .

وهكذا فلم تكن المخلوقات النسائية اللواتي كنت اسمح لنفسي بمقاربتهن ، اكثر من وسائل ووسائل مسكنة ملطفة .
واذا كنت استطيع الاعتقاد بأن المشاعر الانفعالية التي كنت استقيها من الفسق والزنى كانت الى حد كبير ذات المشاعر التي يعرفها البالغون اذ يتواصلون مع البالغات في ذلك الايقاع الرتيب الذي يهز العالم ويجدد الحياة فيه ، فان الفارق بيني وبينهم يكن في ان اولئك السادة لم يتذوقوا كما فعلت شيئاً من غبطة اخرى حادة متوقدة تبعث نشوة ابلغ مما تبعثه نشوة الوصال بين ذكر وانثى متماثلين . وهكذا فقد كانت اكثر احلامي الاستمنائية ابهاماً ادعى لقلب العقول وبهرها من أي نشاط فجوري فاسق يبتدعه اي كاتب عبقري او يحلم به اي عنين موهوب . لقد كان عالمي منفصلاً على ذاته فكنت احس بوجود جنسين من النساء ، واحس ببعدي عنها معاً فأحدهما لا أتجانس معه وثانيهما لا تسمح الاعراف الخلقية والمدنية والاجتماعية بأن اقضي منه وطري ..

لقد ادركت هذه الحقيقة الآن اما عندما كنت في العقد الثالث وفي مطلع العقد الرابع فأنني عجزت عن ان افهم كربى وغصتي بوضوح .. فبينما كان جسدي يعرف الى من يحن ويتوق

كان عقلي يرفض الاستجابة لتوسلات جسدي ويرفض مطاوعته
على تفريج كربه ، فكان الخوف والحجل يفتسانني احيانا وكان
التفاؤل المتهور يسم تصرفاتي احيانا ، وكانت المحرمات الاجتماعية
الآخري تأخذ بخناتي وتزهقني ، فاذا استشرت المحللين النفسيين
وعدوني دوماً بالشفاء من حالتي .. ووعدوني دائماً بتحرر مزعوم
مما زعموا انه شهوات كاذبة . اما أنا فلم اكن ارى موضعاً واداة
لاطفاء شبةي سوى نظيرات آنا بيل في السن والمظهر فكانت
صورهن تتملك احلام يقظتي كندير يجنون وشيك ..

وهنا استسمح القارئ في ان اذكره بان قانون اليافعين
والشباب الصادر عام ١٩٣٣ في بريطانيا قد فسر تعبير « الطفلة
اليافعة » بأنها الطفلة التي تجاوزت الثامنة الا انها لم تتجاوز
الرابعة عشرة . اما في ولاية ماساشوسيتس الأمريكية فان القانون
يعتبر القاصرة « فتاة بين السابعة والسابعة عشرة » وذلك فيما
يتعلق بما قد تتعرض له الفتيات من المنحطين والفاستدين .

واذكر ان هيو برافتون الكاتب المرموق قد اقام الدليل على
ان « راحاب » كانت عاهرة محترفة منذ ان بلغت العاشرة .
انني استطيع ان اسوق الكثير من الشواهد التاريخية على
اضطرام الجنس والشهوة في بعض القاصرات وعلى انهن تصرفن
تصرف النساء البالغات .. كما ان هناك ما لا يحصى من الزيجات
في الشرق حيث يتزوج رجل في الثمانين قاصرة لا تعدو العاشرة .
ثم ألم يأتك خبر الشاعر الايطالي العبقري دانتي ؟ لقد وقع
دانتي في غرام بياتريس وهي لم تزل في التاسعة يافعة صغيرة رآها

عام ١٢٨٤ متجملّة متأنقة معطرة في حفلة خاصة دعي إليها في فلورنسه ..

اما سترارك^(١) فقد جن في عشق حبيبته لورين وهي بعد يافعة (وجنية متألفة بما يثير الشبق) في الثانية عشرة من عمرها تقفز وتلعب فوق سهول وسفوح تلال فولموز .
ولكن ما لنا ومال الماضي !..

لقد حاولت ان اكون انساناً صالحاً متمدناً .. واستطيع ان اقول عن نفسي « لقد حاول همبرت ان يكون عن حق صالحاً مفلحاً فلم يكن » للقاصرات اليافعات العاديات إلا اعمق الاحترام وما كان ليقدم على ان يس طهارتهن وبراءتهن مهما كانت ظروفه مؤاتية ولكن قلبه كان في الوقت ذاته يتحرق ويتلظى عندما تقع عيناه بين لفيف من القاصرات البريئات ، على طفلة جهنمية مثيرة بعينيهما البارقتين وشفتيهما الشهوانيتين وسحرها الباطني المثير .. طفلة يعاقبك القانون بالسجن عشر سنوات لمجرد ان يثبت عليك انك تنظر اليها نظرة فاجرة ، . وهكذا مضت حياتي .. كنت دائماً قادراً على ان اقارب المرأة الناضجة ولكن القاصرة الشهوانية هي التي كنت اشتتها واحن اليها .

وهكذا كنت اداري هذا الحنين بأن اذهب الى الحدائق العامة حيث تلعب الفتيات وحيث لا بد ان توجد بينهن

(١) احد كبار شعراء النهضة في ايطاليا ، وقد اشتهر بقصائده الغزلية المبتذلة التي تغنى فيها بحب حبيبته الحورية المراهقة .

«حورية مسعورة» اتأملها بنظرات خفية من وراء كتاب مرتجف واسترق النظر الى مكوراتها ومدوراتها ولحم ساقها البض وهي تقفز وتدور لاهية عابثة غير عالمة باللهيب الجهنمي الذي يفترس اعصابي ..

لقد جلست ذات مرة بجانب عجز شمطاء لاحظت ان وجهي يتلون فسألتني اذا كنت اشكو ألماً في المعدة .
ألا اغربي عني ايتها البومة البشعة واتركي اليافاعات المتضرجات المتألفات بالجنس يلعبن حولي للأبد .

ما أحيلى تلك اللحظات ... لحظات كنت اطل فيها من نافذتي فأرى واحدة من تلك الصغيرات تتعري امام مرآتها وتراقب وتدرس جسدها بفضول .. وما أحيلى تلك الملامسات المبهورة التي كانت تتاح لي في عربات الترام عندما تشاء الصدفة ان تزحمي في وقفتي واحدة من « الحوريات المسعورات » لم يتكور بعد ثديها ولكن الحرارة تشيع من جسدها واطرافها فتصيبني بحمى من النشوة .

- ٦ -

بالمناسبة يجب ان اذكر بانني طالما تساءلت : ما الذي يحدث لتلك « الحوريات المسعورات » بعد ذلك !
ألا تؤثر الخلجات الباطنية الخفية التي كنت اسرقها في مستقبلهن في هذا العالم المتفاعل بقاعدة العلة والسبب ؟

و كنت اتساءل بعد كل تجربة مع الواحدة منهم :
لنفرض اني امتلكتها دون ان تفهم مطلقاً معنى ذلك ،
ولكن أألن تخبر احداً بالأمر فيما بعد ؟
ألا تراني اشترك في صياغة اقدارها اذ اقحمتها في جنوني
الشهواني ؟
أواه لقد كانت هذه التساؤلات ولا تزال مصدر عجب
رهيب تملكني دائماً .

على انني علمت بعض الشيء بما تؤول اليه الواحدة منهم بعد
ان تكبر .. عرفت بعض الشيء كيف يكون شكلهن .
ففي ذات اصيل من ايام الربيع كنت اسير في شارع جانبي
قرب شارع المادلين في باريس عندما مرت بي فتاة نحيلة رشيقة
بخطوات انيقة سريعة ولما التفتُ الى الوراء وجدتُها قد فعلت
الشيء ذاته .

كانت تكاد لا تصل الى كتفي وكانت ذات وجه بيضاوي
جميل مشرق كوجوه معظم الفرنسيات اليافعات فتقدمت نحوها
وقد احببت منها اهداب عينيها الطويلة ومفاتيح جسدها النحيل
التي كان يبرزها ثوبها الضيق .. ولما وجدت انها لا تزال تحتفظ
بصدى مراقبتها ارتعدت بقشعريرة الغبطة وشعرت بعروقي
تتوتر وانا اتأمل خطوط جسدها الذي لم يتخلص رغم تجاربه
الكثيرة من ملامح طفولته ..

سألتها عن سعرها فأجابت بخفة وبصوت كرنين الفضة :

— مائة فرنك

وحاولت ان أساوم ولكنها كانت قد لحق ذلك الشبق
اللاهب الخفيف في عيني المسدلي الاهداب فرمشت بعينيهما
وهزت كتفها وردفها قائلة « انت حرا ! » وتحركت كما لو
كانت تريد ان تمضي في سبيلها .

تذكرت في تلك اللحظة انني كنت اراها ربما قبل ثلاثة
اعوام وهي عائدة الى بيتها من المدرسة .. فكانت هذه الذكرى
حاسمة المفعول وهكذا مضيت معها الى غرفتها حيث طلبت في
الحال وكالعادة « هديتها الصغيرة » وكالعادة اعطيتها المائة فرنك
وسألتها عن اسمها وعمرها فأجابت بأن اسمها مونيكا وان عمرها
١٨ عاماً .

انني خبير ببنات الرصيف ولا يستطيعن ان يخدعنني .. كلهن
يحين بان عمرهن ١٨ عاماً بلهجة حاسمة قاطعة يستخدمنها عشر
مرات في اليوم مع عشرة زبائن على الاقل الا ان مونيكا لم تكن
بأية حال في الثامنة عشرة من عمرها فلقد اضافت كذباً سنتين
أو ثلاثاً الى عمرها الحقيقي الذي استنتجته من تفاصيل جسدها
الناحل الرقيق الذي لم ينضج بعد .

خلعت مونيكا ثيابها بسرعة مدهشة ووقفت برهة وقد
لقت جانباً من الستارة على جانب جسدها واخذت تصفي الى
انغام كان يرسلها عازف ارغن متجول . كانت تصفي بلذة طفولية
ولما فحصت يديها النحيلتين ونبهتها الى الوسخ الكامن
تحت اظافرها قالت بسداجة : « أجل هذا ليس مستحجباً »
وذهبت الى المفصلة ولكنها اعترضتها قائلاً ان الامر غير مهم

فقد كانت بشعرها الكستنائي الأشعث وعينيها العسليتين
البراقتين وبشرتها الشاحبة تبدو رائعة بما فيه الكفاية — والواقع
ان ردفيها لم تكونا اكبر من ردفي اية مراقة .. ويجب ان
اقول هنا انها كانت ، من بين الثمانين بغياً اللواتي عرفتهن في
حياتي ، الوحيدة التي امدتني بفيض من اللذة الاصيلية .. واني
لاذكر قولها وهي ترتدي ثيابها بالسرعة التي خلعتها بها : « لقد
كان شيطاناً لعيناً ذلك الذي ابتكر تلك اللعبة » .

وقبل ان ابارحها طلبت اليها ان نجتمع «لوصلة» ثانية اطول
في المساء ذاته فقالت انها ستقابلني في الساعة التاسعة ليلاً في مقهى
على منعطف « المادلين » مقسمة بانها لا تخدع اي رجل . وفي
الموعد المحدد عدنا الى غرفتها حيث لا يسعني الا ان اتغزل علناً
بجملاتها وظرفها فكانت تنسب ذلك الى لطفي .. واذا لاحظت ما
لحظته انا في المرأة التي تعكس عالمنا السعيد الصغير على السرير ..
اقول اذ لاحظت على وجهي معالم الرقة التي تخفي تحتها الانياب
المفترسة الزرقاء فقد سألتني باستجابة مهنية اذا كان لها ان تمسح
الحمرة عن شفتيها في حالة ما اذا كنت انوي تقبيلها .

بالطبع كنت انوي تقبيلها ولقد اطلقت لنفسي العنان معها
اكثر من أية شابة صغيرة ائمت معها من قبل فظلت ذكرى تلك
الليلة مع مونيك الحورية المسعورة الطويلة الهدبين مرتبطة بمرج
قلما عرفته في احداث حياتي الغرامية السرية المذلة .
لقد ابهجها كوني اعطيته ٥٠ فرنكاً علاوة على المتفق عندما

خرجنا معاً نخطر على الرصيف في تلك الليلة الربيعية ولم اتركها تلك الليلة الا بعد ان تواعدت معها على ان تأتي الى شقتي بعد ظهر اليوم التالي حيث كانت « الوصلة » اقل نجاحاً من سابقتها اذ خيل الي انها قد نمت بين عشية وضحاها واصبحت امرأة محترفة اكثر منها طفلة جانحة .

كانت كذلك قد اصببت بالرشح وقد انتقلت العدوى الي مما حملني على ان الغي موعدي الرابع معها ، غير انني ما شعرت بالاسف لانني قطعت سلسلة علاقة انفعالية كانت قد بدأت تهددني بخيبة امل تزداد مرارة .

وهكذا فضلت ان تبقى بالنسبة الي تلك « المونيك » الرقيقة الناحلة .. فضلت ان ترسخ في ذهني كحورية جانحة تتألق بالسعير الجنسي الطفولي عبر شخصيتها الواقعية كعاهرة محترفة .

على ان معرفتي بها قد قادتني الى نشدان علاقات مع مثيلاتها فقادني اعلان غامض في احدى المجلات الداعرة الى مكتب المدموازيل اديث التي قدمت الي مجموعة من الصور لانتقي واحدة تفي بغرضي وعندما دفعت بالمجموعة جانباً واستطعت ان اسر اليها برغبتي الاجرامية خيل الي انها على وشك ان تطردني ولكنها سألتني بعد تردد عن الثمن الذي يستطيع ان اعرضه فلما رأَت كرمي رضيت بأن تصلني « بشخص يستطيع ان يرتب الشيء » وفي اليوم التالي لاقيت عجوزاً شوهت وجهها بالاصباغ قبلت اطراف اصابعها قلاب مفرقة لتدل لي على عظمة « البضاعة » التي ستقدمها لي ثم اخذتني الى بيت حقير . وفي

الصالون ازاحت ستاراً بانث وراءه طفلة بدينة ساذجة
لا تتجاوز الخامسة عشرة ، عقصت جدائلها السوداء بشرائط
قرمزية وجلست مترهلة بليدة تحتضن دميتها .

وعندما هزرت رأسي بالرفض وجاوت الخروج من الفخ
سارعت العجوز فنفضت عن الطفلة قميصها الصوفي وهي تهدر
بالكلام لتبريني مفاتن « الحورية » ولكنها لما رأت اصراري على
الرحيل امسكت بي تريد اجرها .. وسرعان ما ولج الى الغرفة
من جانبيها رجلان عتيان اشتركا في النقاش الحاد وكان احدهما
يضع نظارة سوداء فقالت لي العجوز انه كان مخبراً في الشرطة
وانه على صلات دائمة مع الشرطة الاخلاقية ولذا فمن الخير ان
ادفع المطلوب .

فتوجهت الى الطفلة التي كانت قد ذهبت الى المطبخ لتكمل
عشاءها الذي قطعته لتمسك الدمية عند دخولي ووضعت في
يدها مدفوعاً بحافز من الشفقة ورقة نقدية فسلمت « هديتي » في
الحال الى المخبر البوليسي السابق بينما كانت العجوز وزميلها
يجرانني الى الخارج .

- ٧ -

لست ادري اذا كانت تجربتي في مكتب الدموازيل اديت
لتسهيل « الخدمات الدافئة » حلقة اخرى في سلسلة اقداري
الثائمة . ولكنني قررت بعد تلك الحادثة ان الزواج هو افضل

سلامتي . وخطر لي ان جو الحياة الزوجية قد يساعدني على ابقاء ذاتي تحت رقابة سلمية ان لم يساعدني على تطهير نفسي من شهواتي الدنيئة المحزنة . .

أجل لقد خيل لي ان جو البيت خليق ان يساعدني بما فيه من تنظيم الحياة اليومية ومن الاكل في البيت ومن رقابة النشاط الزوجي في المهدد وبما قد يولده ذلك الجو من قيم خلقية وروحية تعوض لنفسي عن رغباتها الدنسة .

فأخذت افتش عن الزوجة الملائمة وبعد طويل تفكير وقع اختياري على ابنة طبيب بولوني كان يعالجي من نوبات من الدوار والغثيان . وكنت العب معه الشطرنج بينما تسترق النظر الي . وهنا يجب ان اقول انني كنت ولا ازال بالرغم من مصائبي رجلاً جميل الهيا طويل القامة ذا شعر حالك ناعم ومظهر جذاب بشكل استثنائي .

وكنت اعرف بانني استطيع ان احصل باشارة من اصبعي على اية امرأة بالغة اختارها فلقد اصبحت من عادتي الا انتبه كثيراً الى النساء ولا اعني بطاردتهن الا اذا قذفن انفسهن الى احضائي الباردة .

ولو كنت فرنسياً متوسطاً عادياً أتذوق النساء الممتلئات لكنك قد حصلت على زوجة اكثر اغراء من زوجتي فاليريا على انني اخترتها هي مدفوعاً كما ادركت فيما بعد بتسوية نفسية بين الشفقة عليها والاشفاق من ان يؤدي بي شذوذي الى مكروه وشيك . .

ان كل ما تقدم يقيم الدليل على مدى جهل المسكين همبرت
همبرت (الذي هو انا) في شؤون الجنس .

- ٨ -

مع انني قلت لنفسي انني انشد من زواجي ذلك الجو
العائلي التقليدي الخليق بان يلطف من سكير شذوذتي ، فان ما
جذبني حقاً الى فاليريا كان قدرتها على ان تبدو بمظهر الفتاة
الصغيرة المراهقة

والواقع انني كنت متعجباً من الظهور بمظهر المراهقات لانها حدثت
الامر ، انما كان ذلك اسلوبها .. وهو الاسلوب الذي وقعت فيه .
كانت في العشرين من عمرها او شيئاً من هذا القبيل فلم
استطع ان اعرف عمرها بالضبط . قد فقدت بكارتها في
ظروف لم استطع ان اجزم بها فهي في الامر مختلفاً كل
مرة ووفق مزاجها اثناء الرواية ..

والواقع انني كنت مغفلاً معها الى ابعد الحدود فقد اعمتني
قدرتها على ان تبدو كطفلة .. فقد كانت فتاة غلمانية ترتدي ما
يكشف عن جزء كبير من ساقها البضتين وكانت تعرف كيف
تظهر نصاعة بشرتها بانتقاء قطع الملابس السوداء .. وكانت
تعرف كيف تتدلع وتميس دلالات وهي تلوح بغداثرها الشقراء
كأية طفلة مراهقة احست بالحياة تضطرم في صدرها ..
بعد حفلة الزفاف المدني اخذتها الى بيتي الجديد ولدهشتها

حلتها قبل أن أقاربها على أن ترتدي قميصاً من قصاصان نوم
الفتيات كنت قد سرقته أثناء زيارتي لأحد ميّاتم الفتيات .
وكم كانت تسليتي بالغة في ليلة الزفاف هذه !! لقد انتهت
الليلة وطلع الفجر على العروس البلهاء وهي في حالة هسترية .
ولم يمض طويل زمن حتى أخذت زوجتي تعود إلى حقيقتها
كمرأة وتبتعد عن ملامح الفتيات . وسرعان ما وجدت بدلاً من
الفتاة النحيلة الشاحبة التي خيل لي أني تزوجتها امرأة بلهاء
وقصيرة الساقين ممتلئة الثديين عديمة التفكير ..

ودامت حياتي الزوجية معها من ١٩٣٥ إلى ١٩٣٩ ولا ريب
أن ظنّها فيّ قد خاب مثملاً خاب ظني فيها ولكنها وجدت
مفرجاً لها في العناية بالبيت حيث كنا نقضي قليلاً من السهرات
معاً هي تقرأ في جريدة بلري سوار وأنا منشغل بأحدى هواياتي
ولم أكن أُلجأ إلى جسدها الممتليء إلا نادراً وفي حالات الضرورة
القصوى واليأس .

وفي الوقت ذاته كان هنالك ما يثيرني إلى حد الجنون ..
فلصاحب الحانوت أمام بيتنا طفلة مثيرة كانت تبعث السعير في
جسدي ولولا وجود فاليريا زوجتي لما استطعت أن أجد مفرجاً
مشروعاً أروح به عن انفعالاتي الجاهحة .

ولم يمض وقت طويل حتى كفت بطلب مني عن الطبخ في
البيت وأخذنا نتناول الطعام في مطعم مزدحم في شارع بونايرت
يمتاز بموائد ذات المفارش المليئة ببقع النبيذ والشحم ..
ومضت الحياة هادئة نوعاً .. إلى أن بدأت مرحلة

الانفجارات وكانت ذلك في صيف ١٩٣٩ حيث توفي عمي في أمريكا تاركاً لي مدخولاً سنوياً من عدة آلاف من الدولارات على شرط أن أذهب للاقامة في الولايات المتحدة وأن اهتم بشركة العطور التي أسسها .

لقد رحبت بهذا التحول فقد كانت حياتي بحاجة إلى هزة وخاصة وان العفن بدأ يتسرب إلى الكيان الزوجي ، ففي خلال الأسابيع الماضية بدأت ألحظ في فاليريا نوعاً شاذاً من عدم الاستقرار بل كانت في كثير من الأحيان تعاني حالات من الهياج مما يتنافر تماماً مع الشخصية المفروض أنها تمثلها كأمرأة هادئة بلهاء . ولما أخبرتها أننا سنبحر قريباً إلى نيويورك بدت متهاكة مشدوهة وأصبحت منذ ذلك اليوم تائهة حزينة شاردة لم ينفع معها وصفي للحياة المثيرة في أمريكا .

وأخذت أعد أوراق السفر وذات يوم بينما كنا خارجين من دائرة البوليس وقد اتمنا معاملات السفر لمحت فاليريا تهز رأسها هزات عنيفة متلاحقة دون أن تلفظ بكلمة وتركها لحالها فترة ثم سألتها إذا كانت تعاني شيئاً من الألم ؟ .

فسكتت برهة ثم أجابت بفرنسية تحالطها سطحية العقلية السلافية :

« هناك رجل آخر في حياتي »

كان ما سمعته كزوج شيئاً بشعاً بالطبع .. ولكن لم يكن بوسعي أن اضربها في الشارع كما يفعل الرجل العامي المتبدل الشريف ولقد كظمت غيظي فقد علمتني آلامي السرية عبر

السنين كيف أكبح جماحي بما لا يستطيعه انسان .. ولكنني شعرت بغضب حارق يحتاجني ليس لأن حباً حاراً يراوحي حيال هذه المخلوقة السخيفة مدام همبرت زوجتي إنما لأنني كنت اعتقد أن من شأني وحدي أن اقرر في حياتنا الزوجية علاقات الوصال المشروعة والمحرمة .. وهكذا فوجئت بهذه البلهاء وهي تلعب دوراً في أقداري وحياتي .

وجدتني حائراً فدفعتها إلى سيارة تاكسي لاحظت انها كانت منذ أمد تسير بمحاذاة الرصيف كمن يدعونا بالحاح اليها .. سألتها في السيارة عن اسم عشيقها فلم تجب إنما أخذت تتنحب مثرثرة متحدثة عن تعاستها في حياتها معي ولم أطق صبراً فصحت فيها بصوت غاضب اسألها اسم عشيقها .. ولكنها مضت في ثرثرتها قائلة إنها أعدت العدة لكي تطلب الطلاق فوراً . وأخيراً لم أتمالك نفسي فضربتني بقبضتي على ركبتيها سائلاً إياها عن يكون عشيقها ؟

ودون أن تلفظ بكلمة ودون أن يهتز لها جفن تطلعت في وجهي كما لو كان الجواب بديهاً لا يحتاج إلى كلمات وهزت بكتفها ثم أشارت بأصبعها إلى رقبة سائق السيارة .. هذا هو العشيق ذو الرقبة الغليظة .

أوقف السائق السيارة عند مقهى صغير نزلنا إليه نحن الثلاثة وقدم لي نفسه معلناً اسماً طويلاً مضحكاً مشفَعاً إياه بلقب كولونيل سابق في الجيش الروسي .. كان واحداً من آلاف الروس البيض الذين يعيشون في باريس مدعين أنهم كانوا أهل

الحسب والنسب في روسيا القيصرية ..

وعلى المائدة أخذت زوجتي تقذفني بسيل من الكلام الدامع متحدثة عن اهمالي لها .. عن عدم احترامي لشخصيتها بينما كانت تنفجر بين الحين والآخر بلغة سلافية موجهة بالطبع إلى عشيقها البليد .

وأصبح الوضع محرّجاً غريباً وخاصة عندما أسكت السائق — الكولونيل — زوجتي بابتسامة آمرة ليبدأ بالتحدث عن نواياه وكيف يعد العدة لكي يدخل إلى حياة من الحب والعمل مع زوجتي .. هذا بينما كانت فاليريا موزعة النظرات بيني وبينه كأنها قاصرة وديعة أثناء عملية استلام وتسليم بين وصي قديم ووصي جديد .

ورغم انني كنت في حالة من الغضب والدهشة منعتني من أن اسمع كل ما يقول فإنني استطيع ان اقم بأنه استشارني في كل شيء عنها بما في ذلك نظام أكلها ونظام عاداتها الشهرية وطبيعة الكتب التي تطالعها ..

ووضعت حداً لهذا الهذر عندما اقترحت أن تنتقل فاليريا لتحزم أمتعتها وترحل بها من بيتي ولكن الكولونيل تطوع بشهامة لأن ينقل الأمتعة بسيارته .

وعدنا معه إلى بيتي بينما كانت فاليريا تثرثر طول الطريق . وبينما كنت حائراً أسأل نفسي إذا كان يجب أن اقتلها أو اقتل عشيقها أو اقتلها معاً .. أو إذا كان يجب أن اتركها كحشرتين تنطلقان في فيافي الحياة ..

وهنا تذكرت مرحلة في شبابي فكرت فيها بأن أقتل
بمسدسي رقيقاً لي لأتمتع بأخته فقد كانت مراهقة وحرورية
مسعورة أثارت الشيطان في جسدي ... ولكنني لم أفعل
وخرجت من استعراض هذه الذكرى بأن فاليريا لا تستحق ان
اقتلها لا بالرصاص ولا خنقاً .

وفي البيت أثناء حزم المتاع كنت كالمتفرج الأبله في مسرح
تعرض فيه تمثيلية أعلى من مداركه .

فلما ذهبنا من البيت شعرت بالغضب الشديد لأنه كان
يتصرف كأن ما حدث كان شيئاً طبيعياً جداً وكأني شخص
لا يؤبه له ففكرت في أن ألحق به وأقتله وتطلعت حولي باحثاً
عن سلاح ثم اندفعت إلى المطبخ لافتش عن سلاح أفضل من
المكنسة ولكن السكاكين لم تعجبني فخرجت دون سلاح إلى
الشارع مصمماً على ان أهاجمه بقبضتي العارية رغم أنه يفوقني
قوة وحجماً ولكنني لم أجد إلا الفراغ والحواء في الشارع ولم
أجد من آثار امرأتي سوى زر عظمي وقع منها في الوحل
وتذكرت أنها كانت تحتفظ به منذ ثلاث سنوات في علبة
مكسورة .

ولم أسمع عنهما شيئاً بعد ذلك سوى أنهما ذهبا إلى كاليفورنيا
حيث استأجرهما عالم أمريكي مختص بالأجناس البشرية وأخذ
يجري عليهما تجاربه المتعلقة برد فعل الجنس البشري ورد فعل
الجسد الانساني حيال غذاء وحيد هو الموز والتمر .. هذا على
شرط أن يبقى الإنسان موضع التجربة طيلة الوقت سائراً

أو واقفاً على قوائمه الأربع ..

ولقد أقسم لي مخبري وهو طبيب بأنه رأى فاليريا وزوجها الكولونيل الأشيب وهما يدبان على أربعة مثل عدد آخر من اليائسين الذين استأجرهم العالم الأمريكي لتجاربه .
ولقد حاولت جهدي أن أعثر على نتائج هذه الأبحاث في مجلة « الانتربولوجي - علم السلالات البشرية » ولكن عبثاً .
ويبدو أن نتائج أبحاث من هذا النوع تتطلب وقتاً أطول مما يظن .

- ٩ -

أخترت إجراءات الطلاق سفري إلى الولايات المتحدة فلم اصل إليها إلا بعد أن قضيت شتاء مملاً في البرتغال .
وفي نيويورك قبلت الوظيفة السهلة التي عرضت عليّ ألا وهي إصدار نشرات دعائية عن عطور شركة عمي .
وفي الوقت ذاته حثتني إحدى جامعات نيويورك على أن أنهي المؤلف الذي باشرته عن تاريخ الأدب الفرنسي والذي اقتضاني الجزء الأول منه ساعات طويلة من العمل لمدة سنتين .
وانني إذ أعود بالذاكرة إلى تلك الأيام فأنني أراها منقسمة إلى ساعات من الضوء الساطع وساعات من الظلام المعتمة .. إن الساعات الساطعة هي الساعات التي كنت أقوم فيها بأبحاثي في المكتبات العامة أما ساعات الظلام فترمز إلى رغباتي الشائرة

المشفوعة بالأرق الشديد .

أما وقد عرفني القارىء جيداً فإنه يستطيع بسهولة أن يتصور اغبراري واحتراتي وأنا احاول ان ألتقط بنظراتي لمحات من أجساد المراهقات المسعورات اللواتي كن يلعبن (بعيداً عني وبالأسف) في الحديقة العامة ويستطيع أن يتصور كذلك تقززني من الفتيات المحترفات اللواتي كان لا ينفك يعرضهن علي نذل مرح ..

ولكن لأضرب صفحاً عن ذلك كيما اخبر القارىء أن هذه الحالة سببت لي انهياراً عصبياً أرسلني إلى مصح الأمراض النفسية قضيت فيه أكثر من سنة فلما عدت لاستئناف عملي لم يطل بي الأمر حتى عدت إلى المصح .

وهنا بدا لأطبائي بأن الحياة في الهواء الطلق خليقة بان توفر لي بعض الشفاء وكان من بينهم طبيب شاب مرح لاذع النكتة ذو حية كستنائية اهتم بأمرني وألحقني ببعثة إلى منطقة القطب الكندية يرئسها أخوه وذلك لأعمل مسجلاً للانفعالات والانعكاسات النفسية في الحياة القطبية .

ذهبت مع البعثة وتشاطرت من حين لآخر مع شابين من علماء النبات ومع نجار عجوز المسرات التي كانت تمنحها لنا بكرم الدكتوراة أنيتا جونسون إحدى اخصائيات التغذية الملحقة بالبعثة ويسرني أن اقول أنها لم تمكث طويلاً فقد اعيدت إلى الولايات المتحدة .

ومع اني كنت أعمل مع البعثة فلم تكن لدي فكرة كاملة عن هدفها والغرض منها فقد بدت لي أعمالها غامضة وخاصة بعد ما انشأت جماعة من البعثة بالاشتراك مع الكنديين محطة لرصد الطقس بينما أخذت جماعة أخرى منها تجمع الأسماء الفقرية بالاضافة إلى جماعة ثالثة أخذت تدرس أحوال السل في صحراء توندرا الثلجية .

وفي أثناء اقامتنا في تلك المنطقة القطبية كنا نأوي إلى بيوت من الخشب وسط فلاة صامتة موحشة ولقد تحسنت صحتي تحسناً عجبياً على الرغم من الوحدة والضجر ، ولقد شعرت بشكل غريب بأنني في معزل عن ذاتي بالذات ! فما كانت هناك من إغراءات تثيرني ولم تكن بنات الاسكيمو برائحة السمك المتصاعدة منهن وبشعورهن السوداء التي تشبه في اللون جنح الغراب ووجوههن الخنزيرية ليثرن من الرغبات في نفسي إلا أقل مما كانت تثيره الدكتورة جونسون . فالمراهقات الحوريات المسعورات هن صنف غير متوفر في المناطق القطبية .

تركت زملائي يلتهمون بتحليل التحولات الجليدية والأضواء القطبية وغيرها من مظاهر الطبيعة القطبية وحاولت في بادئ الأمر ان أسجل جدياً ما كنت اعتبر من ردود الفعل والانعكاسات في النفس الانسانية بتأثير الطبيعة القطبية (وفعلاً فقد لاحظت أن الأحلام اثناء شمس نصف الليل القطبية تكون ملونة جداً) وكان مفروضاً ان أستجوب زملائي عن عدد من مشاعرهم مثل مشاعر السويداء والخوف من الحيوانات المجهولة

والهوس الغذائي وتخيلاتهم عن أصوات غامضة يسمعونها الخ ..
الخ .. ولكن الجميع سئموا من هذه الاستجابات فأقلعت عنها
تماماً ولم أكتب تقريرى المرتجل إلا في عشية انتهاء فترة العشرين
شهر التي قضيتها هناك فقد أدركت أن للبعثة مهمة سرية هي
غير مهمة دراسة الأحوال الغذائية والنفسية وغير ذلك .

ولعل القارىء سيأسف إذ يعلم بأنني تعرضت بعد عودتي
إلى العالم الحضاري الى موجة أخرى من الجنون هذا إذا كان
من الممكن اطلاق هذه اللفظة القاسية (الجنون) على شعور
بالسوידاء مشفوع بشعور كان يوحى إليّ بأنني مضطهد ...

وانني مدين بشفائي من تلك الحالة الى اكتشاف توصلت اليه
وانا أعالج في ذلك المصح الباهظ التكاليف ، فلقد اكتشفت
ينبوعاً غنياً بالبهجة العارمة يكمن في مخادعتي لعلاء النفس
والمكر بهم عن طريق جرهم ببراءة الى ظنون ونتائج لا علاقة
لها بي . فكنت (دون ان أجعلهم يحسون بأنني اعرف أسرار
مهمتهم) اخترع لهم الأحلام التي تدل على حالات غير موجودة
عندي .. وأبتكر لهم رؤى كنت ازعم أنني أراها في يقظتي
هذا دون ان أتيح لهم اقل فرصة للتعرف على حقيقة إحساساتي
الجنسية ...

واستطعت برشوتي إحدى المرضات أن اصل إلى قراءة
التقارير السرية التي وضعها الأطباء النفسيون على ضوء معالجتهم
لي .. فاكتشفت بشعور من المتعة ان بعضهم قد صنفني من جملة
الأشخاص أصحاب الاستعداد للشذوذ الجنسي بينما صنفني بعضهم

في فئة الأشخاص أصحاب العفة الكاملة ..
كانت رياضي هذه مع الأطباء النفسين ممتازة وقد أدت إلى
بقائي في المصح شهراً اضافياً رغم شفائي التام ، استمتعت خلاله
بنوم مريح ومأكل هنيء وأضعت الى ذلك الشهر اسبوعاً آخر
قضيته في الضحك سراً على طبيب مشهور التحق مؤخراً
بالمصح ..

- ١٠ -

بعد خروجي من المصح أخذت افتش في الأرياف عن قرية
هادئة أو مدينة صغيرة أستطيع أن امضي فيها الصيف مكرساً
وقتي لانهاء مؤلفي الأدبي وللسباحة في بحيرة قريبة .
كان عملي قد بدأ من جديد يستحوذ على اهتمامي . أما نصيبي
في الدعاية للمستحضرات العطرية التي تنتجها شركة المرحوم عمي
فقد تضائل الى الحد الأدنى .

واستجابة لتساؤلاتي اقترح علي أحد موظفي عمي السابقين
ان أقضي شهور الصيف في مسكن ابن عمي الفقير المستر « ماك
كو » الذي يريد أن يؤجر الطابق العلوي من بيته بعد أن شغل
ب وفاة عمته .

وذكر لي أن لابن عمي ابنتين إحداهما رضيعة والأخرى في
الثانية عشرة من عمرها وان لبيته حديقة جميلة غير بعيدة عن
بحيرة بديعة .. وهكذا فقد وجدت اقتراحه بديعاً ومرضياً .

وبعد مكاتبات مع العائلة المعينة تم الاتفاق وتوجهت بالقطار
حيث قضيت ليلة ليلاء وانا أحاول أن أتخيل مفساتن المراهقة
المسعورة التي سأعيشها في بيت ماك كو والتي سأغازلها
بفرنسيتي وأقاربها بالطريقة الهمبرية (طريقتي فاسمي هو همبرت
كما يذكر القارىء) .

لم يستقبلني أحد في المحطة الصغيرة وأنا أترجل حاملاً حقيقتي
الشمينة فتوجهت إلى الفندق الوحيد حيث ظهر أمامي بغثة رجل
معروق مبتل الثياب ليخبرني بأن بيته قد احترق لتوه (ربما
بسبب الالتهاآت الحارة التي كانت تضطرم في عروقي طيلة الليل
في القطار) .

وقد قال لي أن عائلته قد لجأت إلى مزرعة يملكها وان
صديقة حميمة لزوجته هي المسز هيز قد عرضت أن تأويني
عندها .

وساورتني خواطر بالعودة فقد زال ما كان يغريني بالسكن
لدى ماك كو وشعرت بالغضب والضعف ولكنني كأوروبي
مهذب لم استطع أن أرفض الذهاب إلى بيت المسز هيز في سيارة
سوداء ذات سائق زنجي استعارها ماك كو من جارة له ..

وفي الطريق اقسمت فيما بيني وبين نفسي بانني لن أبقى في
مدينة رامسدیل هذه وانني سأستقل الطائرة في هذا اليوم
بالذات إلى برموده أو الى جزر بهاما أو غيرها فقد كان احتمال
عثوري على شواطئ رائعة الأجواء تداعب تخيلتي رغم ان ابن
عم ماك كو كان قد استطاع ، عن طريق إلهابه خيالي بوجود

الفتاة المراهقة ، تحويل قطار أفكاري عن التوجه الى تلك السواحل الاستوائية الدافئة .. ولكن صورة هذه الشواطئ عادت الى مخيلتي الآن ..

ووصلنا أخيراً بعد ان كدنا ندهس كلباً ناعساً في طريقنا الى بيت المسز هيز .. كان منزلاً من تلك المنازل البشعة المدهونة بلون ابيض مقذع ولقد بدا لي بيتاً قديماً على وشك التقوض من تلك البيوت التي توجي اليك بأنك ستجد في حمامها خرطوما بدلاً من حديدة الدوش .

أعطيت السائق الزنجي بقشيشاً راجياً أن يغيب بسرعة عن المكان حتى استطيع ان اقفل عائداً أدراجي ولكن السائق تحول الى الرصيف الآخر من الطريق ليرد على اسئلة سيدة عجوز نادته من عتبة دارها وهكذا لم استطع إلا ان أقرع جرس بيت المسز هيز .

وفتحت لي الباب خادم زنجية تركتني على العتبة بينما اندفعت الى المطبخ لتتدارك شيئاً كان يحترق ..

كان أثاث الصالون مزيجاً من الأثاث الخشبي التجاري المكسيكي وكان يدل على أن اصحابه من الطبقة الوسطى وانهم عريقون في أجواء تلك الطبقة ومفاهيمها ..

وفجأة أتاني صوت المسز هيز التي انحنى على حاجز درج الصالون متسائلة :

— حضرتك السيد همبرت ؟

تساقط سؤالها في الجو مع شيء من رماد سيكرتها ولم تنتظر

جوابي فانحدرت على الدرج بصندلها الأحمر وثوبها الكستنائي اللون وقيصها الحريري الأزرق ووجهها المربع الشكل ..
اعتقد أنه من الأفضل ان أصفها في الحال لتتخلص أنا والقارىء منها .. كانت في منتصف العقد الثالث من عمرها .. في عشية الخريف من عمرها وكانت ذات جبهة وضيئة وحاجبين منتوفين ، بسيطة المظهر ولكن ملاحظها لم تكن غير جذابة .. كانت من النوع الذي هو حل وسط بين النسوة العاديات والنسوة اللواتي يشبهن مارلين ديتريش ..

تحدثنا برهة عن الحريق الذي أتى على بيت ماك كو ثم عن مزايا الإقامة في مدينة رامسديل .. ووجدتها ذات عينين خضراوين لهما طريقة عجيبة في استعراضك من فوق لتحت مع تجنب الالتقاء بنظراتك .

وقد جلست على الصوفا ووضعت تحتها إحدى ساقها بينما مدت الساق الأخرى بحرية .. كانت بوضوح من تلك النساء اللواتي قد يكشف لك كلامهن المصقول المذهب عن انتمائهن الى نادٍ أدبي او نادٍ خيرى او غير ذلك من المنظمات التقليدية المضجرة بشكل قاتل ولكنه لا يكشف مطلقاً عن روحهن أو نفسيتهن . كانت من الصنف النسائي المحروم قطعياً من روح النكتة ، غير المهتم قطعياً بمشترات المواضيع التي تبحث في الصالونات بحرارة . ولكن هذا الصنف حريص في الوقت نفسه على قواعد الحديث وأصوله حرصاً يكشف عن تكلف لا يثير قابلية الرجال إليه ..

لقد أدركت منذ الوهلة الأولى بأنه إذا صدف وقطنت في منزلها فإنها ستبدأ بالتصرف معي وفق ما يعنيه لها مفهوم ايواء نزبل عندها : وهكذا سأنغمس مرة أخرى في ذلك النوع من العلاقات الغرامية البشعة التي عرفت بها جيداً .

ولهذا فقد بدت مسألة اقامتي في بيتها غير واردة ولكنني سايرتها وصعدت معها الى الطابق العلوي لأتفقد الغرفة التي رفضتها سلفاً في أعماق نفسي .. كانت غرفة تشبه غرف الخادومات بأثاثها وزينتها المبتذلة ولكنها دعتها بأنها نصف - ستوديو .. وقررت في نفسي ان أغادر المكان في الحال بينما كنت اظاهر بالتفكير في الأجر الرخيص الذي طلبته المسز هيز مقابل المأوى والأكل .

إلا ان تهذيبي كانسان من العالم الأوروبي القديم أجبرني على المضي في المسيرة وفي تفقد الجناح الذي يضم غرفتي وغرفة لوليتا (خيل لي آنذاك أن لوليتا هو اسم الخادمة) .
وفجأة قالت لي السيدة وقد تركت يدها تستريح برهة على ساعدي :

- أرى ان المكان لم يعجبك كثيراً ..
كانت تقف وقفة من الوقفات المفروض انها مغرية ولكن بشيء من الخجل .
وتابعت كلامها :

- انني اعترف بان بيتي ليس على ما يرام ولكنني أؤكد لك (تطلعت أثناء ذلك إلى شفتي) بأنك ستكون مرتاحاً

جداً عندنا .. دعني أريك الحديقة ..

وبتردد نزلت معها الدرج وعبرنا غرفة الطعام ومنها الى الصالون حيث فتحت باباً أطل فجأة على رقعة شديدة الاخضرار .. ولما خرجت الى الحديقة شعرت بموجة بحرية جارفة تتلاشى على جدران قلبي .. ورأيت في ضياء الشمس عند مسبح الحديقة حبيبة الريفيرا تسترق النظر اليّ من وراء نظارتها السوداء وهي منحنية على ركبتها نصف عارية ..

أجل انها أنا بيل بالذات .. مراهقة الريفيرا ، الحبيبة التي سببت صدع حياتي .. وجدتها من جديد .. بكتفها الملوحتين بشقرة خفيفة وبذات الظهر العاري الناعم المحملي وبذات اجدال الكستنائية .. كان هناك منديل ملون يخفي عن نظراتي صدرها ولكنه لم يستطع ان يخفي عن نظرات ذاكرتي المراهقة تلكما الشدين المتمردين اللذين عبثت بهما على شاطئ الريفيرا في يوم خالد من حياتي ..

كان الشبه غريباً عجيباً ولقد ملأني سروراً وحبوراً فخیل إليّ انني بطل رواية اسطورية من الروايات التي تقص للأطفال عن أمير خطف الجن حبيبته ثم ما لبث ان اكتشفها بعد طويل بحث في أسمال الفجر ..

ومن وراء ظهر المسز هيز تطلعت من جديد الى بطن تلك الحورية المستحمة في الشمس ... الحورية التي عادت فيها حبيبتي أنا بيل إلى الحياة واستقرت نظراتي على ذلك البطن الخفيض الذي أرحت رأسي عليه فترة قصيرة في الريفيرا ثم استقرت

نظراتي على وركيها الأنيقين النحيلين اللذين قبّلت الأثر الذي تركه عليهما حزام سرواها في ذلك اليوم الجنوبي عند الصخور البنفسجية الظلال .

في هذه اللحظة انمحت من حياتي فترة الخمسة والعشرين عاماً التي تفصل بين ذلك اليوم على الريفيرا وبين هذا اليوم في حديقة المسز هيز .

إنني أجد صعوبة قصوى في التعبير عن ذلك الزخم الذي اندفع في نفسي وعن تلك القشعريرة التي سرت في جسدي وعن ذلك التأثير العاطفي الذي أصابني وأنا أطلع إلى تلك المراهقة الجاثية على ركبتيهما . وشعرت بفراغ نفسي يمتص كل لحظة من ملامح جمالها البارق ويقارنها بلامح حبيبتي الراحلة .. ولكن لم يمض قليل حتى محت هذه الجديدة التي تدعى لوليتا صورة نموذجها الأصلي آنا بيل .

إن كل ما أريد تأكيده هنا هو ان اكتشافي لها كان نتيجة مفاجئة لحلم الجزيرة المسحورة التي تقطنها حوريات مسعورات ذلك الحلم الذي رافق أيام ماضي المذهب ؛ فكل شيء جرى لي بين الحادثين (فقداني لآنا بيل واكتشافي للوليتا) لم يكن إلا خبطات عشواء في بحر الحياة ولم يكن ما عرفته من مسرات في تلك الفترة سوى شعور مزيف بالغبطة .

لست اشك هنا بأن قضاتي سيأخذون هذا الكلام بمثابة هذيان من رجل مجنون ذي ميل فظيع الى « الفاكهة الفجة » ولكن هذا لا يعني في الحقيقة ... كل ما أعرفه هو ان باقي

كانتا ترتجفان وأنا اسير وراء المسز هيز الى الحديقة كانعكاس
ساقين على مياه مضطربة .. اما شفتاي فقد اصبحتا جافتين
محرقتين كرمل الصحراء ..

ولما هتفت بي مسز هيز قائلة :

— هذه ابنتي « لوليتا » وهذه هي أزايري ..

اجبتها حالاً :

— أجل انها جميلة .. جميلة جداً .. جميلة .

— ١١ —

انني انقل هنا من الذاكرة التي تشبه ذاكرة الجاسوس الذي
يبتلع الرسالة السرية التي يحملها بعد أن يكون قد حفظ
محتوياتها غيباً بحيث يستطيع سردها متى شاء ..

اقول انني انقل من الذاكرة عن دفتر مذكرات انيق لعام
١٩٤٧ كنت احمله في جيبى وادون فيه مذكراتي بنوع
من الاقتضاب وبرموز اعرفها وحدي .

٣٠ أيار (مايو) — انتشر وباء الأنفلونزا وأدى الى اغلاق
المدارس ذلك الصيف في رامسديل وبعد ايام من ذلك انتقلت
للاقامة في بيت المسز هيز ..

ان المقتطفات التي سأسردها الآن تتعلق بمعظمها بأيام شهر
حزيران (يونيو) .

الخميس : كان يوماً قائظاً ولقد استطعت ان ارى من نافذة

الحمام دولوريس (لوليتا) وهي ترفع الغسيل من حبل ممدود في
الباحة الخلفية من البيت .. ثم رأيتها تخرج من الباحة ..
كانت ترتدي قميصاً شفافاً وسروالاً رجالياً أزرق .. وكانت
كل حركة من حركاتها تضرب على اوتاري الباطنية الحساسة ..
في جسدي الداعر المتيقظ .. فخرجت انا كذلك الى الحديقة
وجلس على الدرج وما لبثت ان جلست هي الاخرى على
درجة ادنى واخذت تلتقط الحصى بين قدميها .. ما اروع
قدميها انني استطيع ان أقضمهما كما أقضم قصب السكر .. وان
العق بشرتهما الناصعة الحليبية كما العق الحلوى .

ويا لبشرتها الرائعة الصافية .. ان حب الشباب الذي يعكر
صفاء جلد المراهقات لا يظهر قطعاً على الحوريات المسعورات
مهما أكلن من الاغذية المهيجة !!

تذكرت هنا ان احلامي في القطار حامت حول ابنة
مان كو ، ثم عرفت تلك الفتاة .. فرأيتها نحيلة ممرضة وعرجاء
يكاد شلل الاطفال يقتلها .. ما أبعد الفرق بينها وبين هذه
الحورية التي تتفجر بالحياة والحيوية المثيرة لجنون الشهوة .

ولما نهضت لتأخذ الغسيل اتيح لي ان اتأمل من بعيد
باعجاب مؤخرة سروالها الرجالي الباهتة اللون من الجلوس .
وظهرت في تلك الاثناء المسز هيز وقد تسلحت بآلة تصوير
وبعد هرج ومرج منها التقطت صورتي وانا جالس على الدرج
احدق بنظرات تأهة غائمة .

يوم الجمعة : رأيتها ذاهبة مع فتاة داكنة السمرة تدعى

روز .. انني اتساءل لماذا تثيرني الطريقة التي تسير بها وتبعث في نفسي هذا الهياج الخفيف .. وهي مجرد طفلة !!
ان كلامها العامي بصوتها المرتفع الحشن النبرة ليحرك نفسي ايضاً الى ما لا نهاية ..

السبت : انني اعرف ان من الجنون ان اسجل هذه المذكرات اليومية ولكن ذلك يبعث في نفسي رجفة غريبة تبهر نفسي .
واذكر بغصة هذا اليوم ان لوليتا كانت تأخذ حماماً شمسياً قرب المسبح ولكن امها وصاحبات لأمها كن حولها طيلة الوقت .

وبالطبع كان بإمكانني ان اجلس هناك على الكرسي الهزاز متصنعاً القراءة ولكنني آثرت السلامة فابتعدت اذ خشيت ان يمنعني اختلاجي الجنوني وارتعاشي المضحك المبكي من ان اجعل دخولي المنطقة يبدو طبيعياً عرضياً .

يوم الاحد : لا يزال الجو قائظاً والحرارة خانقة وقد احتطت لامري فاخترت موقعاً ستراتيغياً عند المسبح وجلست على الكرسي الهزاز متظاهراً بالقراءة قبل ان تأتي لوليتا للاستحمام ولحبيتي الشديدة جاءت مع امها وقد ارتدت كل منهما ثوب الاستحمام . وقفت حبيبي للحظة بقربي وكانت تنبعث منها رائحة قماماً مثل رائحة حبيبة الريفيرا ولكنها كانت اشد واقوى ، انها رائحة تلفحها الحرارة ايقظت رجولي في الحال ... ولكن لوليتا سارعت بالانكفاء الى قرب امها حيث استلقت على بطنها تعرض علي .. وعلى الالف عين المبحلة

في دمائي لوحات كتفيها العاريتين وتموجات عمودها الفقري
المورد ومكورات قفاها المستورة بثوب الاستحمام الاسود ...
وهي تقرأ دسنة من كتب الكوميك (كتب الرسوم الهزلية
المصورة) .. كانت اجمل حورية مراهقة واذ كنت التهمها
بظراقي عبر الوهج الشمسي وشفثاي الجافتان تعكسان شبحي
اليها ، شعرت بان احساسي بها قد يكون كافياً لتوفير اكتفائي
الجنسي في الحال بواسطة الايحاء الذاتي ولكنني كحيوان مفترس
يفضل الفريسة الحية على الميتة قررت ان اتوصل الى هذه النتيجة
التي تدعو للرثاء عندما تقوم لوليتا باحدى حركاتها الصبيانية
كان تحاول حك ظهرها كاشفة عن ابطنها المنمش بالشعر
الرقيق ...

ولكن امها البدينة المسزهيذ قد افسدت كل شيء اذ قطعت
تركيزي الذهني - الجنسي اذ طلبت اليّ ان اشعل سيكارتها
ثم بدأت معي حديثاً مصطنع الجدد عن كتاب سخيّف لكاتب
شعبي دجال ...

يوم الاثنين : تميز هذا اليوم بخيبة امل كبرى فقد كنا نعد
العدة (الام هيز ولوليتا وانا) للذهاب الى البحيرة للنزهة
والسباحة ولكن ندى الضحى وقبظه تحولا الى امطار هائلة
عند الظهر ...

لقد تبين ان متوسط سن بلوغ الفتيات هو ١٣ عاماً و ٩
اشهر في نيويورك وشيكاغو الا ان هذا السن يتراوح افرادياً بين
العاشرة والسابعة عشرة .

ففرجينيا لم تكن قد بلغت الرابعة عشرة من عمرها عندما
امتلكها الشاعر المشهور هاري ادغار الذي كان يعطيها دروساً
في الجبر - تصوروا هذا -

اني املك كل المميزات والملامح التي يقول عنها الباحثون
في اهتمامات الأطفال الجنسية انها تثير الاستجابات المتحفزة في
جسد المراهقة الصغيرة : فك انيق .. وصوت عميق وعضلات
بارزة وكتفان عريضان .. وبالإضافة إلى ذلك يقال انني اشبه
مغنياً او ممثلاً تهيم لوليتا حباً به في خيالها المراهق ..

يوم الثلاثاء : امطار .. وامطار .. ذهبت الام الى السوق .
اما لوليتا فكانت كما اعلم في مكان ما من البيت .. وبعد مناورات
بارعة مني صادفتها في غرفة نوم امها وهي تحاول إخراج ذرة
طرفت عينها اليسرى فاسترقت خطواتي وتقدمت نحوها
فامسكتها من كتفها بقوة ثم امسكت بها برقة من طرفي رأسها
وادرتها نحو ي فقلت لي :

- ان هذه القشة تحتبىء تحت الجفن .. انني احس بها
فقلت لها :

- ان الفلاحين السويسريين يستخدمون رأس اللسان
لاستخراجها فهل تريدان ان احسها لك ؟
ولما اجابت بالموافقة امررت طرف لساني الملتهب على طول
مقلتها فقلت لي :

- ما ابداع ذلك لقد ذهبت ...

فقلت لها : إذن فلنعالج العين الاخرى .

- ايها الغبي ليس هناك شيء في ..

ولم تتم كلامها فقد احسنت بشفتي تقتربان فاستسلمت مطواعة
ومدت بحياها الدافئ الجميل نحوي بينما كنت الثم جفنها
الكحيل .. وما لبثت أن ضحكت واخرجتني من الخدع ..
وانا اشعر بقلبي يسبح بسعادة غمرت كل مكان .. وبشكل لم
يحدث لي مثله من قبل حتى في اثناء مداعباتي مع حبيبتي آنابيل
في فرنسا .

ولكن عندما حل الليل شعرت بعذاب نفسي لا مثيل له ..
فلقد اردت ان اصف لنفسي وجهها وعبثها ولكنني لم استطع
لان شوقي اليها يعميني عندما تكون قريبة .. فلم أعود ان
اكون على مقربة من الحوريات المسعورات .. وهكذا كنت
لا ارى اذا اغلقت عيني سوى لمحات لا تتحرك منها مثل الصور
الفوتوغرافية .. لمحات من ساقينها العاريتين مشفوعة بصدى
صوت امها يهتف بها :

« دولوريس لا تكشفني عن ساقيك »

اني استطيع ان اكون شاعراً في ساعات مزاجي الرائق
وقد كتبت شعراً أتغزل فيه برموشها القائلة وعينيها العميقتين ..
وبرشاقة تقاطيعها ولكنني ما لبثت ان مزقت القصيدة .. انني
لم أصف كل ملامح لوليتا للقارئ .. انها كستنائية الشعر اما
شفتاها فقرمزيتان اما شفتها السفلى فتتجدر متناقلة باغراء ..
آه لو كنت سيدة كاتبة لكنت قد عريتها في الليل العراء ..
ولكنني رجل .. رجل فيه كل ملامح الرجولة الحشنة ..

وذو ابتسامة صبيانية ..

اما ما يشير جنوني فهو طبيعة هذه الحورية .. تلك الطبيعة ذات الشقين فهي ليست طفلة وهي ليست امرأة انما هي مزيج من براءة الطفولة في الملامح وعهر العاهرات في الحركات .. ومزيج من الوحل والاثير ..

والأهم من هذا ان لوليتا قد جسدت شبقي القديم فلم يعد هناك من شيء أهم منها .. فهي قبل كل شيء وفوق كل شيء ..
يوم الاربعاء : تقدمت لوليتا نحوي وهمست بصوت يرتعش بالشهوة قائلة : « اقنع امي بان تأخذني واياك الى البحيرة غداً . »

وكان ذلك عندما اصطدمننا عند الغسق على العتبة اصطداماً جعلني ارتعش بلذة حارقة مكتومة كاوراق شجرة الدردار التي كانت تتلاعب بها بقايا ريح الأصل .

يوم الخميس - جلسنا ليلاً عند البركة .. لوليتا وأمها وانا وكان الغسق الدافئ قد تحول الى ظلام مثير لنوازع الغرام .. وقد استمعنا مطولاً الى قصة الفيلم الذي شاهدته المسز هيز مع لوليتا في الشتاء الماضي .. بينما جلسنا على وسائل مكومة على الارض وكانت لوليتا تجلس بيني وبين امها .

وبدوري اندفعت أتحدث عن مغامراتي في القطب الشمالي بكثير من التفاصيل الخيالية المثيرة وجاءني شيطان الوحي فاعطاني بندقية اصبت بها دماً ابيض .. وبينما كنت اصف لهما مقتل الدب المزعوم كنت اشعر بقرب لوليتا مني وكنت احرك

يدي مع كلامي منتهزاً فرصة الظلام لأمس كيفما اتفق أي موضع من جسد لوليتا ، فكنت أحياناً أمس يدها وأحياناً كنتفها بينما كانت تلعب بدمية من الصوف ظلت تقذفها الى حجري .. وعندما اثرت دماء لوليتا بتلك المغازلات الحثيثة تجرأت واخذت افرك ساقيها العاريتين منتهزاً فرصة ضحكي من حين لآخر حتى اهوي عليها واتنشق عبير رأسها وامرغ وجهي فيما يبرز ويتكور من جسدها ..

أما هي فقد كانت متجاوبة معي في هذا العبث ولكن لما اكثرت من دلعها امرتها امها بالعودة الى البيت وقذفت بالعبة الى الفضاء اما انا فقد ضحكت وتوجهت بالكلام الى امها عبر ساق لوليتا حتى تستطيع يدي ان تدب تحت سروالها لتتحسس جلدنا الناعم ..

على انني لم انس ان كل ذلك لا ينطوي على فائدة .. وشعرت بالحنين يمرضني كما شعرت بشيبي تضيق علي حتى تكاد تخنقني بحيث شعرت بسرور عندما هتفت امها في العتمة :

— إننا نعتقد جميعاً بأن على لوليتا ان تأوي الآن الى فراشها. فأجابتها لوليتا :

— اعتقد انكما تخثران ..

— اذن لن تكون هناك نزهة الى البحيرة ..

— هذه بلاد حرة يا امي .. فلا يمكنك ان تستبدي في هذه

الامور .

قالت لوليتا ذلك برنة سوقية متمردة واندفعت الى البيت

بينما بقيت انا في مكاني بحكم الاستمرار لاشاهد الام تدخن سيكارتها العاشرة واسمعتها تشكو طويلاً من لوليتا .

قالت لي انها كانت مناكدة مشاكسه منذ كانت في العام الاول من عمرها فكانت لا تنفك تلقي بلعبها الى الارض حتى تظل امها المسكينه منحنية تلتقط اللعب لها .

اما وقد بلغت الثانية عشرة الآن ، فقد اصبحت آفة مزمنة (هكذا قالت امها) فهي لا تريد من الحياة شيئاً سوى ان تقضي يوماً راقصة متخلعة .. متشلعة وهي لا تحصل في المدرسة الا على ادنى الدرجات ولكنها مع ذلك اصبحت احسن حالاً بما كانت عليه في مدينة بيسكي قبل سنتين .

سألت الام هيز :

– ما الذي كان يزعج لوليتا هناك ؟

– اوه .. انني اعلم طبيعة ذلك الازعاج فلقد مررت به عندما كنت طفلة .. فقد عانيت الكثير من الاولاد الذين يضربون الفتيات ويبرمون اذرعتهن ويشدون شعورهن .. ويعبثون بصدورهن .. ويرفعون تنوراتهن . وبالطبع فإن التزق من هذه المعاكسات هو من طبيعة الفتيات في هذه السن ولكن لوليتا كانت تبالغ في الامر ..

أعرف ما اريده منك يا سيدي .. اريد اذا كنت ستبقى معنا الى الخريف ان تعطيتها بعض الدروس لتساعدنا في دراستها او يبدو انك تعرف كل شيء .. الجغرافيا . الحساب .. الفرنسية ..

- أجل كل شيء ..

- هل يعني هذا انك ستبقى معنا ؟

اردت ان اصيح بانني اود ان ابقى بقرب لوليتا هنا الى الابد
اذا كنت استطيع فقط ان الامسها واداعبها بين الفترة
والاخرى !. ولكنني لم اجب على سؤال الام فقد كنت قد
ضجرت منها .. فنهضت وذهبت الى غرفتي ..

ويبدو ان الام لم تكن مستعدة لانهاء الليلة على خير فبينما
كنت مضجعا في فراشي ويديا تعانقان بشدة طيف لوليتا
سمعت لهاث صاحبة البيت وهي تتسلل الى باب غرفتي لتهمس
من بين دفتي الباب بانها جاءت لترى اذا كنت قد فرغت من
مطالعة المجلة التي استعرتها منها بالامس .. وانقذت لوليتا
الموقف .. فقد صاحت من غرفتها بان المجلة معها ..
وشكراً لله ..

يوم الجمعة - سأصاب بانهايار عصبي آخر اذا بقيت مدة
أطول في هذا البيت تحت وطأة اغراء لا يقاوم بجانب حبيبتي ..
عروسة احلامي وحياتي ..

انني لأتساءل اذا كانت امنا الطبيعة قد بدأت تعمل عملها
في جسد لوليتا وتدفعها الى طريق اسرار اللذة والجنس ؟
انني أكاد اجن .. انني اشعر بلعنة تنصب علي من السماء ..
اما اذا اقتربت جريمة جديدة خطيرة (ارجوا ان تلاحظوا
اذا « الشرطية ») فان حافزني عليها لا بد ان يكون شيئاً
اعمق مما حدث بيني وبين « فاليريا » زوجتي الخائنة ويجب ان

يلاحظ القارىء بانني كنت حينئذ عاجزاً فاذا ما رغب في ان
يعصر عنقي حتى الموت فيجب ان يذكر ان ما يستطيع ان
يعطيني شيئاً من القوة على ان اكون عتياً لا يعدو عن نفحة من
الجنون .. واني لأصبح عتياً جباراً في بعض الاحيان ولكن
في ، احلامي ولكن هل يدري القارىء كيف يكون الأمر !
انني ارى احياناً نفسى أشهر مسدساً واصوبه الى عدو
مرموق ثم اضغط على الزناد لأرى الرصاصات تنحدر الواحدة
بعد الاخرى على الارض من فوهة المسدس .. وكان همي الوحيد
في تلك المنامات ان اخفي الفشل عن عدوي .

اثاء الطعام هذه الليلة قالت لي الأم المكاراة وهي تغمز
بعينها غمزة ذات معنى صوب لوليتا قائلة :

— لقد لاحظت بانك بدأت تربى شاربيك والافضل ألا تفعل
حتى لا تسلب عقل « شخص ما »

وفي الحال دفعت لوليتا بصحنها جانباً وكادت توقع قدح
اللبن وخرجت من غرفة الطعام مستاءة بينا التفتت اليّ امها
قائلة :

— أياضيقك ان تأتي معنا غداً الى نزهة عند البحيرة اذا
اعتذرت لوليتا عن سلوكها ؟

وبعد ذلك انسحبت الأم وسمعت من بعيد عبر الابواب
خبطاً شديداً فعرفت ان الغريمتين تتشاجران وبالطبع لم تعتذر
لوليتا وبالتالي لم نذهب الى البحيرة .

يوم السبت — منذ أيام وانا اترك باب غرفتي مفتوحاً أثناء

انشغالي بالكتابة ولكن هذا الفخ لم ينجح الا اليوم .. فبكثير من اللف والدوران لتخفي حرصها من زيارتي دون ان ادعوها لذلك دخلت لوليتا الغرفة وبعد ان دارت هنا وهناك لففت انتباهها الصورة البيانية التي رسمتها لكابوس من كوابسي .. لقد كنت احلل هذه الكوابيس فلا اجدها من قبيل جموح الخيال الادبي انما اجد الدلائل على انها تنبع من شبقي القاتل الى الحورية المسعورة .

وإذ انحت برأسها الجميل على المنضدة التي اجلس اليها لف همبرت الفاجر (الذي هو انا) ذراعه حول وسطها في حركة من العطف الابوي مصطنعة اصطناعاً رديئاً وإذ كانت زائرتي البريئة تدرس مبهورة رسم كابوسي فقد اخذت تجلس بحركة عفوية تدريجية على حضني . وكان وجهها الرائع وشعرها الحريري وشفاتها المنفرجتان في متناول انياي العارية ، وشعرت بدفع جسدها يتصاعد من ثنايا ثيابها .. وادركت في الحال بانني استطيع ان اقبل عنقها وألثم فيها دون ان اخشى شيئاً .. فقد كنت اعرف بانها خليقة بان تتركني افعل ذلك وانها خليقة كذلك بان تتقبل قبلاقي وعيناها مغلقتان كنجمة سينائية ... لست استطيع ان اخبر قارئتي الذي لا بد ان حاجبيه قد ارتفعا حتى كادا يمسان أعلى جبهته من أين اتاني ذلك العلم .. فلربما استطاعت اذني المرفهة المدعومة بلا وعي ان تميز تغيراً طفيفاً في الايقاع الذي كان يسير عليه تنفسها ذلك لأنها في الواقع لم تكن مستغرقة في تأمل الرسم انما كانت تنتظر بفضول وتلهف

من نزيل بيت امها ان يفعل ما كان يتحرق الى ان يفعله ، وما كان غريباً عليها ان تتوقع ذلك ، وهي القارئة الخبيرة بمجالات السينما ومعانقات الشاشة السينائية . كانت كل الاسباب قد تهيأت ولكن فجأة ملأ صياح الخادمة البيت فقد كانت تخبر المسز هيز القادمة لتوها من السوق عن شيء قد مات .. عن حيوان وجدته ميتاً عند طرف الحديقة .

ولم تكن لوليتا بالتي تضيع فرصة سماع مثل هذه القصة فانحدرت بسرعة الى الصالون .

الاحد - افقت بمزاج متقلب بين الرضى والسأم ، وكذلك كانت لوليتا التي كانت كتكوتة غندورة في ثوبها القصير الذي يكشف عن ركبته العارية .

الاثنين - كان يوماً ما طراً .. وشعرت بنفسى اشبه ما اكون بعنكبوت شاحب من العناكب التي تراها في الحقائق القديمة وهي جاثمة وراء شباكها تتطلع هنا وهناك .

اما شباكي فقد نصبته في جميع أنحاء البيت فكنت اتسمع من مقعدي الحركات محاولاً تبين موضع لوليتا في البيت من وقع قدميها .. وانا ارجو بين الحين والآخر ان تظهر أمامي في مبادها .

ولما طال بي الانتظار خرجت اتفقدتها في الصالون فوجدت امها لا تزال تتحدث بالهاتف مع صديقة لها ولكن هذه المرة بصوت هامس .

وتساءلت اذا كانت حوريتي قد خرجت .. وشعرت بان

البيت قد أصبح ميتاً بارداً .. اوه يا لوليتا .. كم تصعب حياتي بدونك .

وفجأة سمعت من خلف بابي المشقوق صوت لوليتا ضاحكاً مداعباً :

« لقد أكلت كل نصيبك من لحم الخنزير ، فلا تخبر أُمي بذلك ! »

وهرعت الى الباب ، فاذا هي قد اختفت . أين أنت يا لوليتا؟ أنا لا يهمني طبق الفطور .. لولا ، لوليتا ..

الثلاثاء - اضطررنا مرة أخرى بسبب الغيوم الى تأجيل النزهة عند البحيرة .. هل يتأمر القدر علي ؟

الاربعاء - قالت لي هيز بعد الظهر انها ذاهبة للسوق لشراء هدية لصاحبة لها وطلبت مني ان اصحبها نظراً لان ذوقي رفيع في اختيار الاقشة والعطور .

والواقع انها دفعتمني دفعا الى سيارتها فلم استطع الهرب وإذا كنت ادفع بنفسي الى المقعد سمعت صوت لوليتا الرفيع من نافذة الصالون :

هيه الى أين ؟ .. انا ذاهبة ايضاً .. انتظرائني . وقالت لي امها ان تجاهلها بينما اطفأت المحرك بانتظار لوليتا التي فتحت باب السيارة بعنف .

فصاحت هيز : « هذا لا يطاق » .

ولكن لوليتا اخذت تضحك معايشة .. وقالت :

- هيا ازح مؤخرتك حتى أجلس .

وصاحت امها فيها :

- لوليتا .. ما هذا الكلام ؟ انه لا يطاق ان تتصرف طفلة
مثلها تصرفاً قليل الأدب .. وانت تتطفل حيثما تعرف انها
مكروهة .

ولكن لوليتا لم ترد وظلت جالسة وساقها يمس ساقى ..
وتطلعت فوجدتها قد اتت حافية ورأيت آثار الصباغ الاحمر
على اصابع قدميها ، رباه ما الذي لا ادفعه من اجل ان اقبل
كعبها الناحل ذا العظام الرقيقة .. وفجأة انحدرت يدها الى
يدي ودون ان تحس امها ضغطت على يدها الدافئة وظللت ممسكا
بها طيلة الطريق الى المخزن . وانا اضرع ألا نصل ابداً الى المخزن .
ليس هناك ما اسجله سوى ان امها حملتها في طريق
العودة على ان تجلس في المقعد الخلفي .

الخميس - رأيت في احد كتب لوليتا قائمة بأسماء جميع
تلميذات وتلاميذ صفها ، بدت لي القائمة مثل قصيدة شعر تهزج
بجمال لوليتا .. وتصورت لوليتا في الصف تقضم طرف قلمها
الرصاصي وتستجلب كره المعلمة بينما انصبت جميع نظرات الاولاد
على شعرها وعنقها .

الجمعة - انني اتوق الى وقوع كارثة رهيبة .. زلزال ..
انفجار .. أي شيء .. بحيث اجد لوليتا فجأة بين ذراعي ونحن
بين الانقراض فانتنع بها كما يحلو لي وامها بعيدة عنا .

لو كنت اشجع قليلاً بما انا عليه لثلث منها مرامى امس
حيث دخلت غرافتي من جديد لتريني رسوماتها المدرسية ، لو

كان غيري مكافئ لاستطاع ان يرشوها ويقضي وطره منها .
وان شخصاً اقل تعقيداً مني كان خليقاً بان يفرج كربه
ببدائل تجارية عن لوليتا ، ولكنني لا اعرف أين اذهب من اجل
ذلك ، فانا رعديد خجول على الرغم من مظهر رجولي .

كانت هيز قد قالت ان نشرة الطقس تبشر باحد مشمس
فاذا صحت نبوءتها فاننا سنذهب الى البحيرة .. استلقيت على
سريري في حالة من التوتر الجنسي وانا اتخيل لوليتا محاولاً ان
انام وشبحها بين ذراعي .. وفجأة اخذت افكر في خطة نهائية
للاستفادة من النزهة . كنت عارفاً بان امها تبغضها لأنها تلاطفي
وتتدلع علي .. وهكذا فقد قررت ان اجعل النزهة مناسبة
لاكتساب رضاء الام .. فقررت ان اقتصر على الحديث معها
الى ان تحين لحظة مناسبة ادعي فيها انني نسيت ساعة يدي في
المكان المعشب الذي كنت اضطجع فيه واذهب للتفتيش عنها في
الغاب يدأ بيد مع حوريتي لوليتا .

وفي الساعة الثالثة بعد منتصف الليل اخذت قرصاً منوماً
ورأيت في منامي البحيرة التي لم ازرها بعد .. رأيتها متجمدة
ورأيت احد رجال الأسكيمو يحاول كسر جليدها بفأسه ..
ورأيت لوليتا وامها على حصانين ورأيت نفسي بينهما ولكن
دون ان يكون ثمة حصان تحتي إذ كنت امتطي متن الهواء .
الأحد : رأيت منظرأً بديعاً .. رأيت وانا امر امام نافذة
الصالون شيئاً من صدرها الجميل وهي تطل لتتحدث مع بائع
الصحف .. تطلعت اليها بعينين زاحفتي النظرات وشعرت

باطرافي تذوب وتوج كاطراف عنكبوت عجوز . وكان يخيل إليّ
أني اراها من فتحة تلسكوب عملاق . ودخلت المنزل وصعدت
إلى الصالون اجر جر نفسي كالمشلول محدّداً بصري بردها المبسوط
واخيراً انسلت الى ورائها حيث ارتكبت حماقة نافهة بمفاجأتها
مفاجأة حمقاء .. اذ امسكت بطرف منديل عنقها واخذت
اهزها .. لقد فعلت ذلك لاختفي اضطرابي .

فصاحت بي الجنية الصغيرة بصوت رفيع وبلهجة مبتذلة :
كفى .. كفى ..

فتراجعت الى الوراء بمذلة بينما مضت في حديثها مع بائع
الصحف .. كأنما اثقلت عليها ..

ولكن بعد الظهر بينما كنت جالسا أقرأ حجبت نظري يدان
رقيقتان . فقد جاءت من خلفي وعمشت عيني باصابعها التي
بدت حمراء قرمزية وهي تحاول حجب ضوء الشمس عن ناظري ..
وما لبثت لوليتا ان انفجرت ضاحكة .. واخذت تتمايل يسرة
ويمنة بينما كنت ادفع اليها ذراعاً متسللة .. وسرعات ما لمست
يدي ساقها الرقراقتين الدافئتين ووقع الكتاب الذي كان بيدي
الآخرى على حجري ..

وفجأة دخلت الام وقالت باستياء :

- اصفعها في المرة الثانية إذا قطعت عليك قراءتك العلمية ..
وأردفت قائلة بصوت عديم الطعم : آه كم احب هذه
الحديقة ...

قالت السيدة الثقيلة الظل هذا وافترشت الارض المعشبة وهي

ترفع ابصارها الى السماء ..
وفجأة وقعت عليها طابة تنس قديمة غبراء .. وسمعنا صوت
لوليتا من المنزل ضاحكا :
- العفو يا ماما لم أكن اقصدك .
بالطبع لم تقصدها فقد كانت الجنية اللعوب تقصدي .

- ١٢ -

فشلت جميع محاولاتي الشيطانية .. وظلت الحال على ما
هي عليه . ففي كل يوم يغريني الشيطان ويهيجني ثم يتركني فجأة
فتتخلى عني شجاعتي واحس بالآلام تأكل كل وجودي .
كنت اعرف تماما ما ارغب في ان افعله وكيف افعله
وذلك دون أن انتهك رغم كل شيء ، عفاف الطفلة . ففي حياتي
تجارب سابقة في مداعبة المراهقات دون الاضرار ببكارتهن ..
وفي الاحتكاك بهن في الحداثق المزدهمة وفي سيارات الباص .
مرت علي ثلاثة اسابيع وانا ارسم الخطط فتحبطها الام هيز
التي ربما لاحظ القارئ انها تخشى ان تستجر ابنتها بعض اللذة
مني اكثر مما تخشى ان اقلذ بابنتها ...
ان التوقد الذي نما في قلبي حيال هذه الحورية كان خليقا بان
يدفعني من جديد الى مستشفى الامراض العقلية لولا ان ابليس
قد ادرك بانه يجب ان يتوفر لي ما يفرج عن نفسي اذا كان يريد
أن يلعب بي زمناً اطول .. فقد كانت لوليتا آخر حورية يمكن
ان تصل اليها مخالي المألومة الخجولة ...

ولعل القارئ قد لاحظ ان سراب البحيرة قد كثر في حديثي ولكن القارئ لا يعلم ان المسز هيز قد حطمت احلامي إذ اخبرني بان ماري هاملتون المراهقة السمراء الجميلة ستأتي معنا ايضاً .. فخطر لي كيف ان الحوريتين المسعورتين ستقضيان الوقت في التهامس واللعب مع بعضهما بعضاً .. بينما سأضطر الى التسامر مع امها ونحن نصف عاريين وبينما ستشرد عيناها اثناء الحديث صوب لوليتا .

- ١٣ -

ان القدر يعاكسني .. فقبل اليوم المحدد للنزهة تلفنت ام ماري هاملتون لتخبر السيدة هيز بان ابنتها مريضة بالحمى .. ولن تذهب للنزهة ..

ونتيجة لذلك ابلغت هيز ابنتها لوليتا بان النزهة ستؤجل . سمعت ذلك وانا اخرج من غرفتي لاضع في الممرصينية افطاري بعد ان انتهيت من طعامي .. وران السكوت على المنزل فحلقت ذقني ثم تسالت دون ان امسح الصابون تماماً عن وجهي منحدرأ الى الصالون بحثاً عن لوليتا .

انني اريد من قرائي ان يشتركوا في الحادثة التي سأروها . اريدكم ان يحصوا كل تفاصيلها ليروا كم كانت طاهرة نقية الحادثة العذبة اذا نظروا اليها بما وصفه المحامي الذي يدافع عني بانه « عطف منزله عن الهوى » .

ان بطل الحادثة المسرحية هو بالطبع انا همبرت .. اما زمانها

فهو يوم احد من حزيران (يونيو) اما مكانها فهو قاعة الاستقبال
السابحة في ضوء الشمس .

كانت لوليتا تلبس ذلك اليوم ثوباً ظريفاً مقاماً رأيته عليها
مرة واحدة فقط وكانت قد صبغت شفيتها بالاحمر انسجماً مع
قوامها المشوق الذي يرصد الثوب ويبيدي مكوراته ولتكمل
الصورة الجميلة بذراعيها العاريتين وخديها المخرجتين كانت تحمل
في يدها تفاحة حمراء نضرة .. لم تكن على كل حال راغبة في
الذهاب الى الكنيسة فقد كانت محفظتها البيضاء ملقاة كيفما
اتفق قرب الفونوغراف .

واخذ قلبي يقرع كالطبل بينما جلست على الارصفة يجاني
والهواء ينفخ تنورتها البيضاء وهي تلعب لاهية بالتفاحة فقذفت
بها الى الاعلى والتقطتها ..

وفجأة انتزعت التفاحة منها فصاحت متوعدة بيد بضة :
اعطني اياها .. فمدت يدي بالتفاحة وسارعت فتناولتها
وقضمت منها قضة بينما كان قلبي يذوب كالثلج تحت تأثير
ملامساتها . وما لبثت ان انتزعت من يدي المجلة التي كنت اظاها
بقراءتها واخذت تقلب بسرعة الصفحات بحثاً عن موضوع تريدني
ان اراه . وافتعلت الاهتمام فادنيت رأسى الى قربها بحيث لامس
شعرها جبهي وبحيث لامست ذراعها خدي عندما مسحت فمها
بمعصمها .. على انني بسبب الضباب الغائم الذي غطى على ناظري
وانا اطل على الصورة أبطأت في التفاعل معها . بينما كانت
ركبتاها تهزان وتتصادمان وتتلامسان بعصبية . ثم ما

لبثت ان سحبت المجلة من يدها فانبطحت علي في محاولة عقيمة لاستعادتها فقبضت على مرفقها النحيل وسقطت المجلة على الارض فتململت « لو » وانتزعت نفسها من احضائي وعادت الى جلستها تستند الى حافة الاريكة ثم ما لبثت الطفلة الغريرة ان مدت ببساطة متناهية ساقها وأراحتها على حضني .

في هذه اللحظة انتقلت الى حالة من الهياج تكاد تصل حد الجنون ولكنني احتفظت بمكر الجنون . فمن جلستي على الاريكة استطعت ان اضبط ، بعد سلسلة من الحركات المستترة ، انغام شقيقي المستور الى اعضائها الطاهرة .. ولم يكن سهلاً علي تحويل انتباه المراهقة عن مقاصدي اثناء كنت اقوم بالتعديلات اللازمة لوضعي حتى تنجح العملية .. فاخذت اتكلم بسرعة متظاهراً بوجع الرأس لاوضح التقطع في انفاسي بينما كنت في الوقت ذاته اسلط عيناً داخلية مهبولة على هديفي الذهني النائي .. وبحذر زدت من الاحتكاك السحري الذي كان قد بدأ يتناقص .. زدته في وهمي ان لم يكن في الواقع فقد كان هناك حاجز يعوق تمامه ولايمكنني ازالته اذ كيف كان لي ان اخلع حينئذ بيجامتي والروب دي شامبر ؟ اجل كان الاحتكاك الحسي رائعا بين ثقل الساقين اللتين لوحتهما الشمس واللتين امتدتا على حضني وبين فوران خفي لشهوة لا يمكنني ان اصفها .

وفي اثناء تلعثم انفاسي وكلماتي وقعت على كلمات اغنية « كارمن يا عزيزتي » التي اخذت ارددها بشكل آلي كتعويذة سحرية وانا اشعر بفزع شديد من ان تتدخل الاقدار فتقطع لذتي وتزيل عن

حضني الحمل الذهبي الذي بدا لي ان كل وجودي قد تركز في التلذذ به . هكذا فقد اجبرني هذا القلق على ان اعمل في ظرف الدقيقة الاولى باستعجال لا يتلاءم مع المتعة المدبرة بشكل متعمد.. اما هي فكانت تصلح لي انغام الاغنية اذا كانت تعرفها وكانت اذنها موسيقية .

كانت ساقها تحتلجان قليلاً في امتدادهما فوق حضني المتوثب ولما امررت يدي عليها اطلقت ضحكات مغناجة وهي ماضية تأكل تفاحتها واخذت تهز قدميها حتى سقطت احدى فردي حذاءها على كومة المجلات يجاني ..

لقد كانت كل حركة تصدر منها تساعدني على اخفاء وتحسين ما ابتدعته حينذاك من وسيلة سرية للاتصال البارع بين الوحش والحسنة . الاتصال بين وحشي الحبيس المتفجر غلمة وبين جمال جسدها البريء ..

شعرت بان رؤوس اعصابي قد تحولت الى عيون رأيت واحسست بواسطتها بالزغب الناعم المنتشر على طول قصبة ساقها وسرعان ما وضعت في غمرة الحرارة اللاذعة التي تتضوع من جسد لوليتا كوهج الصيف .

وبينا كانت تأتي على آخر تفاحتها كنت اضرع بان تبقى كما هي . ولكنها ما لبثت ان انحنت لتلقي ببقية التفاحة في المنفضة فكان ان انحدرت بشقل بطن ساقها على حضني المتوتر المتعذب وفجأة طراً على حواسي تغير غامض فقد دخلت مرحلة لم يعد فيها لأي شيء اهمية سوى دفق المتعة التي كانت تغمر قرارة

نفسي . اما ذلك الذي بدأ كتمدد لذيذ لأعمق جذور كياني
الباطني فقد اصبح وخزاً متوقداً وصل الآن الى حالة من
الاطمئنان المطلق الذي لا يتوفر في اي جانب من جوانب الحياة
الواعية ، وشعرت بانني استطيع ان اهدأ من اجل ان اطيّل
توقدي بعد ان وطدت تلك الموجة العذبة اقدامها في اعماقي
واخذت تسير نحو التشنج المطلق ، بينما كنت في اقصى حالات
التلذذ بانفرادي هذا معها فاخذت اتأمل تلك الحورية الزهراء
البشرة التي مسحتها الشمس بصبغة ذهبية .. اخذت اتأملها
ولكن من وراء قناع لذتي المكبلة عن رضى وهي غير شاعرة
بها بينما كان خيط من اشعة الشمس قد استقر على شفتيها وهما
تتراقصان اذ كانت لا تزال تغغم باغنية «عزيزتي كارمن» . ولقد
اصبح كل شيء جاهز الآن .. فلقد تعرت اعصاب اللذة وبدأت
مناطق الاحساس في جسمي تدخل مرحلة الخبل فكان اقل
ضغط يكفي للوصول الى النهاية الرائعة الساوية ، في تلك
اللحظة لم أعد همبرت همبرت الكلب الذليل الذي يلحق القدم التي
تركه فلقد اصبحت فوق مستوى محنة السخرية وابعد من تناول
يد العقاب . شعرت بنفسي قوياً عتياً مدركاً كل الادراك لحريتي
كسلطان تركي يرجيء عمداً لحظة الاستمتاع باصغر واجمل
محظياته .

واذ شعرت بنفسي معلقاً على شفير الهوة الشهوانية فقد ظلمت
اردد وراءها كلمات الاغنية كانسان يتكلم ويضحك في نومه
بينما كانت يدي التي تقطر سعادة تدب على ساقها الملوحة بسمرة

الشمس الى ابعد ما تسمح به خلال التأدب !
كانت في اليوم الماضي قد اصطدمت بالحزانة الكبيرة في
الصالون فترك الاصطدام كدمة بنفسجية - صفراء على فخذهما
البض البديع أخذت امسدها بيدي الضخمة المكسوة بالشعر
متحججاً بالشفقة هاتفاً :

« انظري .. انظري ماذا فعلت بنفسك ؟ »

ومضيت اجس ساقها براحتي بسهولة ويسر فلقد كانت ثيابها
الداخلية من التحلل بحيث لم يكن هناك من شيء يمنع ابهام
يدي من الوصول الى الاعماق الحارة في حوضها ، وبينما كنت
ادغدغ ساقها ردت علي :

- أواه انها لا شيء على الاطلاق .

قالت ذلك واندفعت في ضحكة مغناجة فبان صف اللؤلؤ
الاسفل من فمها واستراح على شفتها اليسرى واستقامت في
جلستها في حضني حتى كاد في الذي يثن ؛ يا حضرات المحلفين ،
يمس قذالها (مؤخر الرقبة) العاري ، بينما كنت اركز على
إليتها اليسرى آخر ارتعاشة في اطول نشوة عرفها مخلوق بشري
أو وحش انساني .

وُبعد ذلك تدحرجت لوليتا من على الارىكة وقفزت على
قدميها كما ترد على التلفون الذي كان خليقاً بأن يقرع الى الأبد
دون مجيب لو كان الأمر بيدي .

كانت تقف على قدم واحدة طارفة بعينيهما ، ملتبهة الوجنتين ،
منشورة الشعر ، وكان بصرها يتنقل بلامبالاة بيني وبين الأثاث

فما كانت تستمع او تجيب على امها في التلفون .
اما انا فقد مسحت بمنديل حريري العرق من على جبهي
واخذت ارتب ما تشعث من اجزاء الروب دي شامبر بينا كانت
لا تزال على التلفون تحدث امها وتجادلها . واذ كانت رنة صوتها
تتعالى صعوداً تسلفت الى الحمام .

- ١٤ -

تناولت غذائي في المدينة بنهم لم اعرفه منذ سنوات فلما
عدت الى المنزل كانت لوليتا لم تزل غائبة فأمضيت الاصيل في
التأملات السعيدة وانا كالجمل اجتر ذكريات ما حدث بيني وبين
لوليتا في الصباح .

وشعرت بالزهو فلقد سرقت غسل التشنيج دون أن اضر
باخلاق القاصرة .. فلم يقع اطلاقاً أي ضرر .. لقد صبت فيها
حسباً كل لواعجي ولكن دون ان ادنسها .. وهكذا فقد ظلت
لوليتا آمنة وظللت آمنة . فما امتلكته يحنون لم يكن لوليتا
الواقعية انما كانت لوليتا خيالية خلقتها انا .. وربما كانت أصدق
من لوليتا الحقيقية .. لوليتا المجردة من الارادة والشعور والحياة
كانت تمس بيني وبين لوليتا الحقيقية على الاريكة .

لم تعرف الطفلة شيئاً فلم افعل شيئاً معها وهكذا لم يكن
هناك ما يمنعني من تكرار عملية لم تؤثر عليها اكثر مما يؤثر احب
قبيء في ظلام السينما يزاوِل العادة السرية على صورة حسناء

معكوسة على الشاشة البيضاء .

شعرت بساعات الاصيل تطول في ذلك السكون المريب
حيث بدت لي اشجار الدردار كما لو كانت تعرف سري .. وشعرت
بشبق اقوى من شبق الصباح يدب في عروقي من جديد ، فأخذت
اضرع الى الله ان تأتي وان نكرر مسرحية الصباح على الارىكة
بينما لا تزال امها منشغلة في المطبخ ، ارجوك يا الهي ان تأتي فأنا
اعبدها بشكل رهيب .

كلا ان كلمة «بشكل رهيب» هي تعبير خاطيء ، فالطرب
الذي ملأت به نفسي احلام المذات الجديدة لم يكن رهيباً انما كان
شجياً ، انني اصفه بانه شجي لأنني كنت انوي ان احمي بكل
قوتي وحكمتي طهارة تلك الطفلة هذا على الرغم من النيران التي
تأججت في مكامن قابليتي الجنسية .

والآن اسمعوا كيف جوزيت على آلامي .. لقد عادت
لوليتا ولكن ليس وحدها بل معها جيرانها آل تشاتفيلد
الذين اصطحبوها الى السيما فتناولنا العشاء على مائدة بالغت
المسز هيز في تزيينها .. واثناء العشاء قيل لي أن فيليس تشاتفيلد
بنت الجيران ستذهب غداً الى خيم صيفي للبنات لمدة ثلاثة
اسباع وانه تقرر ان تتبعها لوليتا يوم الخميس المقبل لتبقى في الخيم
حتى موعد افتتاح المدارس .

فاجاني هذا النبأ مفاجأة شديدة ، أليس معناه انني سأفقد
حبيبتي في الوقت الذي امتلكتها فيه سرياً ؟

ولكي استر وجومي الشديد ادعيت وجع الرأس الذي

ادعيته في الصباح وعزوته الى ضرر ملتهب .
وبعد ان استمعت الى توصيات عدة بشأن طبيب الاسنان
الذي يجب ان الجأ اليه ، اثرت بمناورات بارعة مسألة ذهاب
لوليتا الى مخيم البنات وسألت امها : هل انت متأكدة من انها
ستكون سعيدة هناك ! (يا لهذا السؤال الاعرج) .

فأجابني : اجل ، ستكون افضل حالاً ، فلن تقضي كل
وقتها في اللعب إذ ان الخيم بادارة شيرلي هولمز الاختصاصية في تربية
المراهقات ولا بد انها ستعلم لوليتا الكثير من الاشياء والقواعد
النافعة وستعلمها على الأخص الشعور بمسؤولياتها تجاه الآخرين .
وانتهى الحديث باقتراح من السيدة هيز بان تذهب الى بركة
الماء ولكنني تحججت بضرسي الملتهب وآويت الى غرفتي .

- ١٥ -

في اليوم التالي ذهبت لوليتا الى المدينة لشراء ما تحتاجه من
حاجيات للمعسكر وبدأت عند العشاء في اقصى حالات النشوة
واعتكفت في غرفتها تطالع مجلات الكوميك بينما اعتكفت
اكتب بعض الرسائل وانا افكر بمغادرة المنزل الى مدينة ساحلية
على ان اعود اليه عند افتتاح المدارس أي بعد ان تعود لوليتا من
الخيم حيث تأكدت من انني لا استطيع ان اعيش بدون هذه
الطفلة .

وفي عشية السفر تناولت لوليتا عشاءها في غرفتها ، فقد

بكت بكاء شديداً بعد مشاجرة تقليدية مع امها ولم ترغب ان
ارى عينها المنتفختين .. فقد كانت بشرتها من الحساسية بحيث
كانت مآقيها تحمر وتنتفخ بعد كل فاصل بكاء .

لقد اسفت جداً لأنها ظنت انها تؤذي بمنظر عينيها قيم الجمال
التي احسها .. ذلك لأنني احب تلك اللوحة القرمزية التي تنتشر
بعد البكاء كورق الورد حول شفتيها واحب رؤية رموشها المبللة
بالدموع وهكذا فان استحياءها قد حرمني من كثير من فرص
كانت تستطيع ان تمدني بالعزاء العذب .

وعندما جلست في ظلام الليل على الشرفة مع السيدة هيز
افكر في وجه لوليتا الشاحب الباكي قالت لي هيز بضحكة
مغتصبة بانها قالت لابنتها لوليتا بان محبوبها مبرت يوافق تماماً
على فكرة ارسالها للمخيم فاجابتها لوليتا بان ارسالها الى المخيم
كان حجة مني ومنك للتخلص منها .

استطعت قبيل يوم السفر ان انفرد بلوليتا لبضعة دقائق
وكانت في سروال صبياني قصير (شورت) وقيص شفاف فقات
لها كلاماً اردته ان يكون دعابة ولكنها لم ترد علي انما زمت
شفتيها واصدرت هممة غامضة ودون ان تتطلع الي .
فربتُ بنحيت على مؤخرتها ، وردت بان ضربتني ضربة
مؤلة على ذراعي .

وفي المساء لم تقتازل بان نتناول طعام العشاء مع الاما ومع
مبرت ، انما غسلت شعرها وذهبت الى فراشها لتطالع كتبها
المضحكة ، وفي صباح الخميس قادتها امها يهدوء الى مخيم البنات .

لو ان مؤلفاً عظيماً كان يروي قصتي لقال (وانني اترك لحياي
القراء ان يتصور حالي) ، ولكنني لن اترك شيئاً لحياهم
وسأقول بانني عرفت بأنني قد وقعت في حب لوليتا الى الابد ،
ولكنني كنت اعرف كذلك بانها لن تكون لي لوليتا الأبدية
ففي كانون الثاني (يناير) ستبلغ الثالثة عشرة وبعد سنتين لن
تظل حورية مراهرة مسعورة ، انما ستتحول الى مجرد صبية ، ثم
الى تلميذة جامعية .. وهكذا فان كلمة « الى الابد » تشير فقط
الى هيامي والى لوليتا الخالدة الأزلية كما تنعكس في دمائي ..
اعني بها لوليتا - البرعم الذي لم تتفتح اكمامه الوردية بعد . ولوليتا
ذات الصوت الرفيع الرقيق والشعر العسلي الغزير ، التي تستطيع
ان المسها واشمها واسمعها بكل جوارحي .

وهكذا تساءلت كيف سأستطيع الا اراها لمدة شهرين
كاملين ؟ . تساءلت هل اتمكن من ثوب امرأة عانس وانصب
خيمة قرب مخيم البنات ؟

وهكذا سيضيع علي شهران من الحياة بقرب الجمال والرقرة
ومع ذلك لا أستطيع ان افعل شيئاً .

كان ما حدث صباح الخميس بمثابة قطرة عسل لم تمكث طويلاً
في كأسها ..

لقد قفزت من فراشي واطللت من النافذة ، اذ سمعت اصوات
الرحيل و : أيت الحبيبة امام المر تظل عينيها بيديها من شمس
الصباح ، بانتظار امها التي جاءت لتأخذها بسيارتها الى المخيم ،
واد كادت تلج السيارة وهي تلوح بيدها مودعة الخادمة لوز

تطلعت الى الاعلى ورأتني فانفلتت عائدة الى البيت وسمعت قدميها تقفزان السلم فارثديت بعجلة سروال بيجامتي وفتحت باب غرفتي على مصراعيه وانا احس بقلبي يتوسع فرحاً حتى يكاد ينفجر ، ولم تمض برهة حتى اطلت لوليتا والقت بنفسها بين ذراعي واخذ فيها العذب البريء يذوب تحت ضغط فكي وانا اهصرها هصراً .

ولحظة وانفلتت مني عائدة .. وعاد القدر يتحرك اذ تحركت السيارة بها ، وقد كشفت عن ساقها الشقراء وهي تلج الى مقعدها .

- ١٦ -

لم تزل راحة يدي عابقة بضوع لوليتا .. لم تزل عابقة بضوع تحسسي لمكورات تلك المراهقة ولبشرتها الناعمة ، عندما مضيت الى غرفتها وفتحت خزانة ملابسها الداخلية وغمرت وجهي بكومة الثياب المشعثة التي كانت قد لامست جسدها .. ووجدت بصورة خاصة رقعة من القماش ملطخة بلون قرمزي تفوح منها رائحة عرقها فتناولتها وضممتها الى صدري .. وفجأة سمعت صوت الخادمة لويز وهي تناديني من تحت ، ولما توجهت اليها قالت ان عندها رسالة لي وناولتني مظروفاً فتحتة بيدني مرتجفتين وقرأت فيه الرسالة التالية :

« ليست هذه رسالة انما اعتراف فانا احبك . (هكذا بدأت الرسالة التي حسبت من خطها المشوش ان لوليتا هي التي كتبتها) .. لقد كتبت هذه

الرسالة بعد ان استخورت الله في الكنيسة يوم الاحد الماضي فيما افعل فالهمني ما
أفعل الآن ، ليس لي من معدى عن ذلك ...

لقد احببتك من اللحظة التي رأيتك فيها ، ولقد وجدتك حبيب حياتي انا
المرأة العاطفية التي تقاسي الوحدة .

اما الآن فقد أصبحت يا اعز عزيز تعرف الحقيقة بعد ان قرأت ما سبق .
وهكذا فانا ارجو ان تحزم امتعتك وترحل في الحال . انني أأمرك هذا
بصفتي صاحبة البيت التي تطرد مستأجراً .. اجل اننى اطرده يا احب حبيب
فاذهب .

انني سأعود هذا المساء ولا ارجب في ان اجدك في البيت ، فارجوك ان
ترحل في الحال ، والا تقرأ هذه الرسالة السخيفة الى آخرها ...

ان الموقف يا عزيزي واضح تماماً . انني أعرف بالتأكيد انني لا اعني
شيئاً بالنسبة اليك .. اجل انك تجد متعة في التحدث معي كما انك اخذت تحب
جوناً البيتي . ولكنني ظلت كمية مهملة بالنسبة اليك اليس كذلك ؟

بيد أني سأعتبرك اذا قررت بعد ان قرأت اعترافي هذا ، اقول سأعتبرك
اسوأ من مجرم منحرف يقتصب طفلة . اذا قررت بعد قراءة الرسالة ان تستثمر
الامر وتحاول ان تتلاني .

وهكذا فانت ترى يا عزيزي بانك اذا قررت البقاء في البيت (وانا اعرف
انك لن تفعل) فان بقاءك سيعني شيئاً واحداً هوانك تريدني بقدر ما اريدك ..
اي كشريكة حياة وانك مستعد لان تربط حياتك بحياتي للأبد وان تكون
اباً لطفاتي الصغيرة ..

يا حبيبي اي عالم من الحب قد بنيت له . خلال شهر حزيران (يونيو)
هذا !! انني اعرف كم انت متحفظ .. وكم ستهزك جرأتي ..

انك يا عزيزي قد أرويت فضولك الآن . اذ تجاهلت طلبي ومضيت تقرأ
تلك الرسالة حتى آخرها .. لا بأس .. مزقها وامض في سبيلك ولا تنس ان
تترك لي عنوانك حتى ارد اليك ما يحق لك استرداده عن بقية الشهر .
وداعاً يا اعز حبيب وصلي من اجلي اذا كنت تصلي .

شارلوت ميز

كان لرد الفعل الأول الذي اجتاحني إثر تلاوتي الرسالة شعوراً بالدهشة والشروع والانكفاء .. ثم شعرت كأن يداً صديقة تربت على كتفي مهدئة .. فهدأت وخرجت من شرودي لأجد نفسي من جديد في غرفة لوليتا وكان هناك إعلان على صفحة منتزعة من مجلة ، معلقة فوق حائط السرير ، يمثل عريساً شاباً ذا شعر أسود، وعينين زرقاوين . وكانت « لو » قد رسمت بقلم هازل سهماً متجهاً الى وجه البطل وأضافت اليه بحروف كبيرة : « ه . ه » والواقع أن الشبه واضح جداً لولا فرق بعض السنوات .

وكان هناك إعلان آخر ملون معلقاً تحته ، وهو يمثل مؤلفاً مسرحياً معروفاً يعرض سيكارة « دروم » ولم يكن يدخن الا سكاير دروم . وكان الشبه هنا ادعى للشك .
واذ تأكدت من أن لويز قد ذهبت استلقيت على سرير « لو » وقرأت الرسالة من جديد ..

- ١٧ -

حضرات المحلفين : لست استطيع ان اقسم بان الانفصالات والحركات المتعلقة بهذه القضية لم تخطر في بالي قبلاً .. فلربما مرت علي لحظات اثرت فيها بشكل موضوعي مسألة الزواج من ارملة ناضجة مثل شارلوت هيز .. كما يتيسر لي سبيل الى ابنتها لوليتا . بل انني مستعد لان اقول لمن يعذبونني بانسني القيت نظرة

تشمينية على شفتي شارلوت القرمزيتين وشعرها البرونزي وجيدها المفتوح بشكل مفر ، وحاولت بشكل غامض ان ادخلها في احد احلام يقظتي .

انني اعترف بهذا تحت وطأة التعذيب ، ربما التعذيب الوهمي ، ولكنه تعذيب مخيف .

وعلى كل فاني لم ألبث ان مزقت رسالة شارلوت وذهبت الى غرفتي وأصلحت من حال شعري وانا افكر بالمداعبات التي يمكنني ان افعلها مع لوليتا بصفتي زوج امها ، وتصورت نفسي اعانقها ثلاث مرات في اليوم وكل يوم .

ثم حاولت بمنتهى الحذر ان اتصور شارلوت كشريكة حياتي وفراشي ، وان اتصور نفسي كزوج يعمل من اجل ان يوفر لها اسباب الحياة والمتعة .

بل ان همبرت همبرت الذي تصبب عرقاً تحت ضوء التحقيق الساطع ورجال الشرطة المتصببون عرقاً يحرونه ويدفعونه امامهم .. ان همبرت همبرت وقد فتح للضوء ضميره يستطيع ان يدلي باعتراف آخر: أجل انني لم انو الزواج من شارلوت المسكينة من اجل ان ازيلها من الوجود بذلك الشكل المبتذل الفظيع .. بواسطة دس حامض الزئبق في كأس شرابها ..

اجل لم يخطر ذلك في بالي ، وانا اتصور نفسي زوجاً لشارلوت واتصور نفسي وانا أضع اقراصاً منومة في شراب الام والبننت حتى استطيع ان اتمتع بالبننت طيلة الليل دون ازعاج . فلا يصيبني من ذلك ادنى عقاب ، فبينما يكون البيت مهترأ من

شخير شارلوت ، تكون لوليتا، وهي لا تكاد تتنفس في نومها ،
اهداً من دمية مدهونة .

ثم تصورت نفسي بانني اذا تزوجت الام ، فاني قد استطيع
حملها بواسطة تهديدها بالهجر على ان تتركني اقارب صغيرتها التي
ستكون ربييتي الشرعية (الربيبة بنت الزوجة من أب آخر
سابق) .

وبالاختصار فقد كنت قبيل ان تعرض علي شارلوت هيز
الزواج مثل آدم عندما خرج من الجنة وظل للوهلة الاولى بدون
حول او طول ..

والآن انتبهوا الى الملاحظة التالية الهامة :

لقد طغت شخصيتي كفنان على شخصيتي كجنتلمان بعد
ان عرضت شارلوت الزواج علي وبعد ان تطورت الاحداث الى
قتلي اياها ..

وهكذا فاني رغبة مني في ان اوفر على شارلوت ساعتين او
ثلاث ساعات من القلق وانشغال البال ، على طريق ملء
بالمنعطفات ، ربما تسبب لها حادثه تهدم احلامي ، نظراً لانني
اعرف انها كانت تسوق سيارتها بسرعة جنونية في غمرة انفعالها ،
اقول انني قمت بمحاولة فاشلة للاتصال بها تلفونياً قبل ان تترك
الحميم ، ولكنني تأخرت فتحدثت مع لوليتا فاخبرتها وانا ارتجف
زهواً بسيطرتي على القدر بانني سأزوج من امها .. وقد اضطررت
ان اكرر النبأ مرتين لان شيئاً ما كان يحول دون ان تكسر لي
كل انتباهها ، وسمعتها تهتف ضاحكة ..

- اوه .. هذا رائع .. متى يكون الزواج ؟
انتظر لحظة .. ان هذا الكلب الملعون يلحق ساقى .
اغلقت الهاتف وقد شعرت ان مباحج ساعات من الحياة في
الحجم قد حجبت عن لوليتا ذكرى همبرت .. ولكن ماذا هم
الأمير ؟

فسأستطيع بعيد زواجي من امها ان اعيدها الى البيت .
ذهبت بعد المكالمات الهاتفية لاتفقد محتويات الثلاجة فوجدت
ما فيها غثا ، ثم ذهبت الى المدينة واشترت الاطعمة اللذيذة
واغلى المشروبات ، وانا واثق من انني سأستطيع بمساعدة هذه
المنشطات وبالاتماد على مواهبي ، تجنب أي احراج قد يتسبب
فيه برودي ، عندما ادعى الى اظهار ميول ملتبهة قوية حيال
الارملة .

وعمدت الى تصوراتي لاخلق من شارلوت صورة تقبلها نفسي
وتقنع بها وخلصت الى تصورها يجسمها الممتليء كشقيقة لوليتا
الكبرى وليست كأماها .. وقلت لنفسي بانني قد استطعت
الاستمرار في اعتبارها شقيقة للوليتا ، لولا انني اراها بعين
الخيال كما هي : امرأة ذات ردفين ثقيلين وركبتين مدورتين
وصدر مليء وجيد دموي اللون .. امرأة انيقة أي انها في نظري
تؤلف شيئا بليداً قائماً ملاً .

وبينما كانت الشمس تنحدر نحو الاصيل ؛ صبيت لنفسي كأساً
ثم كأساً ثالثة من مزيج الجن وعصير الاناثاس ، كما ازيد من
شجاعتي النفسية ثم اخذت اشغل نفسي بالحديقة المهمة ، بينما

كانت نظراتي تكنس زاوية الشارع بالاتجاه الذي ستأتي منه شارلوت .

وبعد قليل جاءت بسيارتها ودارت بها واختفت وراء البيت واستطعت ان المح وجهها هادئاً وخطر لي انها لن تعلم حتى تصعد الى الطابق الاعلى ، اذا كنت رحلت أم لا . وبعد دقيقة اطلت من نافذة غرفة لوليتا والقت علي نظرة كشفت عما تقاسيه من قلق وعذاب ؛ فهرعت اصعد الدرج واستطعت ان اصل الى غرفة لوليتا قبل ان تغادرها .

- ١٨ -

عندما تكون العروس ارملة والعريس مطلقاً ، وعندما تكون العروس قد قطنت في المدينة منذ سنتين والعريس قد قطن منذ شهر ؛ وعندما يريد العريس ان ينتهي من الصفقة الملعونة باسرع ما يمكن ، وعندما تستسلم العروس لرغبته بابتسامة تسامح فعند ذلك تكون حفلة العرس هادئة بعيدة عن المظاهرات والمراسم .

ولقد كان بودي ان تحضر لوليتا الحفلة فلقد كان وجودها خليقاً بان يشجمني ويضفي على العروس بهاءها ، ولكنني وافقت مع امها على ان الامر لا يستأهل انتزاع الطفلة من نعيمها المحبوب ولم يمض عليها فيه ايام معدودات .

ولقد اكتشفت ان شارلوت واقعية ، وانها على الرغم من

عدم قدرتها السيطرة على قلبها ودموعها ، امرأة ذات مبادئ ،
فبعد ان اصبحت عشيقتي في عشية الزواج اخذت تستجوبني
عن طبيعة علاقتي مع الله ، وكان باستطاعتي ان اجيب على
تساؤلاتها بشكل واضح ، ولكنني بدلاً عن ذلك قلت لها بانني
اؤمن بروح كونية .. وبعد أن تأملت اظافر اصابعي سألتني
اذا كان ليس في عائلتي من مرض وراثي عصبي فصددتها بان
سألتها اذا كانت تتزوجني اذا علمت ان والد جدي لأمي
كان تركياً ؟

فقلت ان ذلك لا يهم ، ولكن اذا ما وجدت يوماً انني
لا اؤمن بالرب يسوع ، فانها ستنتحر . وقالت ذلك بلمهجة جدية
ارسلت الرعدة في جسدي .

كانت امرأة ثرثرة تحب ان تحيطني بالدعاية لدى صويحباتها ،
وقد كانت يهيجتها عزيمة ، عندما نشرت الصحيفة المحلية حديثاً
عقدته معي ونشرت معه صورتها .. اجل لقد سرها ذلك
وتغاضت عن خطأ الصحيفة اذ دعته شارلوت هيزر ..

ولم يمض شهران حتى كانت قد اصبحت احدى البارزات
في مجتمع مدينة رامسدال ، باعتبارها زوجة المستر ادغار ه .
مهبرت الكاتب والرحالة (اضفت اسم ادغار الى اسمي من اجل
مرضاتها) .

ولقد اشعت في حديثي الصحفي باننا (انا وشارلوت)
نعرف بعضنا بعضاً منذ ١٣ عاماً ، وانني قريب لزوجها الاول ،
بل ألححت الى انه كانت لي علاقة غرامية بها منذ ١٣ عاماً ،

ولكن الصحيفة فضلت عدم الاشارة الى الموضوع وبرت شارلوت ما نشرته الصحيفة بان الصفحة الاجتماعية لا بد ان تحتوي دائماً على سلسلة من الاخطاء .

والآن لنمض في سياق قصتنا الغريبة : لا بد ان القارىء يتساءل عما اذا كنت لم اعان سوى المראה والقرف ، اذ رفعت من مرتبة نزيل الى مرتبة عاشق ؟.

كلا .. لم اشعر بذلك ، بل ربما شعرت بما يدغدغ كبريائي وينزه غروري .. ولكن الشعور الأوضح الذي راوحني هو شعور الهزاء والسخرية من السيدة هيز ومن ايمانها الاعمى بحكمة كنيسةها وحكمة نادي الكتاب الذي تنتسب اليه ، وتقاليدها الادبية وتمسكها بمبادئ الاخلاق الاجتماعية بشكل متزمت . وانني لاذكر بهذا الصدد كيف ذعرت اذ وضعت يدي عليها عند عتبة غرفة لوليتا ، فارتدت مبهورة مصفرة قائلة : كلا .. كلا .. من فضلك ..

فمن المعيب جداً في عالم الاخلاق الاجتماعية الجماهيرية ان تستسلم ام في غرفة ابنتها ، حتى ولو كانت الابنة غائبة .

لقد حسن تحويلها من ارملة مهجورة الى عشيقة مظهرها ، واصبحت ابتسامتها المتكلفة ابتسامة حقيقية مشعة بالهيام والسعادة .. وكنا نتناول قبل ان نأوي الى الفراش غداً من كؤوس الويسكي ؛ وكنت بمساعدة تلك الكؤوس استطيع ان أتحيل الطفلة بينما اداعب المرأة .. بل كنت اسلط خيالي على حواسي فأرى في شعر هيز ، شعر لوليتا ، واثم في ضوعها ضوع

جسد لوليتا ، وكنت اردد لنفسي وانا امتلك زوجتي الفسيحة كالحياة بان جسدها هو بيولوجياً اقرب ما يوصلني الى جسد لوليتا ، وكنت اعزي نفسي بان ام لوليتا كانت شبيهة مثل لوليتا ، عندما كانت تلميذة في مثل سن ابنتها اليوم . وقد حملت امرأتي على ان تريني صور طفولتها ؛ حتى استطيع ان اتبين كيف كانت لوليتا تبدو وهي طفلة واستطعت ان اخلص الى صورة غائمة ، عما كانت عليه لوليتا بساقيها وهيئتها ووجنتها ، عندما كانت طفلة صغيرة .

وهكذا كنت في الفراش الزوجي اطل على زوجتي من نافذة الماضي البعيد لاراها بعين الخيال مراقة مسعورة كلوليتا ، مستعينا بالظلام وانا اجوس خلال مجاهلها ..

لا استطيع ان اخبركم كم كانت زوجتي المسكينة لطيفة ومرهفة فكانت في الصباح تلف نفسها في ثوبها الاحمر وتجلس الى المائدة وتسند رأسها على راحتها وهي تتأملني بنظرات رقيقة وانا التهم فطوري .. وتجذب في وجهي جمالاً ، رغم انه احياناً يصاب بالتهاب الاعصاب .

اما حنقي الصامت فكان يبدو لها صمت الحب . وكان مدخولي القليل الذي اضيف الى مدخولها الاقل يبدو في نظرها ثروة باهرة ليس فقط لأن مجموع المدخولين كان يكفي لسد معظم احتياجات اناس من الطبقة الوسطى مثلنا ، بل كذلك لأن اموالي كانت تتألق في عينيها ؛ مثلما كانت تتألق معالم رجولتي .

وفي خلال الخمسين يوماً التي عاشرتها فيها عادت المرأة المسكينة الى مزاوله كثير من اوجه نشاطها المندثرة ، فاشغلت نفسها باشياء كانت قد نستها منذ زمن مديد ، أو لم تكن في الاصل مهتمة بها .. وأخذت زوجتي بالجهد العقيم المؤلف عن الزوجات الصغيرات ، تمجد الحياة البيتية ، عالمة علماً مبهماً بانني قد عقدت علاقة عاطفية مع هذا البيت .

ولكنها لم تستطع ان تدرك الحافز الكامن وراء هذه الرابطة التي ربطتني به على الرغم مما فيه من بشاعة وقذارة .. وعلى كل فقد مضت شارلوت تحاول ان تبهج حياتي الزوجية بتجديد بعض معالم البيت والاثاث ..

والواقع ان الاشخاص الوحيديين الذين عقدت شارلوت معهم علاقات ودية حقاً ، قد كانوا افراد اسرة « فارلو » الذين عادوا حديثاً من رحلة تجارية الى الشيلي ، فحضروا عرسنا .

- ١٩ -

يجب ان اقول بعض الكلام الطيب عن زوجتي قبل ان يفوت الأوان (اذ ان حادثة سيئة ستحدث قريباً) .

لقد ادركت منذ البداية نزعتها الاستثنائية ، ولكنني لم افكر في انها ستكون غيرة بشكل جنوني من اي شيء غيرها ، احتل ويحتل حياتي ، ولقد اظهرت فضولاً ضارياً لمعرفة خفايا ماضي ، وكانت تريدني ان ابوح لها بغرامياتي الماضية ، حتى

تدفعني الى ان اهيّن من احببت .. كانت تريد تحطيم ماضي ..
ولقد حملتني على ان اخبرها بتفاصيل زواجي من فاليريا ،
ولكنني اختلفت في روايتي اشياء كثيرة من اجل ان ارضي
غورها التافه .

و كنت كلما امعنت في تصوير عشيقاتي السابقات في شكل
مزرٍ ؛ كانت سعادتها تتعاضم .
أجل لم يسبق ان عانيت في حياتي برهة اعترفت فيها هذا
القدر ، وسمعت فيها هذا القدر من الاعترافات ، مثل برهة
زواجي من شارلوت .

لقد حدثتني عن جميع غرامياتها ابتداء من اول معانقة
بريئة وانتهاء بآخر معانقة غير بريئة .. ولكن مغامراتها كانت
نظيفة اخلاقياً بالقياس الى مغامراتي .. ولكنها كانت تتشابه
في مؤثراتها الرخيصة القائمة في كيان حياتنا ونفسياتنا .
ولقد وجدت تسلية كبرى في التعرف على بعض العادات
الجنسية الملحوظة ، التي كانت شارلوت قد اكتسبتها . فقد
كانت عادات جدية وكانت تعتبر عبثي شيئاً غير لائق .

كانت هذه هي كل النقاط المهمة في سيرة حياتها العقيمة .
كانت قلما تتحدث عن لوليتا باكثر مما تتحدث عن طفل
اشقر فقدته وهو صبي ، وكانت في بعض احلام يقظتها تتنبأ بان
روح ذلك الغلام الاشقر ستعود الى الارض في شكل غلام
ستحمله مني ..

ومع انني لم اشعر بحافز الى ان اعطي لوليتا شقيقاً من امها ،

(ها انتم ترون كيف انني بدأت اعتبر لوليتا ابنتي) فقد خطرت لي ان ذهاب الأم الى مستشفى للولادة في الربيع القادم ، ربما اتاح لي فرصة الانفراد مع لوليتا ؛ وخاصة اذا تعقدت الأمور وتطلب الأمر اجراء العملية القيصرية للأم وتصورت كيف سأتمتع بمحاسن المراهقة المسعورة ، بعد ان ادس لها الأقراص المنومة .. . لقد كانت تبغض ابنتها وترى فيها طفلة شقية متمردة سلبية قلقة وعنيدة ، وكانت تبدي كرها بتحطيم سمعة ابنتها حينما تيسر لها .

- ٢٠ -

كان الجو في الاسبوع الاخير من تموز (يوليه) شديد القيظ ، فكنت وزوجتي نذهب يومياً الى بحيرة تبعد كيلومترات قليلة ، ويخيل الي بانه يجب ان اصف بالتفصيل آخر مرة سبجنا فيها معاً في صباح احد ايام الثلاثاء .

تركنا السيارة في المنطقة المخصصة لوقوف السيارات واخترنا طريقاً مختصراً عبر غابة الصنوبر للوصول الى بحيرتنا ، وبينما كنا نسير وهي تجاذبني اطراف الشائعات عن غراميات احدي جاراتها قالت لي :

— هل تعرف يا همبرت بان حلاً طموحاً للغاية يراودني .. .
قالت هذا وخفضت رأسها كأنها هي خجلة من حلمها الطموح واستطردت :

— انني اتمنى الحصول على خادمة حقيقية مدربة كالخادمة الألمانية التي حصل عليها جيراننا آل تالبوت لتقيم معنا في البيت .

ولما قلت لها ان ليس في البيت من غرفة لايوائها .
اجابت : اوه انك لا تقدر طاقة بيتنا الاستيعابية حق قدرها .. اننا نستطيع ان نضعها في غرفة لوليتا ، وعلى كل حال فانني انوي تحويل غرفتها للضيوف فهي ثقب وليست غرفة .
شعرت بالدم يتصاعد الى وجنتي وقلت لها :
— عم تتحدثين (قلت ذلك بلمهجة من القرف وعدم التصديق والهياج) .

— هل يزعجك ازالة مسرح ذكرياتك الرومانتيكية (كانت تشير بذلك الى اول مرة استسلمت فيها الي) .
— كلا .. ولكنني أتساءل اين ستضعين ابنتك اذا جاءك نزيل ، أو اذا أتتك خادمة ؟
فأجابتنني بابتسامة حاملة :

— آه تعني لوليتا الصغيرة .. اخشى الا يكون لها اي مكان في وجودنا الجديد .. فسأرسلها من الخيم رأساً الى مدرسة داخلية ممتازة ، ذات نظام شديد وتدریس ديني سليم .. أجل لقد رقت كل شيء فلا تقلق ..

وكنّا في هذه الآونة قد اشرفنا على البحيرة البراقة الامواج ، فقلت لها انني نسيت نظاراتي في السيارة وانني سأعود اليها حالاً ..

لقد كنت دائماً اظن ان رفع اليد بالضراعة يؤلف حركة مسرحية روائية المنحدرة الينا من شعائر القرون الوسطى ، ولكنني لما قفلت عائداً الى الغابة في حالة من القنوط بسبب ما سمعته من شارلوت اخذت الوح بيدي الى السماء قائلاً : انظر يا ربي .. هذه القيود الجديدة التي تريد تلك المرأة ان تكبلني بها . لو كانت شارلوت هي زوجتي الاولى فاليريا لعرفت كيف اعالج هذه الحالة .. فقد كان يكفي في الزمان الاول ان ابرم معصم فاليريا حتى احملها على تغيير رأيها ، ولكن هذه الخطة غير واردة ولا يمكن ان تطبق على شارلوت المرأة الامريكية المعتزة بنفسها . كانت تخيفني ، كما انه ليس من الصائب ان اسعى الى السيطرة عليها عن طريق غرامها بي ، ثم اني ما كنت أجروء على ان افسد الصورة التي كونتها لنفسها عني ، واخذت تتبعها . لقد تملقتها عندما كانت الصورة المكبرة لحبيبتني الحقيقية لوليتا وظل بعض التملق عالقا في موقفني منها ، حتى استطيع ان اتصورها تجسيدا مكبرا لوليتا .

كانت الورقة الهامة في اللعبة هي جعلها بحبي الخفيف الهائل لابنتها لوليتا .. وكنت الحظ ضيقها لان لوليتا تميل الي .. ولكنها ما استطاعت يوماً ان تحبس بحقيقة مشاعري .. ولو كانت زوجتي الاولى فاليريا مكانها لقلت لها :

إسمعي ايها المدينة البلهاء .. انا صاحب الامر والنهي فيما ينفع ويضر لوليتا هبرت ..

ولكنني ما كنت استطيع ان اقول لشارلوت حتى : دعوا

يا عزيزتي انني لا اوافقك الرأي . أجل دعينا يا عزيزتي نعطيها فرصة اخرى .. دعيني اكون معلمها الخاص لمدة عام .. »
والواقع انه ما كان باستطاعتي ان اقول لها شيئاً بصدد لوليتا دون ان اكشف سري .. إذ انها ستكون في هذه الحالة قادرة على ان تميز اي افتعال لحسن النية ، هذا رغم انها لم تلاحظ زيف الحياة المحيطة بها بعاداتها وأعرافها وقواعد سلوكها ..
انها مثل الموسيقي الذي يكون مبتدلاً وسوقياً في حياته العادية مجرداً من كل ذوق مرهف ، ولكنه يستطيع في الوقت ذاته ان يكتشف اية نغمة نشاز في القطعة الموسيقية بدقة صحيحة شيطانية ... وهكذا فان تحطيم ارادة شارلوت يتطلب تحطيم قلبها ، ولكني اذا حطمت قلبها فان الصورة التي رسمتها لي في خيالها ستتخطم كذلك . واذا اندرتها بانها اما ان تترك لي مطلق الحرية مع لوليتا؛ واما ان نفرق في الحال فانها خليفة بان تصفر وتبهت وتشحب وتقول :

— حسناً فلتكن هذه هي النهاية مهما قلت وبررت .

وهكذا فان النهاية خليفة بان تأتي ..

هذه هي الخواطر التي تضاربت في نفسي ، اذ وصلت الى مكان السيارة حيث اقبلت على المضخة أنهل الماء متهافتاً كأنما سيمدني بالحكمة والشباب والحرية والقدرة على حل المشكلة .. ثم جلست على حافة الغاب وبانت لناظري من بعيد صبيتان في سراويل قصيرة ، وفجأة خطر لي الخاطر : ان الحل الطبيعي يكمن في القضاء على السيدة هيز .. ولكن كيف

يكون ذلك ؟

ما من انسان يستطيع ان يقترب ما يدعى بالجريمة الكاملة التي لا تثير فيها شبه ولا تترك عليها أثراً .. ولكن للانسان ان يجرب ، فربما تسنح الفرصة بذلك .

وعند هذا الحاطر عدت الى البحيرة حيث كان المكان الذي نستحم فيه انا وشارلوت وعدد من الجيران بمثابة شاطيء خاص لنا فقد كان محبوباً بنتوء صخري عن الأنظار، ويهيء كما يقال مجالاً للسباحة أو الغرق ..

جلست بجانب زوجتي متسللاً اليها بهدوء بحيث ذعرت اذ احسنت بوجودي المفاجيء .. ثم سألتني :
— هيا هل نقذف بانفسنا الى الماء ..

فقلت : اجل بعد دقيقة .. اذ اريد ان اتابع في خيالي فكرة طائفة ..

وبعد اكثر من دقيقة قلت :

— حسناً هيا بنا ..

— هل كنت راكبة في قطار افكارك ؟

— بكل تأكيد ..

فقلت وهي تغطس في الماء انها ترجو ذلك . ولما وصلت المياه الى ردفها تبعتها فوجدتها تنهياً بذراعيها المبسوطتين لان تقذف بنفسها الى العباب .. ثم ما لبثت ان اندفعت الى الامام مرسله الرذاذ الكثير واخذنا نمضي الى منتصف البحيرة ، حيث لمحت على شاطئها الآخر الذي يبعد عنا الف خطوة رجلين يحفران جادين

في رقعة من الساحل وقد عرفت تماماً من هما فقد كان احدهما شرطي متقاعد والثاني سنكري سابق وكانا يملكان معظم الغاب المجاور للبحيرة .

وتطلعت حولي فلم أجد غير الرجلين البعيدين المنهمكين في العمل . كان كل شيء معداً كمسرح لجريمة قتل مفاجئة صاعقة ... فقد كان الرجلان يستطيعان ان يميزا من مكانها حادثة غرق، ولكنها ما كانا ليستطيعا ان يريا جريمة ترتكب بهدوء، وخاصة اذا كانت جريمة يقوم بها زوج يسبح مع زوجته ثم يغطس بها ويخنقها تحت الماء .

أجل كان الرجلان من القرب بحيث يسمعان سباحاً يتخبط في الماء وينادي طالباً النجدة لانقاذ امرأته التي بدأت تغرق . . هذا بينما كانا من البعد ، بحيث لا يستطيعان ان يميزا شيئاً اكثر من سباح يلهو مع زوجته ويجرها من راحة قدمها .

لم اكن قد وصلت الى هذه المرحلة عملياً .. انما كنت ارسم صورة واقعية في ذهني لسهولة الوضع وملاءمته بخلصت منها الى انني لست بحاجة الى اكثر من ان اتقدم منها بعد نقس عميق ، ثم امسك بكاهل قدمها واغطس بسرعة وانا اجر الجثة الاسيرة الى الاعماق .. اقول الجثة لان المفاجأة والذعر وقلة الخبرة ستجعلها تبتلع في الحال غالوناً من مياه البحيرة المالحة بينما سأستطيع ان اظن غاطساً بها تحت الماء مدة دقيقة كاملة .

تصورت الحادث يجري بلح البصر ويمر متسارعاً كذيل

الشهاب الهاوي عبر الظلمة .. وتصورت نفسي استطيع ان اصعد الى سطح الماء لآخذ نفس عميق آخر ، بينما تكون يدي محتفظة بأسيرتي تحت سطح الماء .. وبعد ان تمر عشرون دقيقة ، سيأتي الرجلان في قارب إذ يسمعان صياحي في طلب النجدة .. بعد فوات الأوان ..

ان الأمر بسيط أليس كذلك يا حضرات القراء ؟ اجل ولكنني مع ذلك لم استطع ان احمل نفسي على الإقدام عليه !! كانت شارلوت هيز تسبح معي باقصى الاطمئنان ، بينما كان منطق شبعي الى لوليتا يهتف في اذني بان اقدم على الجريمة فهذا وقتها .. ولكنني لم استطع .. فتوجهت نحو الشاطئ وتبعني ، بينما نصيحة المنطق الشيطاني تهدر في اذني ، كانت هذه النصيحة الصادرة من الجحيم تتعالى في اذني ، بينما اخذت ادرك الحقيقة المحزنة ، وهي انني لن استطيع غداً او بعد غد أو في أي يوم آخر ان احمل نفسي على انهاء حياتها ...

ربما لو كنا في عام ١٤٤٧ بدلاً من ١٩٤٧ لكنت قد دبرت امرها بان ادرس سماً في طعامها يوصلها الى ذراع الموت بكل لطف ، ولكن ذلك لم يعد مستطاعاً في هذا العصر الذي تقدم فيه التشريح الجنائي .. ففي هذه الايام يتوجب عليك ان تكون من علماء الطبيعة اذ اردت ان تكون قاتلاً ..

ولكنني لست بعالم ولست بقاتل .. ولم استطع ان اكون اياً منها ..

حضرات المحلفين :

ان معظم اصحاب الشذوذ الجنسي الذين يلتصقون علاقات جسدية مبهورة راعشة لذيدة مع فتاة مراهقة ، هم من اصحاب الشخصيات الغريبة وهم في ذلك غير مؤذنين ، بل انهم موادعون مسلمون مستكينون ، انهم لا يطلبون من المجتمع اكثر من ان يسمح لهم بمتابعة سلوكهم غير المؤذي الذي يدعى بالسلوك الشاذ .. كل ما يطلبون هو ان يزاووا اعمال انحرافهم الجنسي (التي هي غير مؤذية عملياً) الهادئة دون ان ينقض المجتمع والجهاز البوليسي عليهم بسوط العذاب .

اننا لا نفتصب الفتيات ، كما يفعل الجنود في الأيام الذهبية . فنحن رجال مستكينون مهذبون تهذيب الطالب ونحن على ما يكفي من احترام النفس بحيث نسيطر على حوافزنا امام الفتيات البالغات ؛ بينما نكون مستعدين ان ندفع سنوات وسنوات من عمرنا ثمناً لفرصة واحدة لملامسة مراهقة قاصرة مسعورة بالشبق . اجل لسنا بالقتلة .. فالشعراء لا يرتكبون جرائم القتل ابداً .. ونحن كالشعراء ..

ايه ! يا شارلوت العزيزة عسى الا تبغضيني وانت في دار الخلود وانت بين الارواح الخالدة هناك ...

ولنعد لرواية ما حدث :

عدنا الى الشاطيء وجلسنا على مناشفنا نتمتع بالشمس الساطعة ، ثم ما لبثت شارلوت ان تطلعت الى ما حولها وازاحت ثوب استحمامها واستلقت على بطنها لتعطى ظهرها فرصة تقبل

المغازلات مني ومن الشمس ..

قالت انها تحبني وتنهدت تنهداً عميقاً ، ومدت يداً تفتش في جيب ثوبها عن سيكارة .. ثم جلست واخذت تدخن ومالت نحوى وقبلتني بقوة بفم تفوح منه رائحة التبغ اللاذعة .. وهنا سمعنا خشخشة في الدغل القريب ، ثم برزت جين فارلو تحمل عدة الرسم فقالت لها شارلوت :

لقد اخفتنا !

فقالت جين بانها كانت تحاول ان ترسم منظر البحيرة ، ولكن عبثاً فهي رسامة غير موهوبة .. فاكتفت بتأمل الطبيعة .. اجل هذا هو شأن الجاسوسات انهن دائماً يتميزن بموهبة فنية فجأة .. لا يستطعن التعبير عنها وهي التي تقودهن الى صب مواهبهن على التجسس ولقد قالت جين انها كانت من مكنها ترائنا بوضوح حتى انها استطاعت ان تميز بأنني اسبح وساعتي في معصمي . وتنهدت جين وقالت :

ذات مساء رأيت فتى وفتاة في مطلع العمر يتساقيان كؤوس الهوى .. وكان ظلاما يمتدان امتداداً هائلاً في نور الغسق ..

- ٢١ -

كانت عادتي في التزام الصمت ، عندما أكون متزعجاً .. تخيف زوجتي الاولى فاليريا وتهدم اعصابها فلانت تقول :
« ان ما يحنني هو انني لا اعلم بما تفكر ، عندما تكون في مثل هذه الحالة .. »

لقد حاولت ان اكون صامتاً مع شارلوت ، ولكنها كانت تحطم صمتي بمعانقتي وتقبيلي تحت فكي .. انها امرأة مدهشة .. فكنت انحجج بان عندي ما اكتبه واذهب الى غرفتي ، بينما تمضي شارلوت في اعمالها البيتية مريحة لاهية .. لا يثيرها صمتي . ها قد مر اسبوع من الظلال والغثيان على آخر زيارة لنا للبحيرة .. ولست استطيع ان اذكر في حياتي اسبوعاً يعادله في الكآبة والقنوط .. ثم ما لبثت ان التمعت في الجو خيوط من الرجاء ..

فقد تذكرت بانني على ذكاء بديع وان عقلي يؤدي وظائفه بنظام فمن الاجدى ان استخدمه .. وقلت لنفسني بانني اذا كنت لا استطيع التدخل فيما تضعه شارلوت من خطط لمستقبل ابنتها التي تزداد سمرة وسعيراً في نخم البنات ، فاني استطيع استنباط وسائل غير مباشرة انفذ منها عبر خططها الى وطري وأهيء لنفسى فرصة سانحة .

والواقع ان شارلوت بذاتها قد فتحت لي بنفسها ذات مساء بداية الطريق اذ قالت وهي تحدجني بنظرات والهة ونحن على مائدة العشاء .

— عندي مفاجأة لك .. اننا ذاهبان نحن الاثنين في الخريف الى بريطانيا ..

فمسحت شفتي بالفوطة الورقية وقلت لها :

— وانا كذلك عندي مفاجأة لك يا عزيزتي .. وهي اننا لسنا ذاهبين نحن الاثنين الى بريطانيا ..

وقالت لي وقد ظهرت عليها من معالم الدهشة اكثر مما توقعت :

— لماذا ؟ ما السبب ؟

كنت في ذلك الحين امزق الفوطة الورقية بحركات لا ارادية الا ان وجهي الباسم هدأ قليلاً من روعها وهي تستمع الي اقول :
— السبب بسيط .. هو ان الزوجة لا تنفرد باتخاذ جميع القرارات حتى في بيت الزوجية ، الذي يضارع بيتنا من حيث كمال الانسجام فهناك امور من شأن الزوج وحده ان يبت بها .. انني استطيع ان اتصور ما قد يخالج نفسك من انفعال فرح ، انت الامريكية المعتدة بنفسك ، والباخرة تعبر بك الاطلسي . اجل استطيع ان اتصور انبهارك وانت على الباخرة مع ملك اللحوم المثلجة .. او مع احدى عاهرات هوليدود .. ولست اشك في اننا (انت وانا) نستطيع ان نكون موضوعاً طيباً لصورة تستخدمها مكاتب السفريات .. صورة تمثلك تحديقين بدهشة ولذة الى تبديل الحرس امام القصر الملكي في بريطانيا .. بينما تمثلني وانا اكبح جماح ملامح اعجابي .. ولكن يجب ان تعلمي ان اوروبا بما فيها بريطانيا القديمة المرححة تثير غشيانى .. فليس لى غير ذكريات تعيسة عن العالم الأوروبي القديم المتآكل الفاسد .. ولن يغير من موقفى اى اعلان ملون في مجلاتكم الامريكية .. وحاولت شارلوت ان تقاطعني لتفسر حسن نيتها فقلت لها :
— انتظري لحظة ان القضية التي اشير اليها هي مجرد قضية عرضية .. فما يهمني حقاً هو المبدأ العام لعلاقتنا الزوجية .

فعندما اردتني ان اقضي ساعات بعد الظهر عند البحيرة بدلاً من ان اقضيها في التأليف الأدبي انصعت بسرور وتحولت من اجلك الى شاب مرح برنزي الجسم .. بدلاً من ان ابقى استاذاً ومربياً وقوراً .. وعندما جررتني الى لعب البريدج واختساء الويسيكي مع جيرانك آل هارلو تبعتك صاغراً ..

ولقد لمست كيف انني لا اتدخل في شيء ، عندما تقومين بتزيين بيتك .. كما لمست بانني التزم الصمت وانت تقررين كل امور البيت ، وان كنت اخالفك الرأي في بعض الحالات .. على انني كما قلت لك استطيع ان اتجاهل حالات خاصة ، إلا انني لا استطيع تجاهل الاتجاه العام .. انني احب ان تقودي اموري ، ولكن لكل لعبة اصولها وقواعدها .. فانا لست كمية مهمة .. انني نصف هذا البيت وان لي فيه صوتا وكلمة .

في هذه الاثناء دنت شارلوت الى قربي وجثت على ركبتها ، واخذت تمسك بي من ساقى ، وما لبثت ان قالت لي بانها لم تنتبه الى ذلك قبلاً وانها تؤمن باني سيدها وربها .. واقترحت علي ان اخذها وأنا في مكاني بين ذراعي وان اجامعها نظراً لأن الطباخة لويز غائبة ، وقالت انها ستموت اذ لم اصفح عنها .

ملأتني هذه الحادثة البسيطة بنشوة عظمى ، فقلت لها ان القضية ليست قضية طلب الصفح ، بل قضية تغيير منهجها . فسكنت مستكينة ، بينما قررت ان امضي في استثمار تفوقي من اجل ان اقضي شطراً طيباً من الوقت في التأليف .. او في التظاهر بالتأليف ..

وبعد يومين من الحادثة كنت في غرفتي غائصاً في الكرسي المريح ، عندما نقرت شارلوت على الباب ودخلت .. يا الهي ما ابعد الفرق بين حركاتها وحركات لوليتا التي كانت تدخل الى غرفتي بسرواها الرجالي وهي تتضوع برائحة خمائل جزيرة المراهقات السحرية .. بينما كانت تقدم رجلاً وتؤخر اخرى ، ولكن بحركات متدلعة فاتنة ، تكشف عن زوايا من صدرها الكاعب عبر القميص الذي لم تكن تقفل كل ازراره ..

حاولت ان ابطّاهر بالنوم ، ثم تظاهرت بانني غارق في الكتابة فاقتربت بحذر وجلست على حافة الكرسي وخيل الي انها تتضوع بنفس العطر الذي كانت تستخدمه زوجتي الاولى .. وقالت لي .

— هل تحب ان اعد لك شيئاً خاصاً للعشاء .. ان جون وجين هارلو سيزوراننا الليلة ..

وأجبتها مغمغماً فقبلتني عند اسفل شفتي قائلة انها ستعد كعكة كبرى ، ثم تركتني لوحدي ..

كانت قد سألتني عما تحتويه احد صناديقي فقد كان دائماً مغلقاً ولقد تهربت من الجواب عليها ، فلما غادرتني تفقدت مخبأ مفتاحه فوجدته حيث هو .. مع انه من الصعب جداً ان يخبيء الانسان شيئاً ، عندما تكون زوجته حريصة على تفقد كل قطعة من الأثاث .

اظن انه كان قد مضى اسبوع على سباحتنا الاخيرة في البحيرة ، عندما تلقت شارلوت رداً من المدرسة الداخلية جاء فيه انها قد تأخرت في طلب تسجيل ابنتها ، ولكن اذا جاءت بها الى المدرسة في كانون الثاني (يناير) فان الادارة قد ترتب امر قبولها . وفي اليوم التالي ذهبت بعد الغداء لمقابلة طبيب العائلة ، وهو شخص ودود لطيف مهذب للغاية ، ولكن تهذيبه يخفي جهله الطبي ، فهو يعتمد على اعطاء أدوية معينة لمختلف الحالات . وكنت في حالة من الغبطة الطاغية فقد كان قرب عودة لوليتا الى رامسدیل بمثابة ينبوع اخذت اغترف منه النشوة .. ولقد اردت ان اعد نفسي اعداداً كاملاً لهذا الحدث ، وهكذا فقد بدأت حملتي قبل ان تتخذ شارلوت قرارها القاسية بابعاد لوليتا .. فكان علي ان اكون متأكداً من انني سأمتلك من الوسائل ما يمكنني من ان أهيء نوماً عميقاً للوليتا وامها ، بحيث لا تستطيع ضجة أو لمسة أن توقظهما من نومهما كل ليلة منذ ان تعود لوليتا الى ان تأخذها المدرسة مني ..

وعلى هذا الاساس ظلت طيلة شهر تموز (يوليو) اجرب مختلف أقراص المساحيق المنومة على شارلوت المغرمة بابتلاع ما يقدم لها من حبوب .. وكانت قد ظنت ان آخر حبة منومة اعطيتها لها هي حبة لتسكين اعصابها ، اما الحقيقة فان الحبة قد افقدتها الوعي عدة ساعات عمدت في اثناءها الى رفع صوت الراديو الى مداه

الاعلى والى قرصها وتقيلها وزحزحتها وتغيريتها وتحريكها، ولكن ما من شيء من ذلك استطاع ان يخل من انتظام انفاسها وان يوقظها من سباتها العميق.. هذا بينما كانت في العادة تستيقظ متوثبة كالحصان ، عندما اقبلها مثلاً قبله خفيفة .

ومع ذلك فان نتيجة ذلك القرص المنوم لم تقنعني فاردت شيئاً ادعى الى اطمنائي، فذهبت الى طبيب العائلة وقلت له ان الوصفة الاخيرة لمعالجة أرقى (وهي الوصفة التي جربت حبوبها على شارلوت) لم تنفع في ازالة ارقى، وقد دهش لذلك ورفض ان يصدقني مقترحاً ان اجرب الحبوب ثانية ، وحاول ان يغير الموضوع فاراني صورة ابنته وهي في سن لوليتا ، غير انني تنبّهت الى قصده وألححت عليه في ان يكتب وصفة اقراص منومة اشد مفعولاً .. وبعد ان اعيتته الحيل معي قال لي انه سيصف لي حبوباً فعالة حقاً .. وفعلاً اخرج من خزانته اقراصاً بنفسجية اللون قال عنها انها آخر المبتكرات الطبية فقد استنبطت ليس لمداواة ارق الذين يمكن مداواة ارقهم بسطل من الماء ، انها لمداواة ارق الفنانين الذين لا يستطيعون النوم حقاً ..

فرحت اذ جازت خدعتي على الطبيب ، ذلك انني احب أن اخدع الأطباء ، الا أنني كتمت معالم فرحي ، وأخذت الحبوب وانا اتظاهر بالشك. فقد كان يجب ان اكون حذراً معه إذ لحّت اذنيه تكادان تندفعان الى في فضولاً ، عندما اتزلق لساني ذات مرة وذكرت له اسم آخر مصحح نفسي كنت فيه . ولما كنت حريصاً ألا تعرف شارلوت وغير شارلوت أي

شيء عن تلك الفترة من حياتي ، فأنني سارعت الى تفسير الأمر
بالادعاء انني قمت ببحث نفسي بين المجانين من اجل كتابة
احدى قصصي .

غادرت عيادة الطبيب وانا في نشوة عظمى امسك بمقود
سيارة زوجتي باطراف اصابعي في حركة تعكس اعتدادي
وثقتي واطمئناني وسروري ، ورأيت الدنيا تضحك لي في كل مكان .
كنت قبل زيارتي هذه للطبيب بيوم واحد قد انهيت العزلة
التي فرضتها على نفسي ، وهكذا فقد أطلقت صيحة تعبر عن
فرحي بعودتي الى البيت ، عندما رأيت شارلوت في الصالون
ترتدي التنورة الكستنائية والقميص الأصفر اللذين كانت ترتديهما
عندما قابلتها للمرة الأولى وكانت منحنية تكتب رسالة ، فأطلقت
من جديد صيحه الفرح ووجدتها تتوقف عن الكتابة وتجلس
جامدة لبرهة ، ولم تلبث ان دارت واسندت معصمها على ظهر
كرسيها ، فبدا وجهها وقد شوهت الأنفعالات معالمه خيفاً
لا يسر .. وما لبثت هذه الهرة العجوز الأم الكريهة المتسلطة
والكلبة العريقة ، ان صاحت في وجهي :

- ان شارلوتك البلهاء لم تعد العوبة في يدك .. انها .. انها ..
وتوقفت عن الكلام وهي تبتلع لعابها ودموعها ، ثم استأنفت
هجومها :

- انك وحش رهيب .. انك مجرم عتل زنيم وغد ، وحاذر
ان تقترب مني فساصرخ مستنجدة .. هيا ابتعد .
ولعله مما لا يؤخر أو يقدم ان اسجل هنا ما غنمتم به رداً

عليها ... بينما استطردت تقول :

انني ذاهبة الليلة وسأترك لك البيت كله .. ولكنك لن ترى بعد الآن تلك الطفلة البائسة .. هيا اخرج من امامي .

لقد اطعتها ايها القاريء العزيز ، وصعدت الى الغرفة التي كنت اعتزل فيها ووقفت هناك جامداً لبرهة وانا اتأمل الصندوق الذي يحتوي على اوراق السرية منتهاكاً مفتوحاً مخلوع القفل .. وتوجهت من الغرفة الى مخدعي ، حيث اخرجت دفتر مذكراتي من مخبئه تحت الوسادة ووضعه في جيبتي ؛ ولما بدأت انزل الدرج توقفت عند منتصفه ، فقد سمعتها تتكلم على الهاتف القريب من باب الصالون فحبست انفاسي لأسمع ما كانت تقوله ، وسرعان ما فهمت من كلامها بانها كانت تلغي طلباً بشراء شيء كانت قد اوصت عليه .. فاستعدت انفاسي وتسلمت الى المطبخ ، حيث فتحت زجاجة من الويسكي .. كانت شارلوت لا تستطيع على حد علمي ان تقاوم اغراء الويسكي ولهذا فقد حملت الزجاجة الى الصالون وتوقفت في مدخل الباب قائلاً بهدوء :

— شارلوت انك تهدمين حياتي وحياتك .. فلنكن متعقلين متمدنين .. انك مجنونة يا شارلوت وكل ما في رأسك هو نتيجة تصوراتك وأوهامك فالمذكرات التي كانت مخبوءة في الصندوق ليست سوى مقتطفات من رواية اؤلها . اما اسمها واسمك فقد جاءا فيها بمحض الصدفة ؛ فقد كانا الوحيدين اللذين خطرا لي .. فكري ملياً بالموضوع من جديد وسأتيك بقدح ..

لم ترد ولم تلتفت ، انما مضت في كتابتها .. كانت قد بدأت رسالة ثالثة اذ رأيت بجانبها مظروفين مغلقين معنوين . على انني عدت الى المطبخ وملأت قدحين وانا افكر قائلاً لنفسني: لتقرأ المذكرات مرة ثانية فلا يهم ، طالما تمسكت بزعمي انها مقتطفات من رواية خيالية والأحسن ان اضيف على تلك المذكرات شيئاً آخر اتركه في متناول يدها لتقرأه على ان تكون محتوياته متصلة بمحتويات المذكرات وبشكل يعزز ادعائي .. وفتحت البراد وصورة لوليتا تتراقص امام عيني وانا اخرج مكعبات الثلج .. ثم اغلقت البراد بشدة وحملت القدحين ووقفت عند مصراعي باب الصالون وقلت لها من فرجته الضيقة :

– لقد صبيت لك قدحاً .

ولكن الكلبة المسعورة غضباً لم تجب فوضعت القدحين قرب الهاتف الذي بدأ يرن .. فتناولت الساعة لأسمع صوتاً يقول :

– انني لزي طومسون .. لقد دهست سيارة جامحة زوجتك

السيدة مهمبت .. والأفضل ان تأتي حالا !!

فأجيبته بشيء من التأدب بان زوجتي على خير ما ايرام ثم فتحت دفة الباب وانا لا ازال ممسكاً بالساعة وقلت :

– هناك رجل يقول انك قد قتلت دهساً يا عزيزتي ..

وتطلعت الى الصالون .. فلم اجد لشارلوت اثرأ فيه ..

اندفعت خارجاً من البيت ليواجهني الشارع بمنظر فريد .
فقد رأيت سيارة باكارد سوداء قد تسلفت حاجز حديقة
الجيران ووقفت تلتمع بهيكلها في اشعة الشمس وقد انفتحت
ابوابها واستلقى بجانبها على العشب كجثة من شمع رجل وجيه
عجوز وقد هرعت اليه مربية الجيران تحمل بيدها قدحاً من
الماء ... فلم يكن ميتاً ولم يكن مغمى عليه انما كان مصاباً بنوبة
قلبية .. انه والد فردريك بيل سائق سيارة الباكارد ..
وتطلعت الى اليسار فرأيت بقايا المخلوقة التي كانت تدعى
شارلوت هيز .. اعني شارلوت هبرت زوجتي .

لقد طرحتها السيارة الجاحدة ارضاً ودحرجتها امامها عدة
أقدام بينما كانت مندفعة لتلقي في علبة البريد الرسائل الثلاث
التي كانت قد انتهت من كتابتها .. وقد التقت طفلة هذه
الرسائل وسلمتها الي فزقتها ارباً ارباً ودسستها في جيب
سروالي .

وما لبث ان جاء آل فارلو وثلاثة اطباء لمعالجة الموقف ..
اما انا فقد تظاهرت بالذهول وهم ينقلون الجثة المشوهة مما
اضطروهم الى جري الى البيت ووضعني في فراش لوليتا .. لقد
اشرف اجون وزوجته جين على امري وقد آويا الى غرفتي لقضاء
الليل معي .. وما اعرفه هو انه ربما لم يمضيت في مخدعي ليلة
تتصف بالبراءة التي يتطلبها المرقف الجدي .

ليس هناك من سبب يدعوني للاطالة في وصف اجراءات
الجنائز والجنائز بالذات ، ويكفي ان اقول انها كانت هادئة
كحفلة الزواج بالضبط ولكنني يجب ان اشير الى عدة حوادث
تصل بما جرى بعد اربعة او خمسة ايام من موت شارلوت ..

لقد امضيت ليلتي الاولى كأرمل وانا منحور الى حد انني
نمت كطفل .. نمت نوماً عميقاً كالطفلة لوليتا التي كانت تنام
في الفراش .. وفي الصباح سارعت الى تفقد قصاصات الرسائل
الثلاث التي درستها في جيبي .. كانت احدى الرسائل موجهة
الى لوليتا وكانت الثانية تشير الى رغبة شارلوت في الهرب مع
لوليتا الى مسقط رأسها خوف ان تتعرض لوليتا لخطر من احد
الشواهين او الذئاب .. اما الثالثة فكانت عبارة عن طلب
تسجيل لوليتا في مدرسة داخلية للبنات اشتهرت بصرامة نظامها
بحيث كانت تلقب باسم « اصلاحية الفتيات » .

وفجأة فرغ البيت فقد ذهب جون لمقابلة احد زبائنه
وذهبت جين لاطعام كلبها .. وهكذا حرمت من رفقة الزوجين
الذين كانا يخشيان ان انتحر حزناً اذا تركت لوحدي ! ولم
يلبث ان جاء ليولي وزوجته لويز بايعاز من جين ليبقيا في
صحبتي .. ولما جاء جون وجين فارلو اريتها في لحظة الهام
صورة صغيرة لشارلوت كنت قد وجدتها بين امتعة الراحلة ..
كانت الصورة تمثلها والهواء يعصف بحداثتها وكانت تبسم ..
وكان المكتوب على ظهر الصورة يشير الى انها التقطت عام
١٩٣٤ في مدينة بيسكي فقلت لهما انني كنت ذلك الغام في زيارة

اعمال للولايات المتحدة وانني امضيت الصيف في بيسكي والتقيت
بشارلوت وعقدت معها علاقة غرامية منذ ذلك الحين ، وعندما
عدت الى اوروبا بقينا نراسل بواسطة صديق مات الآن
ثم جئت الى بيتها نزيلا وتزوجت منها ..

وهست جين بانها كانت قد سمعت عدة اشاعات عن
الموضوع .. فهز زوجها رأسه ولم يلبثا ان غادرا البيت بعد
ساعات وما كادا يخفيا حتى جاءني قسيس المنطقة فحاولت
جهدي ان اجعل المقابلة مختصرة ولكن دون ان امس مشاعره
او أثير شكوكه واكدت له بانني سأكرس كل حياتي لهؤلاء
الطفلة لوليتا وأريته صليبا قلت له ان شارلوت كانت قد
اعطتني اياه عندما كنا صغيرين ثم ذكرت له ان لي ابنة عم تقيم
في نيويورك وانها عانس محترمة وانها تتولى الاشراف على
تدريس لوليتا في مدرسة لائقة ..

أجل كم كنت داهيا معه .!

ومن اجل ليزلي ولويز وبأمل ان ينقلا النبأ الى جون
وجين (وقد فعلا) قمت بكاملة هاتفية وهمية مع نخيم البنات حيث
تقيم لوليتا ولما جاء جون وجين عاجلتها قائلا وانا انا انا انا انا
والاضطراب بان لوليتا قد ذهبت مع بنات صفها في رحلة
خلوية تستغرق خمسة ايام .. ولا يمكن لأحد ان يتصل بها لينهى
اليها النبأ ..

وتساءلت جين : يا الهي ما العمل ؟

فاجابها جون بان الأمر بسيط لا يتطلب اكثر من الاتصال

بشرطة كلياكس ولن تمضي ساعة حتى يعثر رجال الشرطة على البنات الجوالات وواصل حديثه قائلاً :

- اسمع ما قولك في ان اذهب بسيارتي الى المخيم في الحال لابلغ الصغيرة الأمر .

وكرر الاقتراح بشكل يوحى بانني استطيع اثناء ذلك ان انام مع زوجته التي ساندته بحرارة وبشكل يوحى بان الحرارة هي قبول منها بان امضي الليلة بين احضانها ..

شعرت بان هذا العمل سيفضحني فناشدت جون ان يترك الاشياء كما هي تمضي في مقاديرها .. وقلت له اننى لست في حالة تمكنني من ان اطيق رؤية الطفلة تبكي وتعول وتتعلق باذيالي وحذرت من ان الصدمة قد تؤثر نفسانياً على مستقبلها كما ثبت من دراسات لعلماء النفس ..

واستسلم جون قائلاً :

- ان الأمر يرجع اليك .. ولكنني اريد ان اعرف ما انت فاعل بالطفلة ؟ ..

فصاحت به جين :

- جون .. أنت تعرف انها ابنته .. انها ليست ابنة هارولد هيز .. ألا تفهم .. ان مهربت هو والد لوليتا الحقيقي .

- أجل فهمت .. اننى متأسف .. لم يخطر ذلك في بالي ..

- أجل ان القضية باتت بسيطة .. ان مهربت اعرف الناس بمصلحة ابنته لوليتا .

وقلت لهما وانا اتظاهر بالمعطف الشديد بأنني سأذهب بعد

الجنّازة مباشرة لاستعادة لوليتا وسأبذل كل جهدي كيما اعزّيها
واسليها .. وفي بيئة أخرى.. ولذا فربما سأصحبها في رحلة الى
كاليفورنيا أو نيومكسيكو .

لقد مثلت لهما هدوء اليأس القانط بحيث ان جون وجين
اشفقا على حالي واخذاني الى بيتهما حيث اويت الى صالونها .
والآن يجب ان اشرح الاسباب التي تحدوني الى ابقاء لوليتا
بعيدة .

عندما زالت شارلوت من الوجود وعدت الى البيت والدأ
حرّاً متحرراً سارعت فكرعت القدحين المترعين بالويسكي ثم
ذهبت الى الحمام انفرد بنفسي هارباً من الأصدقاء والجيران وفي
فكري تمثل خاطرة محومة .. خاطرة يصنعها ادراكي بان لوليتا
يحسدها الدافيء وشعرها العسلي ستكون بعد ساعات بين ذراعي ..
وهي تذرف دموعاً سأكفكفها بقمي باسرع مما تنحدر من
مآفيها .. وبينما كنت احدث في مرآة الحمام مفتوح العينين نقر
جون فارلو على باب الحمام يسألني بأدب اذا كنت على ما يرام
وهنا ادركت ان من الجنون ان اتركها تأتي الى البيت وهو
يعج بالناس الذين يدبرون الخطط لانتزاعها مني .

بل لعل لوليتا بالذات خليقة بان تبدي بعض الارتباب
وعدم الثقة في شخصي .. وربما يراوحها خوف مفاجيء مني
وهكذا تذهب مني الغنيمة الذهبية في لحظة انتصاري وهكذا
تخطف اللقمة من فمي ..

وبمناسبة الكلام عن هؤلاء الطفيليين المتطوعين للتدخل في

شؤون الجيران يجب ان اشير الى ان بيل الذي ازهى روح زوجتي قد زارني وقد كسى وجهه بالحزن والرزانة فبدا كعاون الجلالد .. كالمعاون المبتدىء .. وبعد ان ذكر لي ان له ابنتين تدرسان مع ابنة زوجتي ، فرش رسماً بيانياً عن الحادث ملأه بالأسهم ليثبت لي بأنه لا ذنب له فقد كان يحاول ان يتحاشى ان يدهس كلباً عندما اندفعت زوجتي فجأة ودون احتراز امام السيارة فكان ما لا بد له ان يكون .. ولما وافقته على ان الذنب ليس ذنبه قال لي وهو ينفخ انفاسه الحارة من منخريه بشكل ذكرني بمخارج اللهب من الطائرات النفاثة ، قال لي بهيئة المتكلم النبيل انه مستعد لكي يدفع مع ذلك نفقات الجنائز . قال لي ذلك وهو يتوقع مني ان ارفض عرضه ولكني قبلته شاكراً فراجع مدهوشاً وكرر لي العرض ببطء وتردد وارثباك فشكرته ثانية وبجراحة أشد من المرة الأولى ..

ونتيجة لهذه المقابلة المسحورة الفاتنة 'حلت' للحظة العقدة التي خدّرت روحي ، ولا عجب فلقد رأيت في بيل عميل القدر ومبعوثه . هذا الذي ربت على كتفه وأنا أشعر بأنني ألعب بأشلاء القدر .. وشعرت بتخول عجيب مفاجيء في نفسي بعد ان قابلت اداة القدر في إزالة شارلوت من الوجود وتصورت ظروف الواقعة فأدركت بان بيل والسيارة والكلب ليسوا فقط الأدوات التي نفذت إرادة القدر فقد كنت شريكاً خبيثاً خفياً للقدر .. فلو لم أكن من الحق بحيث أسجل انطباعاتي السرية في دفتر مذكراتي لما قرأت شارلوت حقيقة ما يدور

في خلدي ولما اعتملت نفسها بالغضب والخوف والأنفعال بحيث
اندفعت الى صندوق البريد وهي كالعمياء فدهستها السيارة ..
أجل لقد تصورت نفسي وأنا أصافح بيل مودعاً بانني
أصافح القدر الذي يهنئي مما جعلني أخرج من بلادة شعوري ..
فبكيت أجل يا حضرات المحلفين أقسم لكم بانني بكيت !

- ٢٤ -

كان المطر ينهمر مدراراً مصحوباً برياح عاصفة بينما كنت
أطلع حولي ملقياً نظراتي الاخيرة على مدينة رامسدال ذلك انني
مدفوعاً بحافز مغامرات خفية قررت ان اغادر المنزل الداكن
الذي كنت قد استأجرت غرفة فيه ثم تزوجت صاحبه وترملت
وكل ذلك في بحر شهرين . وبينما كان جون يضع امتعتي في السيارة
ذهبت عدة مرات الى ذلك البيت لأسباب شتى وهنا حدثت
واقعة غريبة لا ادري اذا كان لها من مكان في هذه الصفحات
الدراماتيكية ..

ولست ادري اذا كانت هذه الصفحات الدراماتيكية قد
عززت في ذهن القارئ تأثيري على النساء من مختلف الأعمار
والبيئات بفضل مظهري الذي هو بين بأس الرجولة وبراءة
الطفولة .. وبفضل جمال ملاحي .. فكانت لوليتا البالغة تستكين
لسحري أما لوليتا المراهقة الناضجة فقد احبتني بماطفة ناضجة
أنانية أسف لها واحترمها بشكل لا يؤايني القدرة على التعبير عنه .

الحادثة الغريبة هي ان جين فارلو المختلة الأعصاب حتماً الجميلة التي انمت في نفسها ميلاً قوياً نحوى أمسكت جبيني باصابعها المرتجفة دائماً والدموع تترقرق في عينيها الزرقاوين البراقتين وحاولت بدون نجاح ان تلتصق شفثيها بشفتي بينا كان زوجها ينقل أمتعتي وقالت متوسلة :

.. - اعتن بنفسك وقبل ابنتك عني ..

وفرقع الرعد في السماء وهز جوانب البيت بينما استطردت تقول :

- ربما قد تواتينا الأقدار على ان نلتقي في ذات يوم وفي ظروف أقل بؤساً .

(إيه يا جين اغفري لي ما كتبته سواء أكنت حية في هذا العالم أم ذرة ضائعة في العالم الآخر) .

صافحتها في الشارع الذي يغتسل بسيل مدرار من الأمطار وفي جو يبنىء بالطوفان .. ومضيت بالسيارة تماماً فوق الرقعة التي وجدت فيها شارلوت جثة هامدة بعينها الطويلة الأهداب اللتين كانتا لا تزالان مخضبتيين بالدموع ..

- ٢٥ -

قد يفترض القاريء ان زوال شارلوت قد أزال جميع العقبات في طريقي الى ما ينتهي من المسرات التي تنتظرني ولكن الأمر لم يكن كذلك .

فبدلاً من ان اصطي بشعاعات الحظ الباسم ركبتني مختلف أنواع الشكوك والخاوف الأخلاقية فتساءلت مثلاً : ألن يثير دهشة الناس ان تكون لوليتا قد أبقيت بعيدة عن عرس والدتها ثم عن جنازتها ؟

وثمة شيء آخر : إذا سلمنا جدلاً بأن يد المصادفات قد لا تتجاهل في لحظة تكفير ما فعلته يدها فتغدق على لوليتا حذواً سابقاً لأوانه على يد أشخاص يدخلون مسرح الأحداث من حيث لا أريد .

وهكذا فلم استطع منع نفسي من التصور بأن بعضهم ربما يكون قد ابلغ لوليتا النبأ وربما كان ثمة اصدقاء أجهلهم يصطحبونها الآن من الخيم عائدين بها في اللحظة التي انا ذاهب فيها لأخذها من الخيم ..

على ان اكثر ما استدعى قلقي هو كوني وانا المواطن الأمريكي الجديد المنحدر من اصل اوروبي غامض لم اتخذاية خطوات من اجل ان اصبح الوصي الشرعي على ابنة زوجتي المتوفاة البالغة من العمر ١٢ عاماً و ٧ اشهر .

وتساءلت اذا كنت سأجرؤ مثلاً على اتخاذ تلك الخطوات ؟ ولم استطع ان اكبت القشعريرة التي تهزني إذ كنت أتصور نفسي وقد تعريت على حقيقتي في دنيا القوانين والاعراف السائدة .

كانت خطتي في أخذ لوليتا إحدى بدع الفن البدائي فهي تقضي بأن اتصل بمخيم البنات لأخبر لوليتا بان عملية جراحية ستجري لأمها في مستشفى وهي بعيد وبأن أخرجها من الخيم

واصطحبها من فندق ريفي الى آخر وانا اخبرها بين اليوم والآخر بأن حالة أمها تتحسن.. الى ان أبلغها انها قد ماتت... من التحسن .

ولكنني إذ كنت متجهاً بسيارتي صوب المعسكر ازداد قلقي ولم اطق مجرد التفكير باحتمال عدم وجود لوليتا في الخيم.. أو التفكير بأنني قد أجد لوليتا أخرى مذعورة تطالب معولة باصدقاء لعائلتها قد لا أنسجم معهم .. ولا استطيع تدبير شأني واياهم ..

وأخيراً قررت ان اقوم فعلياً بتلك المكالمات الهاتفية التي تظاهرت منذ ايام بأنني قمت بها ، وكان المطر ينهمر بشدة انحدار المياه من أفواه القرب ، عندما توقفت في إحدى الضواحي عند محطة بنزين وتحدثت منها هاتفياً مع خيم البنات ، حينما أجابتنني مديرة الخيم بان لوليتا قد ذهبت يوم الاثنين مع رفيقات لها في رحلة الى التلال ، ولكن المتوقع ان يعدن في ساعة متأخرة اليوم ، واقتрحت أن أرجىء مجيئي الى الغد وسألتنني عن الخطب فقلت لها بشكل غامض ان أم لوليتا قد دخلت المستشفى وان حالتها خطيرة ، إنما يجب إعدادها كما تذهب معي غداً .. وافترقنا على الهاتف ونحن نتبادل التمنيات الحارة :

أمضيت بعد الظهر في ضاحية باركنغتون في شراء أشياء جميلة للوليتا .. اشياء جميلة تثير ابتهاج المراهقات، ولم لا اشترى لها كل جميل ؟ أليست هي لي ، كما كانت بياتريس للشاعر دانتي؟

لقد اشتريت لها تنورة جميلة .. وتساءلت في نفسي أصوات خفية مكتومة إذا كان في ذهني أمر ما خاص بالطفلة ! ! أجل انني أنوي أمراً .

لقد أشرت لها اجل الملابس الداخلية الحريية وانا أتصور مقياسها كما عرفته ، إذ ليس معقولاً ان تكون قد كبرت كثيراً في ايام معدودات وبالإضافة الى معرفتي بقياساتها فقد كنت أستطيع ان اتصورها حية أمامي تمس دلالاً ورقة كجسد نوراني .. واستطيع ان اتصور ثديها البارز الذي مس مرة أو مرتين صدري عند موضع القلب تماماً .. واستطيع ان أتمثل ثقلها الدافئ في أحضاني .. انني أكاد أكون مع لوليتا كما تكون الأم مع ابنتها فأنا أعلم كل شيء عنها .. وفيما بعد تأكدت عملياً من صحة تقديراتي .

بعد ان انتهيت من مشترياتي تطلعت الى الدليل السياحي واخترت بلدة ريفية تبعد أربع ساعات بالسيارة عن نخم البنات وقررت ان تكون هذه البلدة المرحلة الأولى من جولتي مع لوليتا .. وقد أردت ان اتلفن الى الفندق الريفي هناك لاحجز غرفتين ثم خفت أن تفضحني انكليزيتي المكسرة فقررت ان أبرق إليهم .

يجب ان اشير الى امر مضحك وهو انني وجدت صعوبة فائقة في صياغة البرقية ! ماذا اكتب فيها : احجزوا غرفتين لهمبرت وابنته الصغيرة ؟ أم لهمبرغ وابنته اليافعة ؟ أم لهمبرغ وطفلته ؟ ..

ثم اخترت هبورغ ... ولم يأتني نوم بعد ذلك طيلة ليلي ،
وتساءلت اذا كان لي ان ابتلع قرصاً منوماً لأعالج أرقى الحقيقي
هذه المرة ؟ ثم عدلت عن هذه الفكرة مفضلاً ذلك الأرق
العذب .. الأرق الذي تتراوحه أحلام من اليقظة والذعر كانت
كل لحظة من لحظاته تعادل في مسراتها جيلاً من النوم ... أجل
كان يجب ان أسهد في عشية عرسى .. كما يفعل الناس .

- ٢٦ -

استطعت ان اختلس من سهادي ساعة نمت فيها مجهداً
وأفقت في الساعة السادسة صباحاً بعد حلم مزعج رأيت
فيه نفسي مع خنثى مكسوة الجسم بالشعر ..
ولما ارتديت ملابسى كانت الساعة قد بلغت السابعة صباحاً ،
فخطر لي بانه ربما كان من الأفضل ان اصل قبل الموعد ، ذلك
انني إذا كنت قد قلت لمديرة الخيم بانني قادم لأخذ لوليتا بعد
الظهر ، فإن ذلك يعود الى ان أهوائي ووساوسي قد أصرت على
ان يفصل بيني وبينها نهار يكون بمثابة دواء لفروغ صبرى ..
على انني بدأت أتصور إمكان حدوث الكثير مما لا يستحب
إذا أطلت غيابي فلقد تتلفن الى أحد مـا في رامسديل وتقهم
الحقيقة .. على انني لما حاولت ان امضي فوجئت ببطارية
سيارتي فارغة ، وهكذا لم استطع مغادرة باركينغتون إلا عند
الظهر فوصلت الى الخيم حوالي الثانية والنصف بعد الظهر ،

وأوقفت سيارتي تحت ظلال اشجار الصنوبر وسألت عن مكتب
المخيم فدلني عليه يافع كان يلعب لوحده في وحدة ثامنة ..
وواجهت المديرية وهي امرأة ذات شعر اشعس ونظرات قاسية
اخذت تتفحصني بها تفحصاً شديداً الوطأة ، ثم ابلغتني بان
لوليتا قد حزمت امتعتها وانها مستعدة للرحيل ، وانها تعرف
ان امها مريضة ، ولكنها تعلم كذلك ان حالتها ليست خطيرة ،
وسألتني اذا كنت مهتماً بمقابلة المشرفات على المخيم أو تفقد غرف
نوم البنات ؟

ثم ما لبثت الشمطاء ان جلست الى منضدتها وسحبت درجاً
وتناولت قطعاً نقدية صبتها في يدي المرتجفة .. انها ما تبقى من
مصرف لوليتا .. وناولتني شهادة للوليتا منها مع تقرير عن
سلوكها في شهر تموز (يوليو) وفيه تشير الى اقبالها على السباحة
والتجذيف .

كنت ادير ظهري لباب المكتب المفتوح ، عندما شعرت
بالدماء تتدفق الى رأسي .. لقد سمعت انفاس لوليتا وسمعت صوتها
قادماً من ورائي وقد جاءت تجر حقيبتها الثقيلة .. وصاحت :
— هاي ..

ووقفت جامدة تتطلع إلي بعينين بارقتين فرحتين ، بينما
افترت شفتاها عن ابتسامة تراوضا مسحاً من البله ، ولكنها
مع ذلك كانت ابتسامة ساحرة مغرية ..
رأيتها انحف واطول وللوهلة الأولى بدا لي وجهها اقل جمالاً
من الوجه الذي رسمته في ذهني لها وظللت أحنو عليه في

تصوراتي طيلة الشهر الماضي .

فقد بدت وجنتها غائرتين كما بدا ان النمش قد تزايد على
قسمات وجهها ..

فكان الانطباع الأول الذي خامرني هو ان كل ما يترتب
علي ان أفعله بصفتي زوج أمها الأرمل هو ان اعطى هذه الصبية
الشقية التي لوحتها الشمس مظهر فتاة وديعة وان أوفر لها
تعليماً جيداً وبيتاً جميلاً ورفيقات من سنّها قد استطيع ان اجد
بينهن حورية مسعورة أقضي منها وطري ..

ولكن بلمحة عين تبدلت الصورة وانمحي كما يقول الألمان
الخط الملائكي لنواياي (فالزمن يسبق غالباً خيالاتنا) واستعدت
فريستي وعادت من جديد لوليتا خيالي .. وسرعان ما طوقت
عنقها بيد ، واخذت باليد الثانية حقيبتها .. كانت لوليتا كلها
مشتهيات .. كانت تمثالاً من ماء الورد والعسل .. وكانت
ترتدي ثوباً شفافاً يكشف عن محاسنها وخطوط جسدها الأنيقة
وعن ساقها المخدشتين .

وداعاً ايها المخيم المرح .. وداعاً ايها المخيم السيء الطعام ..
وداعاً ايها البواب .. بهذا كانت تنطق حركات يديها وهي
تلوح لرفيقاتها وللمخيم وهي تستقر في جلستها بجانبني ..
وما لبثت ان اهوت بكفها على ذبابة استقرت على ركبته
بينما كانت تعلقك بحمية قطعة من العلكة ملأت فمها .. وبعد ان
انطلقت بنا السيارة عبر الغابة قالت كمن تؤذي واجباً :
- وكيف حال أُمي ؟

فقلت لها ان الطبيب لم يعرف بعد حقيقة علتها وان كانت تتعلق بمرض باطني ، ولذا تقرر وضعها وقتاً ما في المستشفى للمراقبة . ولما قلت لها ان المستشفى هو في لينغفيل ، قالت انها تظن ان الأمر سيكون رائئاً إذا وصلنا إلى لينغفيل قبل التاسعة ليلاً .

فأجبته باننا يجب ان نكون وقت العشاء في برايسلاند على ان نזור لينغفيل غداً .. ثم سألتها عن أحوالها في المخيم وعمّا إذا كانت قد قضت وقتاً طيباً ؟

- أو اه .. كان رائئاً ..

- هل أنت آسفة لتركك المخيم ؟

ولما غفمت غفمة غير مفهومة قلت لها ألا تغفم وان تجيبني بكلام واضح .. قولي شيئاً ما .

- أي شيء يا بابا .. (مطت كثيراً بكلمة بابابلهجة تهكية)

- أي شيء قديم ..

- حسناً ما قولك إذا دعوتك باسم « الشيء القديم العتيق » ؟

- إخرسي ..

- انني أمزح .. قل متى وقعت في غرام أمي ؟

- ذات يوم ستفهمين يا لوليتا الكثير من العواطف والحالات ..

مثل الانسجام وجمال العلاقات الروحية .

- طظ ..

وخيمت فترة من الصمت البليد على هذه المحاوره قطعتها

بقولي :

— أنظري الى البقرات على سفح التل ..
— أظن انني سأتقيء إذا رأيت بقرة مرة أخرى ..
— أتعلمين انني اشتقت إليك أشد الاشتياق يا لولو ..
— أما انا فما اشتقت إليك .. لم اكن امينة لعهديك ، ولكن
هذا لا يهم ذلك انك لم تعد تهتم بي على كل حال .. أو اه يا حضرة ..
انك تسوق أسرع من أمي ..

فخففت سرعة السيارة من السبعين الى الخمسين وقلت :
— ولماذا تظنين بانني لم أعتد اهتم بأمرك ؟ .

— حسناً .. مثلاً انك لم تقبلني حتى الآن .. قل لي هل قبلتني؟
سألتني ذلك وأنا أتحرق في باطني الى ذلك ، وأكاد أموت
شوقاً الى ضمة منها ورأيت أمامي طريقاً فسيحاً فملت بالسيارة
الى جانب الطريق .. وما كادت السيارة تقف حتى كانت لوليتا
قد طارت الى ما بين ذراعي ..

على انني اكتفيت بأن أمس مساً رقيقاً وبأقصى الورع شفتيها
المنفرجتين الدافئتين ، ذلك انني لم أجراً على ان اطلق لنفسي
العنان ولم أجراً على أن أدع نفسي تدرك من ان هذه هي بداية
الحياة الرائعة التي انفتحت لي أبوابها بمساعدة من القدر .

كانت قبلي لها بريئة خالية من كل شهوانية ؟ ولكن لوليتا
دفعت نفسها بفروغ صبر وأطبقت بفمها على فمي بقوة وأحسست
بوطاة أسنانها الامامية وتذوقت رضاها الممتزج بطعم نغناع
العلكة .

كنت أعرف بأن هذه القبلة بالنسبة اليها لم تكن سوى لعبة

بريئة وسوى تقليد لما علق بذهنها من مراسم الغراميات العامة ،
وكالعادة فإن حدود مثل هذه اللعبة هي حدود مائة وهي من
« الولدنة » بحيث لا يستطيع الشريك الكبير الناضج ان يبقى
فيها ضمن حدود البراءة .. ولهذا فقد خشيت كثيراً من ان
اذهب في « اللعبة » الى أبعد مما يجب وخشيت ان اتسبب في
اخافتها وقرفها .. ثم فوق كل شيء كنت حريصاً على ان أهربها
بعيداً عن متناول الصيادين السحرة .. فأمامنا ثمانون ميلاً يجب
أن نقطعها لنصل الى الفندق المبارك .. وفي لحظة إلهام مباركة
قطعنا عناقنا وبعد لحظة عين وصلت دورية شرطة في سيارة عبرت
بقربنا وتوقفت وسألني سائقها بعينه البلديتين :

— هل رأيت سيارة زرقاء من نفس طراز سيارتك تمر بمفرق
الطريق ؟ .

— كلا .. لماذا ؟ .

وقالت له لوليتا باهتمام وفضول وهي تنحني نحوه فوق وتضع
يدها على ساقى .

— كلاً لم نر سيارة زرقاء .. قل لي هل انت متأكد من انها
زرقاء .. ذلك لأننا ..

ولكن الشرطي اغدق عليها ابتساماً ساخرة ومضى
بسيارته وانطلقنا ورائه فقالت لوليتا :

— الحمار كان يجب ان يحرر لك مخالفة .

— ولماذا بحق السماء ..

— لأنك تتجاوز السرعة القصوى في هذه الولاية انك تسير

بسرعة ثمانين أي زيادة ثلاثين .. كلا لا تبطئ ايها الجبابرة . ألم ترى انه قد ذهب .

- لا يزال طريقنا طويلاً وأريد ان أصل قبل حلول الظلام ..
فكوني عاقلة .. هيه ..

- كلا انني رديئة فاجرة .. مراهة منحرفة ، ولكنني صريحة ..
ومضينا صامتتين عبر البراري الصامته الى ان قطعت لوليتا الصمت :

- قل لي ألن يحزن جنون أمي ، إذا علمت اننا عاشقان ؟

- بحق الإله يا لوليتا لا تتحدثي هكذا ..

- ولكننا عاشقان متحابان أليس كذلك ؟

- لا أعلم شيئاً عن ذلك .. أترين السماء ؟ اعتقد انها ستمطر ..

والآن ألن تحدثيني عن مغامراتك الصغيرة في الخيم ؟

- انك تتكلم كالأستاذ الرزين يا بابا .

- هيا انني أصر على ان أعرف ..

- هل تهتز أعصابك بسهولة ؟

- كلا .. حدثيني .

- دعنا ندخل الى مكان منفرد وسأحدثك ..

- اسمعي يا لوليتا انني أسألك جاداً لا تهزلي ..

- حسناً .. لقد اشتركت . بجميع أوجه النشاط التي

عرضت لي ..

- وبعد ؟

- وبعد علموني كيف اعيش سعيدة مع الآخرين وكيف

أمني شخصية قوية .. كيف أكون شهية كالكمكة ..
تعلمت شعارات الكشافة القائلة انني يجب ان اجعل حياتي
بمجموعة من جلائل الأعمال وان اكون نافعة وان اصادق ذكور
الحيوانات .. وان اطيع الأوامر ..
ولكنني لا أزال قبيحة التصورات وسخة الأفكار .. ولا
أزال رديئة قولاً وفعلاً ..
- ان ذاكرتك طيبة . ولكن اسقطي من كلامك التعبير
الوسخة .. والآن أهذا كل شيء ؟ ..
- كلا .. لقد غسلنا ملايين وملايين الصحن ..
- هل كانت ذلك كل شيء ؟
- كل شيء باستثناء شيء واحد .. لا استطيع ان اخبرك
عنه دون ان احمر خجلاً ..
- هل ستخبريني به فيما بعد ؟
- اذا جلسنا في الظلمة وتركنتني اكلم همساً ، فأنتي
سأفعل .. قل لي هل تنام في غرفتك القديمة ، أم مع أمي في
فراشها ؟
- في الغرفة القديمة .. ان امك قد تضطر الى اجراء
عملية جراحية خطيرة .
- هل لك ان تتوقف عند حانوت بائع الحلوى ..
ولحسن الحظ فلقد التهمت ما طلبته من حلوى بنهمها الممهد ،
اذ كنت اتحرك الى الوصول بأسرع ما يكون الى برايستون . ولما
عدنا الى السيارة قبلتها على عنقها فقالت :

- لا تفعل ذلك.. لا تتغالب علي أيها القدر..
ومسحت مكان القبلة بطرف كتفها ، بينما قلت لها :
- متأسف .. فعلت ذلك لأنني هائم بك ليس إلا ..
- وأنا كذلك هائمة ..

قالت ذلك بصوت يترقرق بالحنو وينم عن تأوه ، ثم ازدادت اقتراباً مني .. ومضيت بالسيارة فوصلت برايستون وقد لفها الفسق وكانت الريح دافئة على الرغم مما كان يتخللها من زخات المطر .. ومررنا بدار للسينما ازدحم الجمهور أمام شباك تذكريها فقالت لوليتا :

- أوه انني أريد ان ارى هذا الفيلم .. فلنذهب الى السينما بعد العشاء ..

فقلت لها بأننا قد نذهب ، هذا مع اني أعلم تماماً بأنها ستكون في الساعة التاسعة غارقة في نوم عميق بين ذراعي .
وأخذت ألف وأدور بحثاً عن « فندق الصيادين المسحورين » وقد تعبت من القيادة ، بينما كانت معدة لوليتا تتلهف الى وجبة العشاء .. وعندما أتذكر عنائي في البحث عن الفندق فإنني أضحك لتصرفي الصبياني ، فقد كانت هناك على طول الطريق عشرات الفنادق التي تعلن بأضواء النيون عن الغرف الفارغة لديها .. الغرف الجاهزة لإيواء الباعة المتجولين والمساجين الهاربين والأزواج العنينين والأزواج الذين يربط بهم وثاق الفحش ..
وأخيراً وجدنا الفندق بمعجزة من معجزات الصدف وحمل حقائبنا حمال أحذب يعاونه صبي الفندق الزنجي وألقت لوليتا

بنفسها على الطنفسة المزدهرة بالالوان ، وأخذت تداعب كلباً صغيراً ذا أذنين سوداوين ، فكان يسترخي تحت يديها - ومن ذا الذي لا يسترخي ، يا قلبي . ولما شققت طريقي الى مكتب الفندق قال لي الكاتب الأصلع العجوز وهو يصليني بشكوك خفية ويتطلع الى الساعة :

- آسف لقد حجزنا لك غرفة بسريرين حتى السادسة والنصف ، فلما لم تأتِ أجبرناها .. فهناك مؤتمر ديني في المدينة .. وأجبتة ان الأمر لا يهم اذا كان يستطيع اعطاءنا أية غرفة فان ابنتي البالغة من العمر عشر سنوات مجعدة للغاية .. وتطلع العجوز الى لوليتا التي كانت تستمع بشفتين منفرجتين الى ما كانت تقوله لها سيدة عجوز تحيط رأسها بشال بنفسي . ولا بد ان منظر لوليتا البريء ، قد أزال كل ما كان لدى العجوز من ريبة ، فقال انه سيعطينا غرفة سرير مزدوج .. ولما سألت اذا كان لا يمكن تدبير أريكة تنام عليها ابنتي حاججني الكاتب بأن فراشهم المزدوج يسع أكثر من ثلاثة اشخاص وان ثلاث سيدات وطفلة ثمن ذات مرة في هذا السرير بالذات .. ومع ذلك فهناك أريكة سندبرها .. فقلت له : سندبر أمرنا بشكل ما .. ولقد تلحق بنا زوجتي .. ولكننا مع ذلك سندبر أمرنا ..

وسجلت بيد المحرم الهادئة المظلمة :

« الدكتور إدغار هبرت وابنته من سكان رامسديل »
وصعدنا نحو غرفتنا مجتازين الدهليز المعتم الذي يخيم عليه صمت

الموت .. ورأينا الغرفة تضم سريراً مزدوجاً ومرآة وخزانة
بمراة وكريسين وطاولة .. وشعرت بدافع يحثني على أن أضع
خمس دولارات في يد غلام الفندق ، ولكنني خشيت أن يثير
الشكوك فأعطيته ربع دولار وأشفعته بربع آخر فانسحب
وبقينا لوحدهنا .. بينما هتفت لوليتا :

– هل سننام في غرفة واحدة ؟

لم تقل ذلك باستياء أو استنكار ، إنما قالته بعنف ديناميكي
كعادتها في كل سؤال ..

– طلبت إليهم أن يصنعوا أريكة سأنام عليها إذا أردت .

– انك أحق ..

– ولماذا يا عزيزتي ؟

– لأن أمي يا عزيزي ستطلقك وستخفني ، عندما تكتشف

الأمر .

كانت لوليتا في كلامها مجرد فتاة ديناميكية ، ولم تكن جادة
وقد وقفت على بعد خمسة أقدام من حيث جلست وأخذت تتأمل
نفسها في المراة غير مدهوشة من منظرها المشعث فقلت لها :

– اسمعي يا لوليتا دعينا نتفق على الأمر الآن والى الأبد ..

انني أبوك ويجب ان اكون هكذا في نظر الناس لألف سبب
وسبب .. والواقع انني أشعر حيالك بحنان عظيم ، وسأكون
مسؤولاً عن أحوالك في غياب أمك .. أنالسنا بأغنياء وبنضطر
الى ان ناوي غالباً الى غرفة واحدة ..

ومعلومك ان شخصين يتشاطران غرفة واحدة وينتهي بهما

الأمر حتماً الى .. نوع ..

- نوع من المضاجعة غير المشروعة .. الفسق ..

قالت لوليتا ذلك وهي تغنج متأيلة ، ثم توجهت الى الحمام ،
بينما غيرت قميصي المعروق وتفحصت أنبوبة حبوب النوم في
جيب سترتي .. وأقفلت باب الغرفة ..

ولما خرجت لوليتا من الحمام حاولت ان اعانقها بشكل
عرضي ، وفي حنان مكبوت قالت لي :

- اسمع .. اتركنا من لعبة المعانقة هذه .. ودعنا نتعشى بدلاً
من ذلك ..

اتجهت لوليتا نحو حقيبتها وأخرجت ثوباً جديداً ونضت
ثوب السفر فبدت ركبتها الجميلتان وارقدت الثوب الجديد
بأناقة مفرجة ، ثم تسلفت الى ذراعي المفتوحين بانتظارها وهي
تشع نضارة وأخذت تتفحصني بنظرات حانية غامضة من عينيها
البراقتين اللتين لا تمان عن طهارة .. كأرخص الداعرات في
العالم .. ذلك هو مظهر الحوريات المسعورات بالشبق الجنسي
اللواتي نحتضر من أجلهن ونموت شوقاً إليهن .

وقلت لها وأنا أمس وشفثاي بين شعرها :

- ما الضرر في التقبيل وما اعتراضك على القبلات ؟

- إذا كان لا بد ان تعرف فان طريقتك في التقبيل خاطئة ..

- هيا أريني الطريقة الصائبة حالاً ..

- كلا .. في الوقت المناسب ..

وضبطت بصعوبة أعصابي فقد كدت اندفع الى تجربة فجأة

وقبل الأوان .. ولحسن الحظ انفلتت من بين ذراعي عائدة الى حقيبتي ثيابها فقد كنت أوشك على ان ارتكب خطيئة قاتلة .. توجهت الى الحمام وأمضيت وقتاً طويلاً حتى استعيدت رباطة جأشي ومظهري الطبيعي .. ثم خرجنا وأنا أسير أمامها (لم أدعها تسير أمامي فهي أبنتي وليست سيده) ونزلنا الى قاعة الطعام وهي تتشاءب. كان ثمة بضع سيدات عجائز متناثرات هنا وهناك ، ورجلا دين ورجل في سترة رياضية ، ينهون طعامهم في صمت. والتفتت اليّ لوليتا وقالت بصوت منخفض : « ألا ترى أنه يشبه تماماً « كيلتي » . وكانت تشير على الرجل ذي السترة الغامقة الذي كان يتناول عشاءه وحيداً في الركن المقابل من القاعة .

- تقصدين طبيب الأسنان الضخم في رامسدال ؟
وأجابت وهي تنثر رذاذ لعابها من شدة الفرح: كلا ! وانما أقصد الكاتب الذي يُرى على اعلانات « الدروم » .
وبعد ان تناولنا الطعام وانتهينا من الحلوى أخرجت الأقراص المنومة القرمزية اللون ، ولما سألتني عنها قلت لها انها أقراص فيتامين تجعل الانسان قوياً كالثور شديد البأس كالفأس ، وتطلعت حولي فلما لم أجد من يراقبني وضعت قرصاً في راحتي يدي وتظاهرت بأنني ابتلعه .. فمدت لوليتا يدها وتناولت واحداً وبلعته .. وكان مفعول القرص سريعاً فتبخرت فكرة الذهاب إلى السينما من مخيلتها ونسيتها ونحن نغادر غرفة الطعام وهي تتشاءب، ولما كنا في المصعد ألقت رأسها على كتفي فقد كاد

يقتلها النعس ، بل انني كدت اضطر الى ان احملها حملاً الى
الغرفة .. وعندما وضعتها على حافة الفراش قالت لي بصوتها
الناعس :

- إذا اخبرتك .. إذا اخبرتك هل تعديني بأنك لن تغضب
وتحتج ؟ ..

- فيما بعد اخبريني .. سأتركك الآن وحدك فنامي
وسأعود بعد عشر دقائق ..

- أوه لقد كنت فتاة مقرفة .. دعني أخبرك ..

- غداً يا لوليتا غداً .. اذهبي الى الفراش ..

قلت هذا ووضعت مفتاح الغرفة في جيبي وخرجت ..

- ٢٧ -

حضرات المحلفين .. سيدات المحكمة الجليلات ! صبراً
عليّ .. إذا أخذت قسطاً من وقتكم الثمين ..

هكذا اذن حلت اللحظة العظمى .. لقد تركت لوليتا لا تزال
جالسة على طرف السرير وهي ترفع في الهواء ساقاً فتكشف حتى
عن طرف سروالها المشدود .. كماداتها فهي دائماً مستهترّة
لا تستحي من كشف عري ساقها ..

هذه هي الصورة التي اختزنتها في ذاكرتي وانا أخرج من
الغرفة بعد ان تأكدت من ان بابها لا يحوي مزلاجاً داخلياً بجانب
القفل .. وأخذت أدغدغ المفتاح وأشعر بأنه يمدني برعشة جنسية ،

أخذت أضغط عليه حتى تحول الى جزء من راحة يدي.. لقد أصبحت لوليتا لي كلها وبعد عشرين أو ثلاثين دقيقة سأعود الى الغرفة ٣٤٢ لأجد حوريتي.. لاجد عروستي أسيرة لنومها العميق الصافي ..

حضرات المحلفين لو استطاعت سعادتي ان تنطق لكانت قد ملأت ذلك الفندق الوديع الهاديء بهدير مصم .. على اني لست أأسف على شيء اسفي ، لأنني تلك الليلة لم أضع ذلك المفتاح في مكتب الفندق لأغادر مدينة برايستون بل الولايات المتحدة بل القارة الأمريكية بل الكرة الأرضية ..

دعوني أوضح لكم بأن تلميحاتها الى ما ارتكبته من فحشاء في الخيم لم تقلقني .. ولم تحل بتوازني إيماءاتها لي بأنني استطيع ان أفعل ما أشاء .. ذلك انني كنت قد صمت على ان لا أدنس عملياً بكارتها ، بل ان اكتفي بأن ألامس خلسة في ظلمة الليل جسدها العاري المخدر .. أجل لن أضاجعها مطابقة كاملة ، حتى ولو ان بكارتها كانت قد زالت بعمل صبياني في نخم البنات ، حيث السحاق بين المراهقات أمر شائع .

كان طبيعياً وأنا ابن العالم القديم ان اعتبرها ، عندما قابلتها أول مرة بأنها « طفلة تمس » وصافية كصفاء مفهوم « الطفلة العادية » .. هذا المفهوم الذي بدأ يضيي البراءة على الطفلة منذ نهاية عالم ما قبل المسيح .. فنحن غير محاطين في عصرنا الحضاري المتنور بالجاريات اللواتي هن في عمر الزهور ، واللواتي يمكننا قطفهن كيفما اتفق قبل الحمام أو بعده ؛ وعند الذهاب

الى العمل أو العودة منه ، كما كانوا يفعلون أيام زمان ، كما اننا
لسنا نقنع ، كما كان يفعل الشرقيون بالخدمات الدافئة التي
تقدمها محظيات صغيرات السن بين وجبة الطعام ووجبة الشراب ..
فالأمر الواضح هو ان الصلة القديمة بين عالم البالغين وعالم
الطفولة قد انصرفت تماماً في أيامنا هذه بأعراف وقوانين جديدة .
ومع انني تعمقت في علم النفس والشؤون الاجتماعية ، فإنني
لا أعرف إلا القليل عن الأطفال ... وبعد فقد كانت لوليتا ،
عندما قابلتها في الثانية عشرة من عمرها فكان انطباعي حريصاً
بأن يعطيني فكرة انها مراهقة طاهرة بريئة ، ولو لم يغيب عن
ذهني ان طلاب المدارس الأمريكية يتصرفون تصرفاً فجأ ..
وكان يتنازعني عاملان عندما رأيتهما : عامل فكرة مايجب
أن تكون عليه طفلة في الربيع الثاني عشر من عمرها ، وعامل
الانسان الشهواني الذي يراها بخياله وقد بلغت المرحلة الأخيرة
من طفولتها ، وأصبح يستطيع ان يقطف منها بعض بواكير
اللذائذ .. ولكن كان يجب عليّ ان افهم منذ الوهلة الاولى ،
ان لوليتا هي شيء يختلف تماماً عن آنا بيل البريئة ، وان الشر
الجنسي المسعور يتراوح مع أنفاس هذه الطفلة المشبوقة المسعورة
التي قررت ان أعدها لتلذذي الخفي ، كأن اجعل السر وهياً
والتلذذ ميمتاً .

ثم كان يجب ان اعلم بأن هذا الطرب المتوقع ، لن يتمخض
إلا عن الألم والشدائد المرعبة ..
على انني طرحته هذه الأفكار جانباً .. فهيا هي لوليتا قد

أصبحت ملك يميني . لي وحدي .. وها هو مفتاح الغرفة
أعصره في قبضتي وأنا أتصور كيف سأعريها في نومها العميق ..
سأتركها مرتدية فردة جورب وأقلبها عارية تماماً إلا من
أسورتها .. وافرشها على السرير وامرغ وجهي على جسدها
العسلي اللون .. الذي لوحت الشمس كل ما فيه عدا نديها
الشاحبين .. وكان ظل من الزغب يلتمع ، تحت ضوء مصباح
السرير الوردي ، على رابيتها الناتئة .. وكان المفتاح البارد ،
مع خشبته الفاترة ، في يدي .

بانتظار النصف ساعة اخذت أتجول في ردهات الفندق
مبتهج الجسم مظلم الروح ، متحاشياً الاحتكاك بالنزلاء . وفي
احدى الصالونات لمحت عدداً من الناس معهم مراة في سن
لوليتا إلا ان بشرتها اكثر بياضاً .. كانت شهية مثل لوليتا
فأخذت أرمقها بنظرات حادة مستورة ، ولكنها لاحظت
نظراتي فرفعت يدها تتحسس وجنتها التي تسارعت إليها
الدماء .. بينما أسدلت باليد الأخرى طرف تنورتها على ركبتيها ،
ثم أدارت كتفها إلي ، وفتحت حديثاً مع أمها التي تشبه
البقرة ..

خرجت من الردهة الى الدهليز المعتم وأنا اتأمل الفراشات
التي تحوم حول المصابيح وفجأة احسست بأن هناك شخصاً قربي
يجلس على كرسي في الدهليز وعندما هممت بالابتعاد سمعته
يسألني :

— بحق الشيطان من أين حصلت عليها ؟

- عفواً ؟
- قلت ان الطقس قد تحسن
- يبدو كذلك
- من هي كتكوتتك ؟
- انها ابنتي ..
- كذاب .. انها ليست ابنتك ..
- عفواً ؟ ماذا قلت ..
- قلت ان تموز (يوليو) كان شهراً قائظاً .. أين أمها ؟
- ماتت ..
- آسف .. قل لي هل لكما ان تتناولوا الغداء معي غداً
- حيث سيكون الازدحام قد خف ..
- نحن كذلك سنذهب غداً .. طابت ليلتك ..
- آسف لازعاجك .. لقد افرطت في الشراب فسكرت ..
- ليلة سعيدة .. ان ابنتك تحتاج الى نوم طويل .. والنوم هو
- الذي يزين الشباب بورود الحسن ، كما يقول المثل الفارسي ..
- غادرت المكان مسرعاً وقد بدأت اعصابي تتوتر وأحسست
- بحاجة الى الشراب ولكنني فضلت ان اتوجه الى غرفتي
- واخترت صعود الدرج فقد كان قوم كثيرون ينتظرون المصعد ..
- وربما كان بينهم فضولي آخر ..
- كان نور الحمام يتسرب من الباب المشقوق وكان ضوء
- مصابيح الشرفة يتسلل بين ألواح الستائر ، وكانت هذه

الشعاعات المتشابكة تعيث في ظلام الغرفة فتكشف لي اللوحة التالية :

كانت حبيبتى لوليتا في ثوب النوم وقد توسطت السرير وأدارت لي ظهرها وكان جسدها المستور بالثوب الرقيق ملتوياً على بعضه ؛ بينما كانت ساقاها مكشوفتين وكانت قد وضعت الوسادتين تحت رأسها فتسلل النور الشاحب الى نقرتها ..

ويبدو انني خلعت ثيابي ولبست منامتي بتلك السرعة العجيبة التي تتسم بها المشاهد الماثلة في الأفلام ، حيث لا تسمح الرقابة بعرض تسلسل تغيير الثياب .. ولكنني ما كدت أضع ركبتي على طرف الفراش حتى أدارت لوليتا رأسها نحوي وتطلعت طويلاً إلى عبر الظلمات المعزقة .. كان هذا شيئاً لم اتوقعه .. فقد كان المفروض ان يجعلها القرص الذي بلغته تنام نوماً عميقاً لا يزعجه مرور فرقة عسكرية عبر الغرفة .. ولكن هاهي تحدق بي وها انا اسمعها تناديني بصوت أجش : « برباره » .. كانت تتكلم في نومها وهي بين اليقظة والنم ، فجمدت في مكاني أرقبها ، فما لبثت ان اصدرت آهنة وعادت الى وضعها السابق .. ومكثت انتظر دقيقتين في حالة مريعة من التخوف فلقد شعرت بأنني على حافة الهاوية .. ثم عاد تنفسها منتظماً يوحي بأنه تنفس شخص نائم .. واخيراً استلقيت على ما بقي لي من حافة الفراش ووضعت طرف الغطاء على قدمي الباردتين فرفعت لوليتا رأسها من جديد وحدقت في وجهي .

لقد علمت فيما بعد من صيدلي صديق بأن القرص القرمزي
الذي اعطيته اياها لا ينتمي الى فصيلة الأقراص المنومة النبيلة
وانه خفيف المفعول او معدومه بالنسبة لشخص عادي ، وان
كان يستطيع ان يوحى بالنوم لشخص مأروق يتناوله ..
ولست أدري إذا كانت طبيب رامسديل الذي اعطاني
الأقراص دجالاً أم رجلاً داهية .. بل لا يهم اذا كان جاهلاً
أم مكاراً فالهمم انني خدعت ...

وعندما فتحت لوليتا عينيها من جديد ادركت بأن
الاطمئنان الذي اعتمدت عليه هو اطمئنان كاذب ، سواء فعل
القرص المنوم مفعوله فيما بعد او لم يفعل ..

عادت لوليتا فأدارت رأسها ببطء عني ودفنت وجهها في
الوسادة ، بينما ظللت لا أتحرك على الحافة متطلعاً الى جدائلها
والى الاطراف العارية من جسدها محاولاً ان استقصي مدى عمق
نومها . ومرت بعض الوقت ولم يتغير من الوضع شيء فقررت بأنني
استطيع ان اخاطر بالاقتراب قليلاً من وهيج جسدها الجميل
المثير . ولكنني ما كدت انتقل الى ملكوته الدافئ ، حتى
توقف صوت تنفسها وحل بي شعور مرعب أوحى لي بأن لوليتا
قد استيقظت تماماً ، وانها ستنفجر في صراخ استنجد اذا
مستتها بأي جزء من جسدي الدنس .

ارجوك ايها القارئ مهما كانت رأيك في شخص حساس
مثلي ، ومهما كنت تأنف وتضجر من رعديده مثلي .. أرجوك
ان تتصورني وانا أحاول ان اميز بين جرأتي وبين هلمي المرتجف

في غابات قلقي ومجاهل فزعي ..

كان وضعي حرجاً وغير مريح ، فلم يكن هناك موضع لرأسي .. ومع انها رحمت أعصابي فعادت تغط في نومها العميق ، فإنني ظلت لا أجرؤ على ان امضي في رحلتي المسحورة الى مكانها الخلابه .. وقررت ان أحشيها غداً بتلك الأقراص الأولى التي كانت تحول أمها الى دمية من لحم ودم ، ولكنها فاقدة الحس .. وقررت ان انتظر مؤقتاً دون الاتيان بحركة ، ذلك ان مقاربة المراهقات المسعورات فن تام له قواعده ويتطلب الصبر الجميل والحذر الشديد ..

وامضيت ليلتي مسهداً تتلقف أذناي كل صوت .. وليس هناك من مكان اكثر ضجيجاً من فندق أمريكي في الليل والنهار .. وبدأت خيوط الصباح تتسلل من النافذة ، وانا في مكاني على مسافة شبر واحد من التي هي حياتي المحترقة .. واخيراً تقاربت منها اطرافي ، ولكن ازيز رفاصات السرير لم يوقظها هذه المرة .. واستطعت ان اقرب منها بكتلتي حتى شعرت بوهج كتفيها العاريتين يكاد يسلق عنقي .. وفجأة نهضت جالسة واخذت تتم بكلام سريع محموم شيئاً ما عن نزهة في قارب .. وعن بربرة وعن تشارلي .. ثم مالبت ان هوت عائدة الى نومها العميق .. وأثناء ذلك مدت يدها في حركة عفوية فأصابني في وجهي وأمسكت بذراعها لحظة وانا انهل دفء زندها ، ولكنها سرعان ما حررت يدها كذلك بحركة عفوية .. طبيعية تصدر عن النائم اللاواعي ، دونما عنف او قرف . وعاد الوضع

كما كان : همبرت يتوسد ذراعه على حافة السرير ولوليتا متكورة في نومها تدبر ظهرها إليه ، بينما هو يغلي شبقاً وحنيناً ويتحرق صبوة .

واضطرنني ذلك الى ان الجأ الى الحمام ، فليس مثل الماء البارد من دواء في مثل هذه الظروف ، ولما عدت وجدتني قد نهضت من نومها وطلبت مني قدحاً من الماء بصوت مطمئن .. ومبدت يدها وتناولت الكأس الورقية ونهلت الماء البارد واهداها الطويلة المنسدلة تكاد تمس حافة الكأس .. ثم اقتربت مني بحركة صبيانية ومسحت شفتيها على كتفي مسحة فيها من السحرا كثر من أية مداعبة مقصودة شهوانية .. ثم انكفأت الى وسادتها وعادت الى نومها في الحال .

لم اجرؤ على ان اقدم لها مع الماء قرصاً منوماً آخر .. إذ لم أكن قد تخلّيت تماماً عن الأمل في ان القرص الاول سيفعل مفعوله ويسجنها بين ذراعي إله النوم ، وهكذا بدأت أزحف نحوها مستعداً لأية خيبة ، إذ لم أعد أطيع صبراً مع انني كنت أعلم بأن من الأفضل ان أترث . أخذت أزحف نحوها ببطء متوقفاً أو متراجهاً ، حيثما خيل إلي بأنها على وشك ان تهتز .. وشعرت بنسمة من آفاق مسحورة تؤثر في أفكاري .. آفاق جزيرتي الخيالية التي تسكنها حوريات مراهقات مسعورات بالشبق .. وأخذ جسمي المرهق يدخل بين الفترة والأخرى ملكوت النوم ، بل انني ضبطت نفسي أكثر من مرة وانا أكاد أشخر .. وشعرت بضباب الختان يلف في نفسي جبال الحنين وتلال التوقد ، وأخذ

يخيل إلي بين الفترة والأخرى ان الفريسة الساحرة ستلاقي في منتصف الطريق الصياد المسحور .. ثم يخيل لي انها ستبتعد عني الى الأبد إذ ستلامسني فجأة بوركيها .

اذا كنت أميل الى ان اصف بالتفصيل احداث هذه الليلة السحيقة من عمري فاني افعل ذلك عمداً من أجل ان أقيم الدليل على انني لست وما كنت ولم أكن قطعاً محتالاً فقط أو مجرماً عتياً .. فما كانت آفاق احلامي ورغباتي خاضعة للفكر الاجرامي ، انما كانت ذروة شعرية .. وكان هدفي نشوة رفيعة عن طريق ملامسات رقيقة ما كان لها ان تشعر بحرارتها ، حتى ولم تكن مستيقظة تماماً .. وهكذا ظلت أرجو ان تنزلق تدريجاً الى نوم عميق يسمح لي بأن أتذوق شيئاً اكثر من وهج جسمها المتقد ..

وفي هذه الغمرة دقت الساعة معلنة الخامسة وعاد الفندق يضحج بالأصوات ، وبدأ المصعد يرسل أزيزه باستمرار .. وخيل إلي ان أجيالاً ستمضي قبل ان تستيقظ لوليتا وتشاهدني نائماً يحوارها ، ولكن ما كادت تدق الساعة السادسة ، حتى كانت قد استيقظت تماماً .. وما كاد الوقت يصبح السادسة والربع حتى كنا فنياً عاشقين ..

انني أوجه كلامي الآن الى العضوات في هيئة المحلفين التي ستقرر مصيري .. وأقول لهؤلاء النسوة اللواتي لا بد انهن مصابات بالبرود الجنسي ، بأنني سأكشف عن أمر غريب :
في هذه الربع ساعة لم أكن انا الذي أغويت لوليتا ؛ إنما هي

التي اغوتني .. انقلب الصياد الى فريسة ، وهذه هي القصة :
عندما سمعتها تتشاءب مستيقظة تظاهرت بالاستغراق بالنوم
إذ لم اكن أعرف ما يجب ان افعل واخذت أتساءل إذا كانت
ستدعّر لرؤيتي ممدداً بجانبها وفي ذات السرير ؟ .. وتساءلت إذا
كانت ستجمع ثيابها وستلتجئ الى الحمام وتقف على نفسها الباب ،
وإذا كانت ستطالبني بإعادتها الى رامسدیل في الحال لنكون
بجانب سرير أمها ؟ .

ولكن حبيبتی لولیتا كانت ماجنة ذات روح رياضية .. فقد
شعرت بنظراتها مصوبة إليّ ، ولما ألفت تحية الصباح أدركت
من رنة صوتها ان عينيها تضحكان .. وما لبثت ان تدحرجت
نحوي فجاءت جدائلها فوق عيني وتظاهرت بالاستيقاظ .. وظللنا
ممددين يهدوء ثم أخذت أداعب شعرها برقة .. فالتقت شفاهنا
في قبلة رقيقة جنونة .. ووجدت في طريقتها في التقبيل مسحة
انفعالية واسلوباً رفيعاً ، ولكنه مضحك بالنسبة لسنها مما جعلني
أتأكد من ان مراة سحاقية قد قاربته واعلمتها منذ الصغر
فنون التقبيل واعتصار الشفاه . فليس بوسع أي مراة ذكر
ان يعلمها ذلك .. وكأنها أرادت ان تختبرني لتعرف اذا كنت
وعيت دروسها في التقبيل فإنها تباعدت عني قليلاً وقد تضرجت
وجنتاها والتمعت شفاتها برضاها .. بينما كنت أشعر بان انحلالی
التام بات وشيكاً ..

وأطلقت لولیتا صيحة مفناجة هازجة هي من مميزات
الحوريات المسعورات ، وانحنى بفمها على أذني فظل ذهني لبرهة

طويلة عاجزاً عن ان يفسر بالكلام رعيد همسها الدافئ وما لبثت ان ضحككت ولملت الشعر الذي انسدل على وجهها ، ثم عادت مرة أخرى تهمس في أذني فضج رأسي بقصف غامض من همسها ؛ فما لبثت ان دخلت في عالم حالم جديد إذ فهمت ما الذي كانت تقترحه بهمسها ..

كانت تطلب مني ان « نلعب اللعبة » التي لعبتها مع تشارلي ابن مديرة الخيم .. الذكر الوحيد في نخيم البنات ، فلما أجبتها بأنني لا اعرف كنه هذه « اللعبة » أجابتنى وقد ارتسمت على وجهها معالم الاستنكار وعدم التصديق :

— أتعني انك لم « تلعب » أبداً تلك « اللعبة » .
وفي تلك الأثناء اخذت احوم بشفتي على كتفيها العاريتين فقالت لي وهي تنفلت عني بحدة : كفاية من فضلك .
وكانت لها طريقة غريبة ، احتفظت بها أشهراً طويلة ، بأن تنظر الى جميع الملامسات ، باستثناء قبلة الفم والجامعة المحض ، كأمر « غير طبيعية » أو رومانتيكية .. وأردفت بإصرار وفضول وهي تنحني من جديد فوقى :

— هل تعني انك لم تفعلها عندما كنت صبياً ؟
فلما أجبتها صادقاً بأنني لم افعلها .. قالت لي :
— حسناً .. من هنا نبدأ إذن .. إليك كيف يعمل هذا .

.
.
.
.

لن أثير ضجر قرائي المتمرسين برواية مفصلة عن ادعاءات لوليتا بأنها خبيرة في قضية الجنس إذ يكفي ان اذكر بأنني لم ألمح أثراً للتواضع في تلك المراهقة التي لم تكد تستكمل تكوينها ، فلقد حرمها التواضع واستكمال التكوين عوامل شتى منها عامل الدراسة المختلطة .. وعامل الانحرافات الخلقية لدى المراهقين وعامل الذئاب البالغين الذين يحومون حول مدارس البنات ومعسكراتهن ..

وجدت لوليتا تعتبر العمل الجنسي بمثابة جزء من عالم المراهقين الصغار الخفي المستور .. العالم الذي يحمله البالغون .. فما يفعله البالغون من أجل حفظ النوع لم يكن يعينها إطلاقاً .. ولهذا فقد قاربتني كأن الأمر بديهي وكما لو كانت حياتي الجنسية شيئاً مجرداً من التحسس ومنفصلاً عني .. ومع انها كانت متلهفة الى ان تثير إعجابي بسنن عالم المراهقين الأشداء ، فانها لم تكن متهيئة تماماً لبعض الفوارق بين حياتها كمراهقة وحياتي كرجل بالغ متقدم في العمر .

ولقد كان الكبرياء وحده هو الذي منعها من ان تتوقف عما مضت فيه ، ذلك انني في غمرة دهشتي تظاهرت بالهبل المطلق وتركتها تتصرف كما تشاء .. وبالطبع الى المدى الذي يستطيع تحمله .

ولكن هذه قضايا تافهة في الواقع فلست بالذي يهمه ما يدعى باسم « الجنس » ، ذلك ان باستطاعة كل انسان ان يتصور عناصر الحيوانية تلك في ذلك اللقاء الجنسي بيني وبينها .. ثم انني

شعرت بميل أعظم من ميلي إلى ارواء غلتي . لقد استهواني ميل جارف الى ان أتححرر في تلك اللحظة مرة أولى وأخيرة من سحر الحوريات المسعورات .. ذلك السحر الذي ينطوي على الأفكار المرعبة ..

- ٢٩ -

إنني أحاول ان أصف هذه الأشياء ليس من أجل ان أعيشها من جديد في هذا الشقاء الذي أحياء في زناتي .. انما أصفها من اجل ان افرز الجانب السماوي على الجانب الجهنمي من عالم الولع بالمراهقات المسعورات ..

انه حب تتماوج فيه الحيوانية مع الجمال الروحي .. وانه ولع تلتقي فيه الحيوانية مع قيم الجمال عند هامش الحياة احب ان أحدد موضوعه ، ولكنني افشل في ذلك فشلاً ذريعاً ..

لقد تبنت الكنيسة منطوق القانون الروماني القائل بأنه يمكن للفتاة ان تتزوج في الثانية عشرة من عمرها ، ولا يزال هذا القانون سارياً في بعض الولايات الأمريكية .. كما ان القانون في كل مكان يبيح للفتاة الزواج وهي في الخامسة عشرة . فالشرعون سواء في النصف الغربي أم في النصف الشرقي من الكرة الأرضية يقولون بأن لا ضرر من أن يعمد عتل زعيم في الأربعين من عمره ، باركه القسيس وربطه بعقد الزواج مع فتاة في الخامسة عشرة ، اجلي لا ضرر من أن يعمد هذا العتل إلى ان يقلب جانباً بقواعد الرقة

في المعاملة ليقدف بنفسه الى مفاتن عروسته الصغيرة ويقتحمها
اقتحاما ..

وقد وجدت في مكتبة السجن مجلة جاء فيها ان الطقس
المنشط في مدن كسانت لويس وشيكاغو يجعل النبات بالغات
ناضجات في عامهن الثاني عشر .

ان لوليتا قد ولدت على بعد يقل عن ٣٠٠ ميل من طقس
شيكاغو « المنشط » ، ولكنني لم افعل شيئا اكثر من انني اتبعت
معهما سنة الطبيعة .. لقد استجبت للطبيعة ، لانني كلب مخلص
من كلاب الطبيعة ..

ولكن لماذا كل هذا الهول الذي الصق بي والذي لا استطيع
ان ازيله عني ؟ .

هل انا الذي قطفت زهرة لوليتا ؟

انني اوجه كلامي الى العضوات الحساسات الرقيقات في هيئة
المحلفين فاقول :

كلا .. لم اكن انا الذي قطفت الزهرة .. بل لم اكن العاشق
الاول الذي ضاجع لوليتا .

- ٣٠ -

حدثني لوليتا عن الطريقة التي انتهكت بها ونحن نتناول في
الفراش طعام الأفطار .. حدثني وهي تزدد الموز وتلتهم
مربي الكثرى .. حدثني بكل شيء وبصراحة ..

- ١٤٦ -

بدأت قصتها المثيرة بذكر بربرة رفيقتها التي كانت تنام معها في خيمة واحدة في خيم الصيف السابق . وفي خيم آخر للبنات . ووصفت رفيقتها بأنها بنت عظيمة ونصف مجنونة !! وقد علمتها كثيراً من « العمليات » ..

كانت بربرة الصبية الشقراء الفارعة تكبرها بعامين ، وكانت أقدر سباحة في الخيم وكان عندها قارب سريع خاص بها ، فكانت تدعو لوليتا الى مشاركتها اياه ، لان لوليتا هي اقدر البنات على السباحة على ظهرها . فكانتا في كل صباح تحملان القارب الى بحيرة صغيرة عبر الغابة يعاونهما في ذلك الذكر الوحيد تشارلي هولمز ابن المديرية البالغ من العمر ١٣ عاماً . . في كل صباح كان المراهقون الثلاثة يختارون طريقاً جانبياً عبر الغابة البريئة وفي نقطة معينة كانت بربرة تحتلي مع تشارلي تحت دغلة بينما تقف لهما لوليتا خفية .

وفي بادئ الأمر رفضت لوليتا ان « تجرب كنه ذلك الشيء » ، ولكن فضولها مشفوعاً بنفوذ زميلتها تغلبا على برودها ، وما لبثت ان اصبحت تتناوب وبربرة الخلوة مع تشارلي الذي كان مراهقاً وسيماً لا يكل ولا يمل والذي كان يملك مجموعة ساحرة من الصور المثيرة ، ويحتفظ بمجموعة عجيبة من « الأكياس الواقية » كان يصطادها من بحيرة مجاورة اوفر سعة وأحفل بالناس .

ومع ان لوليتا اعتبرت الأمر « نوعاً من اللهو » كما اعتبرته « شيئاً مفيداً للبشرة » فإنه يسرني انها كانت تكنّ احتقاراً شديداً

لمسلك تشارلي ولذهنيته.. فما اثار هياجها وسعيها ذلك الشيطان
القدر .. بل اعتقد انه اشاع فيها البرود رغم ما كانت تحسه
من « متعة » .

كانت الساعة قد بلغت العاشرة ، عندما فرغت من قصتها ،
وعندما بدأ يضح في رأسي شعور موجه بالفضاعة يزيده وطأة
ما يتميز به ضوء النهار من كشف للنواحي الواقعية ..
كانت لوليتا تقف عارية . مرهقة الجسد امام المرأة وقد
ادارت لي قفاها الابيض البض وراحتاها على خاصرتيها ، ورجلاها
متباعدتان ، بينما كانت تتأمل نفسها في دهش مبتذل وتعبث
اناملها بخصلة طويلة كانت تتدلى على جبينها . وبدأنا نسمع
اصوات الخدم في الدهليز والغرف المجاورة ، بل ان احدهم جرب
ان يفتح باب الغرفة فدفعت بلوليتا الى الحمام لتأخذ دوشاً حاراً
كانت تحتاجه للغاية ، بينما اخذت انتص عن السرير ما تناثر من
فتاة الطعام واسوي من وضعه بحيث يدل على ان اباً وابنته
قضايا ليلتهما فيه ببراءة ، وبحيث لا يعطي احداً اية فكرة بانه
كان مسرح غرام ..

وارتدت لوليتا ثيابها بسرعة ، بينما وضعت في حقيبتها بعض
القطع النقدية وقلت لها ان تنتظرنني في صالون الفندق ، وان
تشتري لنفسها مجلة تتلمى بها الى ان اوافيها ، ولم انس ان احذرهما
برفق من ان تتجنب الحديث مع الأغراب .

ولما نزلت وجدتها تقرأ وقد لفت ساقاً على ساق فبان بعض
لحمها البض الذي كان يسترق النظر اليه رجل في مثل سني أظن

انه كان يشبه قليلاً أحد أقربائي السويسريين، العم « غوستاف »
الذي كان هو ايضاً هاوياً كبيراً من هواة الأكتشاف .. وكان
الرجل يتظاهر بقراءة إحدى الجرائد ..

لم يكن هناك ما يعادل في الصبائية والطفولة البريئة مظهرها
بأنفها السوي ووجها الوضئ ، وعنقها الذي تراوحه لطخات
حمراء (فقد كان عنقها مائدة لوليمة مسعورة) ، ثم بالعلكة التي
كانت تفرقها بين الحين والآخر بين اضراسها .

وتوجهت الى مكتب الفندق لأتم المسرحية وهكذا سألت
الكاتب اذا كانت زوجتي لم تتلفن فلم ارد بالنفي رجوته ان
يبلغها اذا تلفنت اننا ذهبنا الى مزرعة العمة كلارا .. ودفعت
الحساب وجرت لوليتا من يدها وهي لا تزال تقرأ في مجلتها ..
وهنا يجب ان اذكر القارئ الصبور بأن وجهتنا المقررة هي
مدينة ليبينغفيل القريبة من المستشفى الوهمي الذي قلت للوليتا
ان امها قد دخلت اليه ..

وبينا كنا ندخل السيارة رأيت معالم الألم ترسم على وجه
لوليتا ، ثم تزايدت هذه المعالم وضوحاً ، عندما جلست بجانبني ..
ولا شك انها فعلت ذلك لتشعرنى بأنها تتألم جسدياً ولغباوتي
سألتها عما بها فاجابتني :

— لا شيء .. ايها الوحش ..

فلما سألتها : ماذا تقولين ؟

التمت الصمت .. ولكن صمتها دفع عناكب الذعر تدب
على ظهري بمخالبها الباردة .. وتصورت الوضع الواقعي : هذه

فتاة يتيمة وحيدة .. فتاة قاصرة قزمة جامعها عالج عتي ثلاث
مرات هذا الصباح بالذات .

ولكن اذا كان حلم حياتي قد تحقق بأروع مما كنت ارجو
فان ذلك لم يمنعه الآن من ان يتحول الى كابوس مرعب .. ادركت
في هذه اللحظة بأنني كنت طائشاً غيباً وخسيساً فاجراً .

واذا اردت ان التزم الصراحة ، فإنني مع كل ذلك شعرت
في غمرة هذه الدوامة المفزعة باهتزازات الرغبة تجوس في اعماقي ..
اجل الى هذا الحد كانت شهيتي مرعبة مخيفة وهائلة الى تلك
الحدورية المسعورة .

وهكذا اختلط في نفسي تأنيب الضمير ونخزات الشعور
بالاثم ، مع خاطر عذبي اذ اوحى لي بأن مزاجها الحالي قد
يمنعني من ان استمتع بها مرة اخرى اذا وجدت على الطريق
مكاناً جيلاً منعزلاً يستطيع ان اخفي فيه سيارتي ..

وبعبارة اخرى كان المسكين همبرت تعيساً وهو يسوق
سيارته مسرعاً الى ليبينغفيل ، وهو يشغل فكره في استنباط
وسيلة مناسبة يجرؤ بواسطتها على مقاربة جليسته .

على انها كانت هي التي قطعت جبل الصمت الطويل اذ قالت
مددمة :

— اوف .. يا للعار ..

فقلت لها متلهفاً مازحاً :

— اجل يا عيب الشوم .. اليس كذلك ..

— ارجوك ان تقف عند اول محطة بنزين ، فإنني أريد أن

أقضي حاجة ..

ومررنا بدغل من اشجار السنديان الظليلة فاقترحت
عليها ان نتوقف اذ قد يكون بالامكان ان ..
ولكنها صاحت محنقة : هيا سر على طول ..
فأجبته :

— امرك .. ولكن على مهلك .. اهدي .
وتطلعت اليها فوجدتها والحمد لله تبسم .. ثم ما لبثت ان
وجهت لي الحديث قائلة ، ولكنها بابتسامة عذبة :
— ايها السافل الكريه .. لقد كنت فتاة نقية نضرة
كالأقحوانة بالأمس ، فانظر ما فعلت بي .. يجب ان اذهب
للشرطة وابلغهم بأنك اغتصبتي اجل اغتصبتي ايها العجوز
القدر ..

هل كانت تمزح ؟

لقد كانت ثمّة مسحة هستيرية تخالط كلماتها التي اتبعتها بالشكوى
من الآلام ، قائلة انها لا تطيق الجلوس إذ أنني مزقت شيئاً ما في
باطنها .. وإذ سمعت ذلك اخذت حبات العرق تتساقط باردة
وتنزلق الى عنقي وكدت لارتياعي ادھس كلباً ، بينما مضت
رفيقي الملتهبة غضباً تسبني سباً مقدعاً ، ولما توقفنا عند محطة
البنزين دخلت الى الحمام وبقيت فترة طويلة ولما ظهرت قالت لي
بتلك اللهجة الباردة التي آذنتني كثيراً :

— اعطني بعض النقود ، فاني أريد ان اتلفن الى أمي في
المستشفى .. ما هو رقم الهاتف ؟

— هيا اصعدي الى السيارة انك لا تستطيعين مخاطبة ذلك الرقم

— ولماذا ؟

— ادخلي واغلقي الباب ..

دخلت السيارة واغلقت الباب ، فاندفعت بها الى الطريق
الجبلي ، بينما قالت متسائلة :
— ولماذا لا تستطيع ان أتلفن الى أمي اذا أردت ان اتلفن؟
فأجبتها .

— لأن أمك قد ماتت !!

— ٣١ —

في مدينة ليبينغفيل المرحلة اشترت لها اربعة كتب مصورة
وعلبة ملابس وعلبة ادوات المانيكور وساعة ومضرب للتنس
وحذاءين بكعب عالٍ وراديو يد وعلبة علكة ومشمعاً شفافاً
ونظارات وبعض الجوارب والملابس الداخلية .
وفي الفندق اخذنا غرفتين منفصلتين ، ولكنها جاءت في
منتصف الليل منتحبة الى غرفتي وتمت العملية بيننا بكل رقة
ولطف ..
وكما ترون فانه لم يكن لديها قطعاً من مكان آخر تلجأ اليه ..

الجزء الثاني

عند ذلك التطور في علاقاتنا بدأنا سفراتنا الحثيثة في جميع ارجاء الولايات حيث خلصت الى تفضيل نوع واحد من الفنادق هو المنزل الريفي النظيف الامين ، الذي ينطوي على اماكن مثالية لنوم العشاق ولمشاجراتهم ولمصالحاتهم ولغرامياتهم الماجنة غير المشروعة .

وفي بادىء الامر كنت ادفع في غمرة الخوف من اثاره الشكوك في علاقتي مع لوليتا اجر حجرتين متصلتين تحتوي الواحدة على سرير مزدوج ولقد تساءلت كثيراً عن الدافع لمثل هذا التنظيم ، ذلك لانه ما كان يمكن تحقيق غير نوع من الخلوة المرائية الكاذبة بهذا الانفصام غير الكامل ، الذي يقسم في الحقيقة حجرة كبرى الى حجرتين او الى عشرين غراميين متصلين بسهولة . ولم يمض وقت طويل حتى ادركت ضالة احتمال اثارتنا انا ولوليتا لاي شكوك ، فاصبحت اكثر جرأة ، فرحت لا استأجر سوى غرفة بسريرين او غرفة بسرير واريكة .. وكانت تلك الغرف تبدو لي كزنزانات في الجنة يستأثرها الصفراء المسدلة ، التي تعكس في الصباح جو يوم مشمس رائق من ايام

البندقية ، بينما تكون في الواقع في بنسلفانيا وفي صباح مطير .
وبالتدريج عرفنا كيف نمضي وقتاً طيباً في الاكواخ النائية
الماثلة لما وصفه من اكواخ غرامية كل من فلوبيير وشاتوبريان وعرفنا
كيف نستخدم الخنازل والادغال على طريق السفر .. اجل
عرفنا مختلف انواع الفنادق والحانات والاستراحات الصيفية ..
بجملاتها المختلفة الغريبة الانواع .. وبالتعليقات المعلقة فيها وهي
تطلب الى الزبائن الكرام الا يلقوا في بيت الحلاء بالاقدار وعلب
البيرة .. والمواليد الجدد .

وعرفنا مختلف انواع اصحاب الاستراحات التي ياوي اليها
المسافر مع سيارته في باحة طليقة فعرفنا منهم المجرم التائب
والمعلم المتقاعد ، والحائب في التجارة ، وعرفنا من صاحبات
تلك الاستراحات المرأة التي تحاول ان تظهر بمظهر ارسطراطي
والمرأة الجانية .. والعاهرة المتقاعدة .. والعجوز المتصابية .

واخذنا بحكم الخبرة نتجنب الفنادق المعروفة باسم « بيوت
السواح » الجنائزية المظهر الخالصة من الدوش والتميزة بموائد
كثيرة الزخرفة وبغرف ملونة باللونين الوردي والابيض بشكل
يشير المقت ، وصور ابناء صاحبة الفندق في ثياب العيد .

ولكنني في بعض الاحيان كنت استسلم لاصرار لوليتا على
النزول فيما يدعوه الدليل باسم «الفندق الحقيقي» المتميز بأطيب
الطعام .. وبنزلاء من ارفع مستوى ، واذكر انني دفعت ١٢٠
دولاراً اجراً لمقامنا يومين في مثل هذا الفندق !! الذي يصر
اصحابه اللصوص على ان يجاملوا النزيل بقهوة مجانية في الصباح

وعلى عدم قبول من هم دون السادسة عشرة (بالطبع لوليتا غير مقبولة نظرياً في مثل هذا الفندق !) .

على اننا اخذنا نقصد اكثر ما نقصد استراحات السيارات رغم ما كان يطرأ على لوليتا من نزوات فيها ، فكانت تسألني بصوت منتحب لماذا لا اسمح لها بأن تقوم بالزهوة الموصى بها على طريق الجبل . وكانت تطالب مثلاً بأن نفتش عن مقهى فيه كراسي شيزلونج تحت اشجار الصنوبر وتصر على ان تجلس في مثل ذلك المقهى . فكان الامر يقتضي ساعات من الوعيد والترغيب ، كما تعيرني اطرافها السماء بضعة دقائق حتى لا تضيع هباء الدولارات الخمس التي دفعتها اجراً للكاين ؛ وقبل ان احقق لها اياً من رغباتها التي تفضلها على متعتي التاعسة . ان لوليتا تستطيع حيناً تريد ان تكون اكثر الخلوقات اثارة للمتاعب والاعصاب بسلوكها الذي هو مزيج من الطيش والركة والتبذل والدلع والحنفة والنزق . والواقع انني لم اكن مهياً النفس لمعالجة نزوات نزقها وضجرها وحردتها المتمثلة بتصرفات بهلوانية ذات طابع صبياني وسوقي . وكنت اجدها من الناحية العقلية مزاهقة صغيرة عادية بشكل مقرف .. فكانت موسيقى الجاز باند المحمومة والرقصات السريعة واقداح البوظة المليئة بالبندق والفريز ، والمجلات السينمائية الخ .. في رأس قائمة احب الاشياء الى قلبها والله يعلم كم من القطع النقدية حشوت بها العلب الموسيقية البراقة لتعزف ما تختاره لوليتا من موسيقى سوقية رعاعية محمومة ، عند كل وجبة في المطعم .

ولا تزال تتردد في مسامعي اصوات هؤلاء المغنين ..
الاصوات الماجنة الرقيقة التي كانت تتأيل عليها لوليتا حاملة ..
وكانت تؤمن بثقة مستسلمة ، بما يكتب في الاعلانات التي
تنشرها مجلات السينما وكانت تعتبرها كشيء منزل من السماء ..
بل كانت تستجيب لكل اعلان فاذا مررنا باعلان يقول: زوروا
مخزن الهدايا فاننا يجب ان نزوره واذا مررنا باعلان يقول :
اشتروا عرائسنا الهندية فان علينا ان نشترى العرائس والذمى
والتذكارات .. واذا ما صادفنا اعلاناً مضيئاً يعلن ان الملهى
يقدم مشروبات مثلجة ، فانها تثار آلياً الى شرب شيء من هذا
الملهى بالذات مع ان جميع المشروبات تقدم مثلجة في كل مكان ..
الى لوليتا ومثيلاتها كانت تتوجه هذه الاعلانات ، فقد كانت
مثال المستهلك المغفل المثالي ، وكانت هدف وموضوع كل لوحة
اعلانية مخاتلة ..

في تلك الايام لم يفكر أي منا في استنباط طريقة الرشوات
المالية التي خلصنا اليها فيما بعد ، لتسكين اعصابي ورفع معنوياتها ..
لقد اعتمدت على ثلاثة مناهج لابقاء محظيتي السرية في حالة
خضوع ومسألة :

١ - كانت قد ذكرت لي انها قضت منذ سنوات صيفاً مقبلاً
مقرفاً في مزرعة ريفية تحت اشراف استاذة عانس ، كانت
تجبرها على تعلم أشياء كثيرة في جو كره منعزل ، فقد كانت
المزرعة تبعد عشرين ميلاً عن أي مكان مأهول ... وعندما
حدثني عن هذه الذكرى ارتسمت على وجهها معالم القرف

والمقت التي شوهت ملامحها ..

واستناداً الى ذلك اخذت كل مرة تثير فيها اعصابي بنقيقتها
وتصرفاتها الصببانية النزقة ؛ اتوعدها بانى سآخذها الى مكان
منعزل لمدة اشهر بل لمدة سنوات اذا لزم الامر لتدرس تحت
اشرافى اللاتينية والفرنسية هذا اذا لم تغير « مسلكها الحالى » ..
ولكونها ساذجة كانت تصيح مستنكرة وتمسك متوسلة
بيدى المشغولة بمقبض السيارة ، كما لو كانت تتصور بأننى فعلاً
اتجه في غمرة غضبى منها الى زوجها فى مثل ذلك المنفى المقيت
المظلم .. ولكن تأثير هذا الوعيد اخذ يخف كلما مضينا قدماً
فى اسفارنا نحو الغرب فكان لا بد من ان التمس وسائل اخرى
لاقناعها واخضاعها .

٢ - من بين تلك الوسائل اذكر بشعور من الخجل والعار
تهديداً تأديبياً كنت اوجهه اليها ..

لقد كنت منذ بداية علاقتنا الفاجرة من المهارة بحيث
ادركت بأننى يجب ان اؤمن تعاونها التام لابقاء علاقتنا سرّاً
مخفياً ، بحيث يصبح كتمان الامر طبيعة ثانية فيها ، وفى جميع
الظروف مهما بلغ حقدى عليها ، ومهما كانت اللذات الاخرى
التي قد تتطلبها نفسها .

فكنت اعودها على ذلك حتى فى خلواتنا ، حيث كنت
اخطبها مثلاً : « تعالى وقبلى اباك العجوز .. وكفى عن هذا
السخف » .

ايه ! يا لوليتا لقد كنت فى السابق فارس احلامك ، وكنت

تحصين تأوهاتى وخلجاتى بين ذراعيك ، اما الآن فأنا مجرد ابيك
العجوز .. مجرد اب خيالى يحمى ابنته الخيالية .

كنت افعل ذلك كما احببى عزيزتى لوليتا من كل الاهوال
التي تتعرض اليها الفتيات الجانحات من ذئاب البشر في الازقة
المظلمة والمنعطفات الخالية .. وتحت خمائل الفريز في الغابات
والبراري ايام الصيف الصافية ..

أجل قررت ان اكون حارسك وحاميك ولعل المحكمة
تجد مبرراً قانونياً لهذه الحراسة ..

ولكن لندع التعابير القانونية حول شرعية المساكنة
والمعاشرة بين رجل في الخمسين وقاصرة لم تبلغ الثالثة عشرة .
اننى لست مجرمًا فاسقًا منحرف الميول يبيع لنفسه حرية مقاربة
قاصرة مقاربة وضيمة .. ان الذي انتهك عذارها اجرامياً هو
تشارلي هولمز ابن المديرية اما انا فلست الا الطبيب مداوي ..

كنت اقول للوليتا : انظري يا عزيزتى انا ابوك الحبيب
انظري .. ها هو كتاب نفيس عن الشابات الصغيرات اسمعى
ماذا يقول :

« ان البنت الطبيعية - انتبهي البنت الطبيعية - هي عادة
حريصة للغاية على ارضاء والدها ، وانها لتجد فيه صورة للرجل
الذي تحلم به وتشتهيه ، أما الأم الحكيمة فانها خليقة بأن تشجع
الزمالة بين الاب وابنته لادراكها بأن البنت تستقي مثلها العليا
عن الحب والغرام مع الرجال من رابطتها مع والدها . »

والآن ما هي الرابطة التي يقترحها ذلك الكتاب النفيس ؟

انني انقل منه من جديد :

« ان العلاقات الجنسية بين الوالد وابنته لدى سكان صقلية هي أمر مقبول باعتباره أمراً واقعاً وان المجتمع هناك لا ينظر باستنكار الى البنت التي تشارك في مثل تلك العلاقات » .

ولقد علقت على هذا المقطع إذ قرأت للوليتا بقولي : انني من المعجبين بسكان صقلية يا لوليتا .. فهم رياضيون ممتازون وموسيقيون ممتازون واناس ممتازو التربية .

ولكن لا حاجة تدعونا الى الشذوذ والانحراف .. لقد قرأنا في الصحف مؤخراً عن رجال اعترفوا بحرقهم قانون حماية الآداب العامة نزلوا من ولاية الى اخرى قاصرة في التاسعة من عمرها لأغراض فاسقة .. والآن يا عزيزتي لوليتا انك لست في التاسعة بل تكادين تبلغين الثالثة عشرة ولست انصحك بأن تعتبري نفسك جازيتي .. انني اهزأ بقانون حماية الآداب العامة فهو يورط نفسه في تورية مزدوجة المعنى ، إذ انه في الواقع يمثل فقط انتقام الآلهة الخرافية من الفاسقين المرائين .. اما انا فلا يطالني القانون لأنني والدك .. انني أتكلم الانكليزية واحبك .

واستطردت مخاطباً لوليتا :

« اخيراً لنتصور ماذا سيحدث اذا اتهمت انت القاصرة بإفساد أخلاق رجل بالغ في فندق محترم ؟ ماذا يحدث اذا شكوت للبوليس من انني اختطفتك وانت هكتك ؟

لنفترض ان رجال البوليس قد صدقوك :

ان العقوبة القصوى هي السجن عشر سنوات للشخص الذي

تجاوز الواحدة والعشرين اذا سمحت له انشى قاصرة بان يقارها جنسياً .. اجل ان سماحها بذلك ينطوي على تعريض ضحتها لطائلة القانون بدعوى انه قام باغتصاب موصوف لقاصرة او بمضاجعة غير مشروعة . وهكذا سأذهب الى السجن بموجب ذلك .. حسناً ما الذي سيحدث لك ايتها اليتيمة اذا زجني البوليس في السجن ؟

انك في هذه الحالة ستكونين اسعد حظاً .. اذ ستصبحين امانة في يد دائرة الشؤون الاجتماعية وستأتي امرأة عانس صارمة متممة تزبل الاصباغ عن شفتيك ، وتأخذ عطورك وثيابك الحديثة الحريية وتعطيك تنورة طويلة وقمصاً مقفل الياقة وتأخذك الى الاصلاحية .. انني لست اعلم يا لوليتا اذا كنت قد سمعت بالقوانين المتعلقة باصلاح القاصرات المنحرفات ..

اذا بلغ الخبر البوليس سأقف وراء القضبان ، بينما ستخبرك دائرة الشؤون الاجتماعية انت الطفلة المهملة السعيدة بين الذهاب الى هذه الاصلاحية او تلك ، حيث تمضي النهار في انشاد الأغاني الدينية والدراسة و اعمال التدبير المنزلي ؛ وحيث تحضلين يوم الاحد فقط على القطائف مع وجبة الغداء .. اجل في هذه الحالة سيخبرونك على الذهاب الى واحدة من تلك الاصلاحيات ، لانك قاصرة جانحة تتطلب الاصلاح والارشاد ..

وبعبارة اوضح فانك ستزجين اذا اكتشف البوليس امر علاقتنا .. اقول انك ستزجين مع ٣٠ او اربعين قاصرة مثلك في

قاووش قدر معتم تحت اشراف مربيات قاسيات متغطرات
مترمات ..

وهكذا ألا تظنين والحالة هذه ان من الافضل لوليتا هيز ان
تظل مع «ابيهما» العجوز ؟ .

استطعت بتردادي ذلك بالتفصيل ان اهرب لوليتا التي لم
تكن بالطفلة الذكية الى المدى الذي توحى به ملاحظها وقد
استطاع هذا الأرهاب ان يلطف من طيشها ويجعلها اقل حرداً ،
ولكن ليس الى حد كبير .

وعلى كل حال فقد نجحت في ان اثبت في ذهنها وجاهة
المحافظة على السرية والمشاركة في التكم بالاضافة الى الشعور
بالمشاركة بالذنب والأثم ، الا انني كنت اقل نجاحاً في ابقاء
مزاجها راثقاً طيلة الوقت .

فكنت كل صباح اضطر الى اجهاد نفسي في ابتكار مايعدها
بالرجاء والأمل ، حتى يحين موعد لجوئنا الى الفراش ، ولولا ذلك
لانهار هيكل يومها وساء مزاجها .. وقد يكون ما اعدتها
به شيئاً نافهاً مثل زيارة المنارة في فرجينيا او زيارة لكهف
طبيعي في اركانساس حول الى مقهى عام الخ .. ولكن يجب
ان يكون ما اعدتها به موجوداً امامنا كنجم ثابت نستهديه
طريقنا لتغرد لوليتا وتزقزق فرحاً اذ نصل اليه .

بذلت احسن جهدي في ما لايعد من الساعات ، كما اوحى
لوليتا باننا نقوم بسياحات ممتعة ، اذ كنا ننتقل بين مرافق
امريكا الجغرافية عبر طرق جميلة وسهلة تصل بين ٤٨ ولاية وكنا

نغضي معظم ساعات الطريق في الصمت .
اما لوليتا فلم تكن فقط من اللواتي لا يتذوقن المناظر الطبيعية ،
بل كانت كذلك تستاء بغضب من لفتي نظرها الى تفاصيل ما نرى
من مناظر الطبيعة الساحرة .
لقد اقترح المحامي ان اعطي تقريراً واضحاً عن تنقلاتنا ،
واعتقد انني وصلت في روايتي الى مرحلة لا استطيع الا ان افعل
فيها ذلك بدقة ، ذلك انني لم اكن ادون مذكرات عن الرحلة ولست
املك الا سجلاً مقطعاً عن رحلتنا هو في حالة زرية تشبه
ماضي الممزق .

- ٢ -

يجب على القارئ ان يذكر اذ يتابع ما يلي بان رحلتنا كانت
شاقة رغم جوانب المتعة فيها ، وكان المبرر الوحيد لها هو ان
ابقي رفيقتي في حالة مرضية بين القبلة والاخرى .
لقد مررنا بمختلف انواع المطاعم الامريكية وشاهدنا معظم
التقاليع ومختلف ما يثير القرف ، وزرنا كل مرافق التاريخ
الامريكي .. التاريخ الذي لا يزيد عمره عن ٣٠٠ عام !
وزرنا في الأقليم المسيحي متحفاً مكرساً لعرض صور الفنادق
الأوروبية فقط .. وبزهو دافئ اكتشفت فندق ميرانا الذي كان
يملكه ابي في الريفيرا ولما ذكرت ذلك للوليتا هزت كتفها غير
عابئة قائلة :

- وماذا يعني ؟

وفي غابة في ولاية اركنساس لسعت حشرة كتف لوليتا
فاحمر مكان اللسعة وانتفخ، فازلت بأصابعي سمها ذي الشفافية
الليذنة، قبل ان احمل اليها شفتي لأقتات من دمها المعطر الحامز .
وزرنا اماكن الهنود الحمر وقم الجبال وزرنا وزرنا.. وعرفنا
في طريقنا الكثير من انواع المسافرين المجانين : رجل العلم الذي
يفتش عن الحشرات والمتحجرات .. الجندي المتواضع الذي
يقف هادئاً على قارعة الطريق وهو يشعر بجاذبية ثوبه الكاكي
العسكري ؛ والتلميذ الراغب في الانتقال ؛ والقاتل الراغب في
ان يبتعد الف ميل على الاقل ، والوجيه الغامض الذي يقف
بحقيبة انيقة وشاربين منمقين، وطالب الجامعة الفخور بجامعة
وهو يرتدي قميصاً مزيناً باحرف كبيرة تصوغ اسم جامعته ،
والسيدة اليائسة التي نفدت بطارية سيارتها .. ثم الشبان الذئاب
بوجوههم الصبوخة وقمصانهم المفتوحة ونظراتهم النهمة المتحدية،
الذين يقفون لاغواء مسافرة تقود وحيدة سيارتها وتحس بالحاجة
الى رفيق. وكانت لوليتا تشير الى هذا النوع من الشباب بسخرية
قائلة : دعنا نأخذه ..

على انني طيلة الطريق كنت اتابع بعين حريصة لوليتا التي
كانت تشع ، وربما بفضل علاقاتنا الجنسية المستمرة ، بهريق
خاص مثير للخيلات الزرقاء الناب في صدور صبيان الفنادق
ومحطات البنزين والشبان المسافرين في سيارات فخمة والذئاب
من رواد المقاهي ومحلات الحلوى .. وكنت المبح مشاعرهم تعبر

عنها ملاحظهم بشكل كان يجب ان يداعب غروري لولا انه كان في الواقع يزيد من غيرتي .

اما لوليتا فكانت مدركة لتألقها وكنت غالباً افاجئها وهي ترسل نظرة مسروقة باتجاه شاب رقيق انيق وما اكاد ادير ظهري لاشتري قطعة حلوى للوليتا حتى اسمعها هي والشاب يغنيان احدى الاغاني الغرامية الشائعة .

وعندما كنت اثناء استراحاتنا الفورية الزم الفراش للراحة بعد صباح عنيف محموم في الفراش كنت بدافع من طيبة قلبي الرقيق اسمح للوليتا بالذهاب الى الحديقة او الى مكتبة الأطفال او مع بعض الصغار من ابناء النزلاء الآخرين .. وتصوروا اوهامي وهي تعود بعد ساعة متقدمة على الصغار وتسير بين مراقبين بشيعي الوجه وقحي النظرات لتسألني اذا كنت اسمح لها بالذهاب معها الى حلبة التزلج .

واذكر عندما سمحت لها اول مرة بالذهاب الى مثل تلك الحلبة كيف انها قالت بقسوة انه ليس هناك من متعة في مرافقتي لها اذ ان وقت الصباح مخصص للمراقبين فقط .. فبقيت لوحدي في السيارة امام موقف الحلبة حيث كان زهاء خمسين من الفتيان والفتيات يتزحلقون زوجاً زوجاً على انغام الموسيقى . واخذت ارقب لوليتا من بعد الى ان اختفت فجأة .. وما لبثت ان مرت من جديد تتزحلق بين ثلاثة من الشبان الرعاع الذين سمعتمهم قبل لحظات «يحللون» من خارج المكان الفتيات المتزجلات . وسمعتمهم يصون شفاههم تشهياً لمراى فتاة جاءت تتزحلق مرتدية الشورت

الذي يكشف عن ساقها ..

منذ ذلك الحين لم اعد ارافقها الى تلك الامكنة ..

لقد حفلت رحلتنا بالكثير مما يثير الغضب ، ففي بعض نقاط الحراسة كان يطل من نافذة السيارة شرطي ويبجلق بنظرات تجعل العرق يتساقط بارداً على رقبي ويسأل لوليتا :
- اهنالك ما تشكي منه يا حلوة ؟ ..

كنت في كل مدينة نقف عندها اسأل بطريقي الاوروبية المهدبة عن المتاحف والمرافق الثقافية وعن المدارس وعدد الطلاب وغير ذلك من الأسئلة التي تكرر في الازدهان براءة رفيقي للوليتا .. وكنت اوقف سيارتي دائماً قرب احدى مدارس البنات وارقب البنات ويجاني لوليتا وهن يخرجن من المدرسة .. انه منظر حبيب الى قلبي منظر هؤلاء المراهقات خارجات من المدرسة .. الا ان ذلك اخذ يبعث الضجر في نفس لوليتا ولما كانت تفتقر الى تفهم اهواء الآخرين فقد درجت على شتمي وعلى شتم رغبتي في ان تداعبني والمراهقات السمراوات والبيضاوات يخرجن من المدرسة بتنورات وبشورتات تكشف سيقانهن البضة ..

وكحلّ وسط لاختلاف مزاجينا اتفقنا على ان نذهب كلما كان الأمر ممكناً الى مسبح البنات .. فقد كانت تعبد المياه المتلألئة البراقة وكانت سباحة ماهرة .. وكنت اعبد تلك الاجساد العارية .. اجساد المراهقات .. فكنت اجلس تحت المظلة غارقاً في مقعدي وارقبها وهي تسبح برشاقة مع الفتيات .. واقارن بينها وبين غيرها من المراهقات المسعورات .. وانا في

منتهى السعادة لانها ملك يعني ..

انني اليوم في الزنزانة اضع يدي على قلبي الموجوع وانا اذكر
انني لم اشاهد اية حورية مسعورة تتفوق عليها في اثارة الرغبة ..
بل لم تماثلها في ذلك غير فتيات قلائل وفي ظروف غير طبيعية
فقد كانت احداهن مضمخة بعطر مثير لا ينسجم مع سنّها .

وبالطبع كان لا بد ان ادرك وانا في غيرتي المحمومة مخاطر
انفلات لوليتا من رقابتي المباشرة ، فقد كان يكفي ان ابتعد عن
لوليتا هنيهات او خطوات .. في شأن ما حتى اراها عند عودتي
وهي تلطم الماء بطرف قدمها على حافة بركة السباحة بينما انبطح
بقربها مراهم اسمر جذبه جماها الاسمر بشكل لا بد ان يعذب
احلامه المحمومة عدة اشهر .

لقد حاولت ان اعلم لوليتا لعب التنس ولكنني اثبت انني
معلم فاشل مع اني كنت في زمني لاعباً ماهراً وهكذا دبرت لها
أن تأخذ عند بطل متقاعد دروساً خاصة في التنس كلفتني مبلغاً
كبيراً .. وكان ذلك من اجل ان اوفر لها ولي المزيد من المتع
المتشاركة .

الا ان لوليتا لم تتذوق هذه اللعبة وقد اثبتت على الاقل قبل
وصولنا الى كاليفورنيا بانها تفضل مطاردة الكرة على اصابتها
في الهواء .. وبعد ذلك اخذت اشجعها على اللعب مع بنات في
سنّها وغالباً ما كانت هي ورفيقاتها ترتكبان من الاخطاء ما
لا اطيع صبراً عليه فكنت اهرع عادة الى البنت الاخرى واشم
ضوعها وانا امسك بساعدها لأعلمها كيف تضرب الكرة وكانت

لوليتا عند ذلك تشرأب بقامتها وتضرب مضرب الكرة على الارض كمنجل الحصاد وتطلق « اوف » الاستياء بصوت مجلجل احتجاجاً على تدخلها . فكنت عند ذلك اتركها لشأنها وابتهد مكثفياً بمراقبتها ومقارنة جسديها والغصّة في حنجرتي .

وكان من عادة لوليتا في الايام القضاة ان تخطيء الكرة فتشتم وترسل الى الشبكة بصقة احتجاجية .. واذكر انني عرضت ذات يوم ان أأتيها ورفيقتها ببعض المرطبات من الفندق وذهبت فعلاً وعدت بكأسين من الاناناس البارد ثم شعرت بفراغ في صدري اوقفني عن الحركة اذ رأيت ملعب التنس خاوياً .. فاتجهت لاضع الكأسين على المقعد الخشبي ولسبب ما تراءى لي وجه شارلوت وهي ميتة ثم تطلعت جانباً ولحت لوليتا بشورتها الابيض وهي تحتفي في ظلال ممر الحديقة برفقة رجل طويل كان يحمل مضربي التنس فاندفعت نحوهما لارى لوليتا ورفيقتها تفتشان بمساعدة الرجل عن آخر كرة تنس بقيت لهما .

انني اذكر هذه الاحداث التافهة كما ابرهن لقضائي بانني قد فعلت كل ما في طاقتي من اجل ان اوفر للوليتا وقتاً طيباً ..

وكم كان يحول لفؤادي ان اراها وهي تُتري لطفلة في مثل سنّها بعض حركات اللقفز على الحبل التي كانت تتقنها فتثير دهشة رفيقتها .. واقصد بها تلك الحورية الاسبانية المسعورة التي كانت تحاول دائماً ان تتعلم من لوليتا تلك الحركات البهلوانية ..

كانت كذلك شبيهة كلوليتا وذات جسم بديع مثير .. كنت ارقبها الى ان تنتهيا من ذلك لأقود لوليتا نحو غرفتنا وانا اضع

يداً « أبوية » تداعب شعرها ثم تنحدر برفق على قذالها .. ولا
انسى ان القي بابتسامة الى خادمة الفندق الزنجية وانا اقود
حبيبتي المترددة الى عشنا الصغير .. من اجل وصلة سريعة قبل
العشاء ..

وبينما كنت عادة أتجنب ما امكن الناس كانت لوليتا تبذل
كل ما في وسعها كما تجتذب اكثر عدد من الشهود الى مدارها ..
كاهرة الجميلة التي تجتذب الايدي الحانية اذ تهز ذيلها الاثيق
وهي ترسل مواءها المغناج .. وفي هذه الحالات كثيراً ما كنت
أعرض الى خطر الانكشاف فقد كانت السيدات اللواتي
تجتذبن وسامتي يسألن لوليتا الكثير من الاسئلة عن ابوها
ويقترحن احياناً ان تذهب مع ابنائهن وبناتهن الى السينما ...
فلا استطيع ان ارفض ذلك لحشيتي من ان اثير شبهتهن
ثم لا استطيع الا ان اخشى من ان ينزلق لسان لوليتا بشيء
عن واقع حالنا ..

لكني لم اقلق قط من رقعة الحواجز قدر قلقي ذات ليلة
احببت فيها لوليتا حباً صاخباً اكثر مما ينبغي ، فملاً سعال
النزيل المجاور السكون التالي بشكل قوي جداً . بيد ان الليلة
مضت بسلام .

كانت لوليتا معظم الاحيان تصحو متأخرة فكننت انزل
وحدي الى بار الفندق لاتناول الفطور واحمل لها قدحاً من
القهوة الساخنة الى فراشها .. وكما كان يسرني ان احمل اليها
القدح وأوقظها ثم احببه عنها الى ان تؤدي واجبها

الصباحي » .. ولا عجب فقد كنت لها صديقاً راعياً و اباً محباً وطيباً يسد كل احتياجات جسدها الحلو الصغير الاسمر ! . ولم اكن احقد على الطبيعة الا شيء واحد هو انني لا استطيع ان اقلب باطن لوليتا الى ظاهرها كما اقبل كل احشائها .. بشفتين نهمتين .. وكم كانت تحلولي لمسة المقعد الجلدي وانا غارق فيه بعربي التام ولوليتا جالسة في حضني اكثر ساعات بعد الظهر في الايام القانضة .. في تلك الاثناء كانت لوليتا تبدو طفلة — طفلة فكانت تغطس بوجهها في صحيفة او كتاب غير عابئة بنشوتي كأنما لا تجلس على حضني انما تجلس على شيء ما .. على حذاء .. او مضرب تنس .. وكأنها لا تستطيع لشدة تكاسلها ان تمديدها كما تزيجها من تحتها .. وكانت تتأمل الصور وتصدق كل ما تنشره الجرائد من شرح لها .. وتهتم اكثر ما تهتم بصور العرائس وهن في اثواب العرس البيضاء حاملات باقات الورود .

واذكر احياناً كيف كانت تفتح الصحيفة على زاوية (اختبر معلوماتك) لتلقي علي ما فيها من اسئلة مثل :

هل تقل الجرائم الجنسية اذا انصاعت الفتيات الى نصائح قليلة مثل : لا تلعي قرب المراحيض العامة .. لا تأخذي الحلوى من غريب .. لا تقبلي ان يوصلك غريب بسيارته فاذا فعلت خذي رقم السيارة ..

وكانت تمضي في هذا الاستجواب السخيف وخدها المتباعد يلتصق بجدي الذي يلاصق خدها باستمرار .

لقد دخلت لوليتا عالمي المجنح الاسود .. دخلته بفضول
طائش متهور واستقصت جوانبه المعتمة بشيء من المتعة
المكروهة .. ولكن بدا لي الآن انها تنهياً للخروج من هذا
العالم بشيء قريب من التقزز والقرف ..

انها لم تهتز ابداً تحت لمساتي .. لم تكن لمساتي ترسل
الاهتزازات في جسدها ، فكان كل ما حصل عليه منها هو هذا
السؤال : ماذا تظن انك فاعل ؟ .. ماذا دهاك ؟

كانت مجنونتي تفضل الذهاب الى الافلام التافهة على
الرحلات الساحرة الى الملكوت السحري الذي كنت اعرضه
عليها ، اجل ليس هناك اقصى من ان يحب الإنسان طفلة
مراهقة ..

ارجو من القراء الا يقطبوا وجوههم تجاهاً اذ لا انوي أن
اومهم بانني لم انجح في ان اكون سعيداً مع لوليتا .. انما يجب
على القارئ ان يفهم ان الذي يمتلك الحورية المراهقة المسعورة
وينغمس في لذائذها انما يندفع الى ما وراء عالم اللذة والسعادة
اذ ليس هناك من نعمة على الارض تعادل نعمة مداعبة وملاطفة
الحوريات المراهقات المسعورات بالشبق ، ان تلك النعمة هي
شيء غير اعتيادي لا تقاس بأية لذة .. انما تنتمي الى صنف آخر
من عالم التلذذ .. فعلى الرغم من فوارق السن وعلى الرغم من
بذاءتها وخشونتها وعلى الرغم من كل سوقيتها وتظاهرها بالقرف

وعلى الرغم من جميع الاخطار ومن ان العلاقة مع المراهقة
المسعورة هي علاقة ليست بذات مستقبل .. وعلى الرغم من كل
ذلك فاني ذهبت معها عميقاً في جنتي المختارة .. انها جنة ذات
سماوات بلون ألسنة نيران الجحيم .. ولكنها جنة على كل
حال ..

ولا ريب ان المحلل النفساني القدير الذي يدرس حالتي
والذي لا شك قد القيت به في حالة من الانهيار المفتون ،
لا ريب ان هذا المحلل خليق بان يريدني ان اذهب ولوليتا الى
الساحل كما « احقق » هناك حلم العمر وحافزه وبالتالي كما
احرر عقلي الباطني من عقدة خلقها فشلي في ان اتوج غرام
طفولتي بامتلاك حبيبتي الاولى آنا بيل على ساحل الريفيرا
عندما سنحت لي فرصة وحيدة اضاعها علي رجلان برزا فجأة
من البحر .

يا عزيزي المحلل النفساني دعني اذكر لك انني فتشت عن
ساحل سحري يشبه ساحل الريفيرا كما اقضي في ركن منعزل
منه وطري من لوليتا .. ولكنني يجب ان اعترف لك بانني
عندما وصلت الى سراب مياهاه الداكنة كنت قد حصلت على
كثير من المتع من رقيقة سفري بحيث ان البحث عن المملكة
المسحورة (المملكة التي تصورها لي احلامي قائمة قرب البحر)
لم يعد حافزاً من حوافز العقل الباطن بقدر ما اصبحت متابعة
واعية علانية للذة باهرة هي مجرد لذة نظرية ..
لقد عرفت ملائكة الاقدار ذلك ورتبت الامور وفقاً له .

وهكذا فوجدنا بطقس عاصف زمهري عندما ذهبنا الى كهف طبيعي على ساحل الاطلسي .. اجل فوجدنا بجو ليس فيه ما يشبه جو الريفيرا الوديع الهائي ..

واخيراً وجدت على الساحل الكاليفورني كهفاً بهيئ نوعاً من الخلوة ولكن الضباب كان من الكثافة بمثابة ملاء مبلولة مسندلة على الدنيا وكانت ارض الكهف مليئة بالبحص وشديدة الوعورة كما ان لوليتا كانت مشعثة بحيث انني لم اشعر في حياتي بقلة في الرغبة بها مثلما شعرت اثناء زيارتنا ذلك الكهف ..

ولعل الحكماء من قرائي قد يدهشون اذا قلت بان تحرري من تلك العقدة كان خليقاً بان يكون فائت الاوان حتى ولو اكتشفت مكاناً مماثلاً لمكان وصالي المبتور مع آنا بيل .. ذلك ان تحرري الحقيقي من تلك العقدة كان قد تحقق قبل وقت طويل .. عندما بدت لي لوليتا بعريها اول مرة عند حوض السباحة في بيتها يوم جئت استأجر غرفة عند امها . فقد كانت تجسد آنا بيل حبيبي الاولى ..

ونتيجة لذلك فقد تباعدت ولوليتا عن الشواطىء ذلك انها دائماً مدلهمة الجو عندما تكون هادئة خاوية ، ومكتظة بالناس عندما يشتد القيظ ..

وهنا يجب ان اشير الى خيبة املي باليراري الاميركية على الرغم من جمالها الوحشي الفتان ، ذلك ان العشاق من هواة المغامرات الغرامية في الهواء الطلق لن يجدوا فيها من السهل اليسير الانغماس بامان واطمئنان بمزاولة أقدم واعرق الجرائم

الاخلاقية في التاريخ الانساني ، فغالباً ما تلهب الاعشاب السامة
سيقان الحبيبات ، وكثيراً ما تلسع حشرات مجهولة
كل مكان مكشوف من الجسم .. اما ركبنا العاشق فان الحصى
يدميها .

ولعلي ابالغ بعض الشيء ، ولكن هذا بعض ما جرى لي مع
لوليتا في أصيل يوم صائف ، فقد وجدنا بقعة جبلية خلناها أمانة
اذ ترتفع مائة قدم عن المكان الذي اوقفنا فيه سيارتنا ؛ وقد
صعدنا اليها ولم نصلها الا وقد تقطعت انفاسنا ، وفي ظل صخرة ،
بدت كأنها تحجبنا عن الشمس وأعين الناس ، فرشت للوليتا
فراشاً من الأزهار والأوراق الجافة الناعمة ، فتعرت كتمشال
فينوس وأخذت تجوب المكان .. المكان الذي يبدو اميناً
مضموناً .. ولكن مع ذلك كاد امرنا ينكشف وبشكل وضع
حداً نهائياً لتوقي الى مزاولة الغرام في الهواء الطلق .

والحكاية ان العملية كانت قد انتهت تماماً وكانت للوليتا ترتقي
بين ذراعي متفجرة في عاصفة من البكاء والنحيب اثر احدى
نوبات المزاج الحزين العكر التي بدأت تفتابها في خلال تلك السنة
الرائعة التي لم يكن يعكرها سوى نوبات البكاء ..

فقد كنت قد قطعت لها وعداً سخيلاً حملتني على ان اقطعه
في لحظة من الشبق الاعمى الجارف ، فاخذت تنحب وتشق
وتقرص يدي المناسبة على جسدها بينما اخذت اضحك بسعادة
معتبراً هذه الموجة من مزاج لوليتا مجرد شامة سوداء في جبين
سعادتي الواضح . وبينما كنا مفترشين الثرى جنباً الى جنب

فوجئت باحدى تلك المفاجآت التي انتهت بزحزحة قلبي التعتيس من مكانه . فقد لاقت ابصاري عيونا سوداء ثابتة النظرات تطل من وجهي طفلتين جميلتين عرفت انهما توأمان من تشابه شعرهما الحال� المنسدل ومن خدودهما الشاحبة . كانتا تحملان باقات من الورود البرية وتحقدان بنا ، فسارعت الى اسدال الغطاء علينا بينما لمحت بين الأدغال شيئاً يتحرك تبين بعد برهة أنها أم الطفلتين التي كانت تقطف الورود وتحملها لهما ، ورأيت كيف ألقت علينا نظرة مسروقة من وراء ظهر طفلتيها الجميلتين .

بعد كثير من التجارب المختلفة التي اثقلت ضميري بت أعرف بانني رجل شجاع ، ولكنني ما كنت تلك الأيام عالماً بذلك ؛ ولذا اذكر بانني قد دهشت من رباطة جأشي في ذلك الموقف الحرج .. ذلك انني جعلت لوليتا ، بأمر همست به بالشكل الذي يهمس به الانسان الى حيوانه الاليف الوديع في لحظات المصائب ، تنهض من رقدها وجعلتها تسير بجانبني بكل وقار ونحن نخرج من ذلك المكان المفضوح لننحدر بغير وقار الى سيارتنا التي وقفت وراءها سيارة عائلية وجدنا حولها رجلاً ملتجئاً عليه سمة العلماء وهو يأخذ صورة تذكارية للوحة تشير الى ان ارتفاع المكان هو ١٠ آلاف قدم . وادركنا انه لا بد ان يكون رب العائلة التي اقتحمت علينا عشنا الجبلي .. وبينما اخذت ادير محرك السيارة بانفاس مبهورة متقطعة جلست لوليتا وهي تكل ارتداء ثيابها وطفقت تشتمني وتسبني بلفة لم احلم مطلقاً بان في وسع الفتيات الصغيرات ان يعرفنها .. وبالتالي لم

اكن اتصور بأنهن يستطعن استخدام مثل تلك اللغة قطعاً ! .
ان هناك غير-تلك الواقعة من الحوادث المزعجة التي صادفناها
ومنها ما حل بنا في احدى دور السينما .

فقد كانت لوليتا تكنّ غراماً حقيقياً بالسينما . فكنا نذهب
لمشاهدة الافلام دون تمييز ، واذكر اننا شاهدنا خلال ذلك العام
١٥٠ او ٢٠٠ فيلماً ، وكانت الافلام التي تفضلها تسير
حسب الترتيب التالي : فئة الافلام الموسيقية الاستعراضية ،
افلام المجرمين ثم فئة افلام الكوي بوي .

اما الفئة الاولى فمواضيعها محصورة في قصص عن حياة
مغنيات وراقصات حقيقيات يصادفن حياة مهنية غير حقيقية
في جو ممتع من الاحزان والمصائب وبشكل لا مكان فيه للموت
او الحقيقة .. وينتهي الفلم عادة برؤية كهل وديع النظرات هو
والد النجمة المسرحية الذي ظل متردداً في الموافقة على اشتغال
ابنته (الملحوسة) بالمسرح . وهو يصفق لنجاح ابنته وهي تؤدي
رقصاتها على مسرح فخم من مسارح بردواي .

اما مواضيع افلام عالم الجريمة السفلي ، فكانت تعرض عالمًا
قائم بذاته يعيش فيه صحفيون ابطال يلاقون التعذيب على
ايدي رجال العصابات ، ويطارد فيه شرطيون لا يعرفون
الخوف مجرمين عتاة في جو مثير عبر الاسطحة والازقة والمجاري ..
اما مواضيع افلام رعاة البقر (الكوي بوي) فتدور دائماً
في اطار ريفي ذي مناظر ساحرة .. وبشكل مفكك ساذج
يتميز يا شيا كلاسيكية : الفرسان الزرق العيون القبابة الوجوه ..

معلمة المدرسة الشابة التي وصلت بعربة البريد الى مدينة الحدود الجديدة .. الخيل التي تصهل ، المطاردة العنيفة .. اشهار المسدسات بخفة وبسرعة البرق .. الملاكمة الوحشية التي تبهر النفوس .. المعارك في الحانات والطرقات الخ .. والرفسات التي تصيب البطون .. والبطل الذي يتلقى من الضربات ما يكفي لادخال هرقل في المستشفى ومع ذلك نراه وما من ضير قد مسه او مس حتى هندامه ..

وفي صدد السينما اذكر أننا كنا في سينما خانقة الجو مزدحمة بالاطفال وبالانفاس الحارة التي تمازجها رائحة اليوبكورن (الذرة الصفراء المشوية) .. وكانت الشاشة تعرض منظراً يمثل المغني في ضوء القمر وقد امسك قيثاره واسند قدمه الى جذع شجرة وانطلق في اغنية عاطفية وعندما طوقت ببراعة كتف لوليتا وقربت خدي من خديها اخذ اثنان من الارزال يجلسان وراءنا يهمهان بكلام غريب ربما لم افهمه تماماً ولكنه جعلني اسحب ذراعي الحانية وانكفيء الى مقعدي وقد غامت انظارني .. وبالطبع لم استطع في تلك الحالة ان اتبين بعد ذلك مايجري على الشاشة ..

وهزة اخرى شرخيت فؤادي اذكرها تتصل بضاحية كنا نجتازها لئلا .. فقد كنت قبيل ان نصل اليها قد ذكرت للوليتا بان المدرسة النهارية التي سأدخلها اليها في «بيردسلي» هي مدرسة ثانوية ، ولكن التعليم فيها غير مختلط كما انه ليس فيها تلك الوسائل واللائحة الحديثة السخيفة... واذا سمعت لوليتا ذلك

عرضتني لحملة خشنه من الحملات التي درجت على ان تعرضني اليها مشفوعة بالتشهير والسب والاشتم والاهانة والكلام المبطن وبما ينم عن روح سوقية شريرة ويأس ساذج ..

راحت لوليتا تندفع في السباب والشتيمة .. صائحة في وجهي :

- سأكون بلهاء اذا اخذت رأيك على محمل الجد .. ايها القذر .. انك لا تستطيع ان تتحكم في .. انني اكرهك .. الخ .. ولكنني مضيت اقود السيارة بسرعة عبر شوارع المدينة النائمة عندما اوقفنا شرطيان سلطا مصباحيهما على داخل السيارة .. وتطلع الشرطيان اليها بفضول ودي فتغير وجهها المتجهم واكتسى ابتسامة ساحرة ، وردت عليها بنظرات حلوة حانية وبشكل لم تستجب بمثله قبلاً الى مغازلاتي وضوع رجولي .. ولا عجب في ذلك فقد كانت لوليتا من القانون اكثر خوفاً مني ، وتجاه هذه النظرات الرقيقة عفا الشرطيان عن تجاوزي الحد الاقصى للسرعة وتركاني استأنف السير .. وتطلعت الى لوليتا فوجدتها قد اسدلت اهدابها وهي تتظاهر بانها منهكة القوى متعبة الاطراف .

عند هذا الحد أشعر بانه يجب ان ادلي باعتراف غريب : قد تضحكون مني ولكنني في الواقع لم اعرف بالضبط الوضع القانوني لعلاقتي مع لوليتا ولست اعرف حتى اليوم وإن كنت قد اطلعت على شذرات تتعلق بالموضوع ، فمثلاً يحظر قانون ولاية آلاباما على الوصي تغيير مسكن الموصى عليه دون اذن من

المحكمة .. كما ان قانون ولاية مينيسوتا ينص على عدم تدخل القضاء في حالة قاصرة يأخذها في عهده قريب لها .. انني ارفع قبعتي تحية لهذه الولاية فبموجب قانونها لا خير في ان اكون وصياً اعيش لوليتا ..

ان الكتب القانونية عن الزواج والطلاق وتبني الأطفال وانتهاك الأعراض التي راجعتها في عدد من المكتبات العامة ، لم تفدني بشيء اكثر من ان الدولة هي المرجع الاعلى في حضانة القصر والوصاية عليهم .

وان بعض هذه الكتب لا يأتي اطلاقاً على ذكر الأمهات المتوفيات اللواتي يتركن لازواجهن بنات من أب آخر ..

وقد ذكر لي احد اصدقائي وهو يعمل في حقل الخدمات الاجتماعية في شيكاغو بانه ليس هناك من مبدأ قانون يحتم ان يكون لكل قاصر وصي وان موقف المحكمة سلمي في هذا الشأن فالقضاء لا يتدخل الا عندما تصبح حالة القاصرة خطيرة .

وخلصت من البحااث القانونية الى معرفة أن الوصي يعين عندما يعرب عن رغبته الجديدة الرزينة في ان يأخذ القاصر في عهده في معروض يقدمه الى المحكمة .. ولكن قد تمر اشهر قبل ان تعين المحكمة موعداً لجلسة النظر في طلبه .. وبانتظار ذلك تترك الطفلة القاصرة - فنياً - لشأنها تدبر امرها بامرها !.

واذ تعقد الجلسة فان القاضي يلقي بعض الاسئلة فيرد عليه محامي الوصي باجوبة مطمئنة .. وبعد ابتسامات مشفوعة بهزات من الرأس تعلن المحكمة موافقتها على الطلب .

كان هذا الاجراء سهلاً ولكنني مع ذلك ما تجرأت على ان اقدم عليه .. كنت كالفار المذعور .. هذا بالاضافة الى ان الاجراءات تطول حينما يكون للقاصر ارث ، وهكذا وجدت ان من الأفضل ان امتنع عن تقديم اي طلب متسائلاً طيلة الوقت عما اذا كنت لن اصادف قريباً فضولياً يتدخل قضائياً لاجل لوليتا او جمعية انسانية تقحم نفسها في الامر ..

اما جارنا و صديقنا المحامي «فارلو» الذي كان عليه ان يقدم لي النصح السديد ، فقد كان من الانشغال بالسرطان الذي بدء يصيب زوجته بحيث لم يستطع ان يفعل اكثر من قطع وعد بان يفعل ما طلبته اليه من الاهتمام بأرث شارلوت الضئيل الى ان اصحو من صدمة وفاتها .. ولقد استطعت ان احمله على الاعتقاد بأن لوليتا هي في الواقع ابنتي (غير الشرعية) ولذلك فليس له ان يزعج نفسه بوضعها القانوني .

انني كما يجب ان يكون القراء قد عرفوا ، رجل اعمال فاشل ولكن ما كان لجهلي او لتهاوني ان يمنعني من نشدان النصيحة القانونية المضبوطة .

ان ما منعني عن ذلك كان في الواقع شعوراً مقبضاً اوحى الي بانني اذا ما تدخلت في مشاريع القدر وحاولت ان افلسف عطاءاته وهديته الرائعة الماثلة في شخص لوليتا فان القدر سينزع هديته مني ..

لقد قررت ان ادخل لوليتا مدرسة البنات الثانوية في «بيردسلي» ، حيث سأعكف على مراجعة بعض المراجع القانونية

حول الوصاية على القصر ، وقررت كذلك ان اي شيء من العلم في تلك المدرسة سيكون افضل للوليتا من البطالة المضرة التي تحيا فيها . وكان بوسعي ان اقنعها بكثير من الاشياء ولكنني كنت دائماً اخفق معها حاججت وغضبت وصحت في ان احملها على قراءة اي كتاب خلاف كتب الجرائم المصورة والمجلات النسائية والسينائية .. فقد كانت ترفض قراءة اية رواية تثقيفية بحجة انها لا تريد ان تفسد بهجة عطلتها بقراءات ثقيلة الظل .. والواقع انني ارتكبت خطيئة فاحشة اذ قررت ان نتجه شرقاً وان ادخلها المدرسة في بريدسلي بدلا من ان غضي متجولين في منطقة الحدود لنعبرها الى المكسيك حيث كان باستطاعتنا ان نعتزل الحياة في جو من النعيم ، وفي بقعة جميلة معزولة الى ان استطيع الزواج بكل اطمئنان من معذبتني الصغيرة ، ذلك لانه يجب ان اعترف بانني بالاعتماد على غددي وافرازاقي كنت خليقاً بان انتقل في يوم واحد من مرحلة جنون الى اخرى .. جنون يتأتى من تفكيري بأن علي في حوالي عام ١٩٥٠ ان اتخلص من مرافقة صعبة المراس تبخر منها طابعها كحورية مسعورة .. وجنون يتأتى من التفكير باني بمساعدة من اصطباري وحظي الطيب قد استطيع ان املأ أحشاءها بجنين سيتحول الى حورية مسعورة فتكون لوليتا الثانية في الثامنة او التاسعة من عمرها عندما نصل الى عام ١٩٦٠ حيث سأظل قادراً . ان امثل معها دور الجدد الذي يحتضنها بوصايتها .. الجدد الذي هو انسان لا يزال ازرق الناب اخضر القلب ..

اجل كانت هذه الفكرة تثير جنوني .. وكنت ارى
الاحتمال واضحاً في احلام يقظتي وبمنظار لاعقلاني يسلطه ذهني
على المستقبل .

على انني اشك في انني لم اكن خلال رحلتنا المحمومة تلك اباً
لوليتا يدعو الى السخرية ..

بيد انني بذلت من اجل ان ابدو اباً ناجحاً خير جهدي
فقرأت وأعدت قراءة كتاب «اعرف بنتك» الذي اشتريته من
ذات المكتبة التي اشتريت منها لوليتا نسخة من كتاب «حورية
البحر» لاندرسن بمناسبة عيد ميلادها الثالث عشر .

ولكن حتى في احسن ساعات علاقاتنا عندما كنا نجلس
لنطالع في يوم مطير كانت لوليتا تبدو ضجرة تنقل ابصارها الملولة
بين النافذة وبين ساعة معصمها او تنزل الى مطعم الفندق لتناول
وجبة ضخمة او تلعب بالورق .. فاذا سمح الوقت تركتني وذهبت
تتسوق .

في كل تلك المناسبات بدوت لنفسي اباً يدعو الى النفور
مثلاً كانت لوليتا تبدو ابنة مستهجنة بحيث كنت اتساءل اذا لم
تكن عقدة الشعور بالذنب هي المسؤولة عن فشلنا في تمثيل دور
الاب والبنت ، كما كنت اتساءل اذا كان الحال سيتحسن اذا
استقرينا في منزل واستقرت لوليتا على نوع رتيب من الحياة
المدرسية ؟

ان اختياري لمدينة «بيردسلي» لم يكن يستهدي فقط حقيقة
ان المدينة ذات مدرسة خاصة بالاناث ولكن كان يستهدي كذلك

حقيقة انها ذات كلية للبنات فيها استاذلغة الفرنسية كنت اعرفه
و كنت ارجو من وراء معرفتي له ان اوfer لنفسي طابعاً شخصياً
يسترنى عن طريق اقناعه باستخدام مؤلفي عن اللغة الفرنسية
ويدعوني احياناً لالقاء محاضرات في الكلية .

ولم اكن بالفعل احب ان افعل ذلك فلقد عرف القراء اني
اكره الفتيات اللواتي يتجاوزن سن المراهقة اذ يبدين في نظري
كانصاف العجول .. وأرى فيهن توابيت حية وئدت فيها
مراهقات .. مراهقاتي اللواتي اهم غراماً بهن .. إلا اني كنت
اتحرق الى طابع يسترنى ويضفي علي الحماية من الفضول ..

واخيراً كانت الناحية المالية تدفعني الى ذلك فقد اخذ
رصيدي ينضب . ذلك انه على الرغم من حرصي على النزول
في ارخص الفنادق فان برنامجنا كان يحفل بين الفينة والاخرى
بالحلول في فندق ممتاز فخم او في مضافة ريفية تزعم انها للطبقات
الراقية . وكان هذا يخلل ميزانيتي بالاضافة الى ما كنت انفقه
على الجولات وعلى شراء الملابس للوليتا وتصليح السيارة من
حين الى آخر .

لقد تركت لي سلطان السجن الخريطة التي كنت استعين
بها على تنقلاتنا ووجدت عليها ملاحظات منها اننا انفقنا من
آب (اغسطس) ١٩٤٧ الى آب ١٩٤٨ على المأوى والمأكل
٥٥٠٠ دولار وعلى البنزين واصلاح السيارة ١٢٣٤ دولاراً وكل
ذلك في ١٥٠ يوماً من السفر الفعلي و ٢٠٠ يوم من الراحة
والاستجمام في الفنادق .. بل كلفني الامر عشرة الاف دولار

لاني نسيت تسجيل الكثير من النثریات .

ويجب ان اشير هنا الى اننا كلما مضينا في رحلتنا شرقاً كان ارضاء شهوتي يزيدني استعاراً بدلاً من ان يهدىء من امري بينما كانت لوليتا تزداد تألقاً بالصحة والنضارة ؛ وبينما ظلت تحتفظ بمظهرها الصبياني على الرغم من انها ازدادت طولاً بوصتين وزادت وزناً اربعة كيلوغرامات ..

لقد زرنا كل مكان الا اننا عملياً لم نر شيئاً .. واني لاضبط نفسي اليوم وانا افكر في انه لم يكن لرحلتنا الطويلة سوى خط جنسي طويل انسابت عليه ، وفي ان محاريب الطبيعة ومرافق الريف الجميلة لم تكن بالنسبة اليها سوى خطوط على الخرائط وكلمات في دليل السياحة .. وسوى ذلك النحيب الذي كانت تصدره لوليتا ليلاً .. أجل كانت تنتحب ليلاً .. كل ليلة في اللحظة التي أظهار فيها بالنوم .

- ٤ -

عندما وصلنا الى نهاية ١٤ شارع تاير استقبلنا شاب وقور بالمفاتيح وبمذكرة من صديقي غاستون معلم اللغة الفرنسية في كلية بيردسلي الذي استأجر المنزل من اجلنا . ومن دون ان تتنازل بالقاء نظرة على بيتنا الجديد اندفعت لوليتا تدير الراديو الذي قادتها غريزتها اليه واستلقت على الارصفة المجاورة وتناولت حزمة من المجلات القديمة بحركة آلية من طاولة قريبة .

والواقع انه لم يكن يهمني اين نسكن ما دمت استطيع ان احبس حبيبتي في مكان ما ولكنني اعتقد بانني في خلال مراسلتي مع غاستون قد تصورت ان البيت الذي سيستأجره لنا سيكون ذا سقف قرميدي احمر ومظهر براق .. اما البيت الذي استأجره فعلا فقد كان يحمل نفس طابع بيت شارلوت هيز القديم .. الطابع المضجر القاتم بل حتى اثاث الغرف كان مرتباً بطريقة تشابه ترتيب اثاث بيت ام لوليتا وان كان هذا الاثاث احدث واجمل .

وتبين لي ان غرفة مكثتي في البيت هي صالون طويل يمتاز برفوف طويلة من الكتب الكيميائية .. فقد كان صاحب المسكن استاذاً للفيزياء والكيمياء في الكلية وقد غاب في اجازة طويلة فأجرتني غاستون بيته .

لقد رجوت ان توفر مدرسة الاثاث في بريدسلي بعض الثقافة لعقول الطالبات مثلاً توفر لهن نمواً طيباً لاجسامهن بفضل ملاعبها الفسيحة وطعامها الغني بالفيتامينات .

اما غاستون الذي قلما كان مصيباً في الحكم على المناقب الامريكية فقد حذرني من ان الكلية قد تتكشف عن كلية من السكليات التي تعلم طالباتها :

« وليس ضرورياً ان تهجي جيداً انما من الضروري ان تتذوقي جيداً » .. ومع ان غاستون كان مصيباً هذه المرة فاني لا اظن بان تلك الكلية قد حققت حتى الهدف الاخير . اذكر ان مديرة الكلية السيدة برات قد عبرت للوهلة

الاولى عن حبها لعيني ابنتي لوليتا الزرقاوين الوديعتين .. كما
اعربت عن اعجابها بذلك « الفرنسي العبقري » غاستون ..
وما لبثت ان سلمت لوليتا الى المعلمة الآنسة كورموران ورفعت
حاجبها كما لو كانت تحصر فكرها ومضت تحضرني قائلة :

« اننا غير مهتمين كثيراً بان نجعل طالباتنا من مدمات
القراءة .. ولا يهمننا كثيراً ان يستظهرن اسماء عواصم اوروبية
لا يعرفها احد على اية حال ، كما لا يهمننا ان يستظهرن اسماء
وتواريخ معارك منسية ، انما نهتم كثيراً بتهيئة البنت لحياة
الجماعة ولهذا فنحن نشدد في برامجنا على تعليمهن قواعد ما
نسميه الدالات (جمع دال) الأربع الا وهي :

المسرح التمثيلي والمراقبة والمناقشة والمواعدة .

اننا نواجه في برامجنا حقائق الحياة الواقعية فمثلاً ستدخل
ابنتك الظريفة قريباً في مرحلة من عمرها تعني فيا المواعيد
والمواعدة والملابس التي ترتديها في مواعيدها الخ .. نفس ما
تعنيه الصلات التجارية والنجاح التجاري لرجل اعمال مثلك
ونفس ما تعنيه لي شخصياً (قالت هذا وهي تبتسم) سعادة
طالباي ..

ان ابنتك لوليتا تعيش في نظام من الحياة الاجتماعية يقوم
شئنا ام لم نشأ على محلات بيع الساندويتش وعلى مقاهي البوظة
ودور السينما والمراقص ونزهات البلاج .. والحفلات الراقصة !
وبالطبع فاننا في كلية بيردسلي لا نقر بعض وجوه هذا
النشاط ونعمل على توجيه اوجه النشاط الاخرى وجهات بناءة

الا اننا لا نحاول ان ندير ظهورنا لقرص الشمس الساطع ولا نحاول التعامي عن الحقائق .. وبالاختصار فاننا بيننا نطبق بعض الفنون التعليمية فاننا نهتم فوق كل شيء بالصلات الاجتماعية .

وهكذا فمع الاحترام الواجب لشكسبير وغيره نريد لبناتنا ان يتصلن بحرية مع العالم الحي حولهن بدلاً من الانغماس في كتب صفراء قديمة ولعلنا لا زلنا في ذلك نتعثر ونحن نتحسس طريقنا ولكننا نفعل ذلك كما يتحسس الطبيب الورم ..

اننا يا حضرة السيد نفكر بمعايير التنظيم والوظائف العضوية النظامية وقد تخلينا في ذلك عن اكوام من المواضيع الزائدة عن اللزوم والتي تحشى بها عادة دراسات البنات وعقولهم بحيث لا يبقى لديهن مكان لتعلم قواعد الحياة وفنونها وتعلم الآراء التي تساعدن في ادارة حياتهن الزوجية وفي ادارة حياة ازواجهن وتوجيهها كما قد يضيف الساخرون ولنعرض يا سيد همبرت الوضع كما يلي :

انه من الهام أن تعرف البنت الثقافة الرفيعة ولكنه يظل من الأهمية بالنسبة لربة المنزل ان تعرف احسن بقعة عملية لوضع البراد في مطبخها .

انك تقول ان كل ما تتوقع من البنت ان تكسبه من المدرسة هو ثقافة صحيحة ولكن ماذا تعني بكلمة ثقافة ؟
لقد كانت الثقافة في الايام الخالية تعني طاقة خارقة على الاستظهار فكنت تستطيع ان تعلم البنت ان تستظهر دائرة

معارف ضخمة وتستطيع ان تحشو مداركها بحيث تعرف اكثر مما تستطيع المدرسة تقديمه لها من تعليم .

ولكن هل تستطيع ان تدرك يا دكتور همبرت ان تواريخ وقائع القرون الوسطى هي بالنسبة لطفلة في عشية المراهقة اقل اهمية وقيمة من مواعيدها مع رفاقها يوم العطلة ؟

اننا لا نعيش فقط في عالم من الافكار بل نعيش كذلك في عالم من الاشياء والكلمات التي تخلو من التجارب وتكون عديمة المعنى .. فبحق السماء ماذا يهم لوليتا همبرت من اليونان ومن بلاد الشرق بقصور حريمها وارقاتها ؟ ..

كانت هذه هي خلاصة محاضرة المديرة عن برنامج مدرستها وهو برنامج افزعني في الواقع فلم اطمئن الى أمر ثقافة لوليتا الا بعد حديث مع سيدتين لها صلة بالمدرسة أكدتا لي بان البنات يقرأن الكثير من الكتب السليمة المفيدة وان قصة « وصل البنات بالحياة وصلا عملياً » ليست سوى دعاية صاحبة فارغة ترمي الى تبرير زيادة الاقساط المدرسية والى اعطاء هذه المدرسة القديمة الطراز طابعاً حياً حديثاً .

وثمة سبب آخر جذبني الى هذه المدرسة قديبدو مضحكاً بالنسبة لبعض القراء ولكنه كان سبباً هاماً في نظري فهكذا انا .

اما السبب فيكمن في انني لاحظت ان امام بيتنا فرجة تطل على ارض عراء معشوشبة ذات خماثل ملونة ، ويمكن للمرء ان يرى منها جانباً من المدرسة ! ! فبالاضافة الى الراحة

النفسانية التي توفرها تلك الفرجة اد تصلني بصرياً بلوليتا في
نهاراتها المدرسية فاني احسست سلفاً باللذة التي سأعانيها اذ
سأستطيع ان اميز من غرفة نومي بواسطة منظاري القوي
العدسات النسبة العددية للحواريات المسعورات بالشبق من بين
البنات اللواتي يلعبن مع لوليتا اثناء الفرصة بين الدرس
والدرس .

ولكن سوء الحظ شاء ان يأتي العمال في اول يوم دخلت فيه
لوليتا المدرسة وان ينصبوا حاجزاً حول الفرجة حيث باثروا
فوراً حفر الاسس ثم اخذوا يشيدون بناء ضخماً ما لبث بعد
قليل ان ارتفع واخفى المدرسة وراه حاجباً مجالي البديع .

- ٥ -

في شارع يدعى شارع ثاير في منطقة البيوت ذات الحدائق
الخضراء من تلك المدينة الجامعية لا بد للساكن الجديد من ان
يتعرض لأطلالات من الجيران الممتازين .. وقد حرصت على ان
اضبط علاقاتي معهم بشكل يبعدني عنهم . ولكن دون ان
اتحاشن في تصرفاتي حيالهم .

فكان بجاري من ناحية الغرب يوجه لي الكلام احياناً حول
مواضيع للساعة الحاضرة وهو يغسل سيارته او يشذب الجمائل
في حديقته فلم اكن ارد عليه سوى بهيمة مهذبة لا يثبن منها
اذا كنت أوافقه الرأي او اخالفه فيه . وكانت تسكن في

البيت المقابل استاذتان للغة الانكليزية هما المس ليستر الممتلئة
القامة القصيرة الشعر ، والمس فابيان ذات الانوثة الداوية ..
ولم تكن العانستان تتحدثان معي الا حديثاً مقتضباً اذ تمران
بجديقتي .. وكان الحديث دائماً يتناول (بارك الله فيها) حلاوة
ابنتي .. لوليتا ولطف غاستون الساحر ..

اما جارتى من الناحية الشرقية فكانت اشد الجيران
خطراً .. انها امرأة ذات انف معكوف كأنف الصقر وطبيعة
فضولية .. وانني لاذكر كيف رأيتها تكنس لوليتا بانظارها
وانا وراء نافذة غرفة الاستقبال انتظر محمواً عودة حبيبتي من
مدرستها . ورأيت كيف حاولت العانس البشعة ان تخفي
فضولها الجارح وراء ستار كاذب من الحنان والطيبة اذ وقفت
متكئة على مظلتها (فقد كان المطر قد توقف عن الهطول لتوه)
بينما كانت لوليتا قادمة مفتوحة الياقة تحدياً للطقس تحمل كومة
من الكتب اسندتها الى بطنها بينما كان الهواء القارس قد جعل
الاحرار القرمزي ينتشر في الجزء المكشوف من ساقها .

اعترضتها الجارة الشرقية بابتسامة مخاتلة اشرقت على وجهها
ذي الانف المعكوف وسألتها بصوت حاولت ان تجعله رقيقاً :
- وأين امك يا عزيزتي ؟ وماذا يعمل والدك ؟ واين كنتما
قبلاً ؟ والى غير ذلك من الاسئلة .

وذات مرة اعترضتني هذه الجارة الكريهة بابتسامة مرحبة
ولكنني تهربت منها . وبعد ايام جاءتني رسالة منها تقطر حلاوة
وسماً في آن واحد فقد اقترحت فيها ان تزورها لوليتا يوم

الاحد لتتفقد « الكتب الجميلة التي اورثتها لها امها بدلاً من ان تفتح الراديو على مداه طيلة النهار وحتى ساعة متأخرة من الليل » .
ثم كان عني ان اكون شديد الحذر من المسز هوليفان الغسالة والطباخة التي ورثتها مع المكنسة الكهربائية من الساكن السابق .
ولما كانت لوليتا تتناول طعامها في المدرسة ، فلم يكن هناك ما يخشى منه من فضول الطباخة اذ كنت اعد لها العشاء الذي تطبخه المسز هوليفان قبل ان تنصرف .

لقد كانت الطباخة ذات غشاوة في النظر فلم تكن تلاحظ التفاصيل لحسن الحظ ، وكنت اصبحت خبيراً في ترتيب الفراش فلم اترك لها فرصة للشك في ان هذا الفراش هو مسرح لنشاط غير ابوي .. ومع ذلك فقد كان يلازمني الخوف من ان تكون ملاءة السرير قد تلطخت ببقعة مريبة لم استطع مسحها او ان ينزلق لسان لوليتا ببساطة اثناء حديث مع المسز هوليفان في المناسبات النادرة التي تكون فيها لوليتا في البيت مع الطباخة .

غالباً ما كنت اشعر بانني اعيش في بيت مضى من زجاج وان وجهاً فضولياً سيطل عبر نافذة اهملت تغطيتها بالستائر ، كما يحظى بنظرة جرة يكشف فيها شيئاً مثيراً من الاشياء التي يكون المتلصص ، من اجل التلذذ بالتلصص عليها ، مستعداً لدفع ثروة صغيرة .

يجب ان اخص غاستون غودان بكلمة ..
ان السبب الرئيسي في تمتعي برفقته واحتمالي صحبته بارتياح ،
هو ذلك الشعور بالاطمئنان المطلق الى ان شخصه يلقي ظلاً
يحجب سري ..

وعلى كل فان لم يكن يعرف ذلك السر ، فلم يكن لدي
من سبب خاص يدفعني الى ان أأتمنه عليه ، وكان من الحيلاء ،
بحيث لم يكن بوسعه ان يلحظ شيئاً او يشك في شيء من شأنه
ان يؤدي الى صدور سؤال صريح منه يتطلب جواباً صريحاً
مني بشأن علاقتي مع لوليتا .

لقد كان غاستون يمتدحني لدى الناس ، وكان بذلك داعيتي
الطيب ، ولو انه اكتشف خفايا ميولي ووضع لوليتا في كيان
حياتي ، لما كان قد اهتم بالأمر الا من حيث ايضاحه لبساطة
موقفي حياله .. هذا الموقف المئز عن التأدب والرسيمات
المصطنعة .. ذلك انه كان يعلم انني اعرف عنه اكثر مما يعلم سكان
بيردسلي ، وانني افهمه اكثر من فهمهم اياه .

كان رجلاً عازباً مثقفاً غريب الاطوار ساحر السجاياء، وكان
دائماً يرتدي الشاب السوداء القائمة ونادراً ما كان يستحم ، وكان
الجزء الادنى من جسمه يتميز بتضخم لا يتناسب مع نحافة الجزء
العلوي ، ومع ذلك فقد كان الجميع على الرغم من غرابية اطواره
يعتبرونه شخصية ساحرة خليقة بان تحب .. وهكذا كان الجيران

كلهم يدلونه، وكان يعرف جميع أطفال الحي ويناديهم بأسمائهم،
وكانوا يتطوعون لتنظيف حديقته وحمل الحطب اليه من الغاب
المجاور مقابل ما يوزعه عليهم من حلوى وشوكولاته .

وكان بيته يحتوي على ستوديو فسيح زين جدران به بصور
كبيرة لأندريه جيد وتشايكوفسكي وجان كوكتو ونورمان
دوغلاس .. ومارسيل بروس .. فأعطى لنفسه مظهرًا ثقافيًا
دوليًا عميقًا .. وأعطى لبيته جوًا مريحًا .

إلا أنني لأسباب بدئية كنت أفضل أن الابعه الشطرنج في
بقي مرتين أو ثلاث مرات في الاسبوع ..

وكننت في بعض الأحيان اسمع ونحن مستغرقان في اللعب
وقع قدمي لوليتا العاريتين على البلاط وهي تقوم بتأريتها الراقصة
في غرفة الجلوس ، ولكن غاستون لم يكن يلحظ شيئاً فقد كان
اللعب يستغرق كل حواسه ، فلا يحس بوقع خطوات لوليتا وهي
تقتل وتدور وترفع ساقاً وتخفض أخرى وتثني وتتايل بعريها
وسط الأثاث البارد غير المتجاوب .

وفي بعض الأحيان كانت لوليتا تطل علينا ونحن منحنيان
على لوحة الشطرنج وتأمل غاستون وهو مستغرق النظرات في
قطع الشطرنج ، بينما يد لها يدًا باردة لمصافحتها دون انتباه
اليها واذكر انه ذات مرة قال لي بين نقلتين من نقلات الشطرنج:
- وكيف حال بنائك ؟ ..

ولا بد انه في استغراقه قد ظن لوليتا اكثر من واحد ،
ذلك انها كانت تطل كل مرة بزي جديد .. مرة مرتدية السراويل

الرجالية .. ومرة التنورة الرياضية .. ومرة المايوه ومرة ثوب الكوكتيل .

انني اكره ان اطيل الكلام في هذا المخلوق التعيس الذي سافر الى اوربا بعد عام ولم يعد منها فقد تورط في مشكلة قدرة في نابولي .. كشفته في اوربا ، بينما لم يستطع احد ما ان يكشف شذوذه في بريدسلي على الرغم من انه كان مجرداً من اية موهبة وعلى الرغم من انه كان استاذاً رديئاً ومن انه كان يحتقر طريقة الحياة الامريكية ويفخر بحبه للغة الانكليزية .. فكان يعيش عيشة ملكية يدللها الكبار ويتمتع بالصغار .. ويخدع كل الناس .. اما انا الأفضل والأكثر ثقافة والاذكى .. فقد كشفت واتهمت ..

- ٧ -

انني الآن اواجه مهمة مقرفة .. هي مهمة تسجيل هبوط في مستوى اخلاق لوليتا .. ذلك انه اذا كان نصيبها في المتع الدافئة والرغبات الحارة التي كانت تتوقد فيها لم يرق ابدأ الى كمية كبرى فان الصافي من كسبها المادي الحرام لم يكن كذلك شيئاً مذكوراً .

الا انني كنت ضعيفاً معها ولم اكن حكيماً فاستعبدتني هذه التلميذة المراهقة . فقد ازدادت صبوتي اليها وازداد عذابي بتضاءل وانكماش العنصر الانساني في علاقتنا واستثمرت لوليتا صبوتي وعذابي أسوأ استثمار .

كانت الخرجية الاسبوعية التي تأخذها مني بشرط ان

تؤدي واجباتها الاساسية معي تبلغ ٢١ سنتاً في بدء اقامتنا في بيردسلي ، ثم ما لبثت ان وصلت الى دولار وخمسة سنتات قبل انتهاء اقامتنا .. وكان هذا ترتيباً اكرم مما يجب نظراً لما كانت تتلقاه باستمرار من مختلف انواع الهدايا مني ، بالاضافة الى الزهات ودور السيما والحلوى .. ولكنني بالطبع كنت اطلب اليها احياناً قبلة اضافية أو « مجموعة كاملة » من المداعبات .. الا انها لم تكن اطلاقاً سهلة المراس .. فلم تكن تبذل ادنى جهد لتستحق خرجيتها اليومية احياناً بل كانت تتكشف عن مساومة قاسية ، حينما ترى ضعفي وتهلكي على ان أنال منها ما لا يستطيع ان اصبر بدونه في جو حياتنا المتوتر المحاط بالخوف .. فكانت تتعنت في شروطها من اجل ان تمنحني ما لم اكن يستطيع ان اناله منها قسراً .

ولقد استطاعت في احدى المرات اذ أدركت قوة سحرها الرطيب ان ترفع ثمن المعانقة الى ثلاثة بل الى اربعة دولارات .. لا تضحك ايها القاريء العزيز وانت تتصورني في حالة محومة من الشبق وانا اخرج من جيبي قطع النقود المعدنية واكومها في يد لوليتا لأشتري رضاها ..

وكنت دائماً احاول بعد ان اقضي وطري ان استرجع بالقوة ما تمسكه في راحتها من قطع النقود .. كما كنت افتش بين كتبها ودفاترها وفي مخابثها المألوفة عما تكون قد خبأته من قطع نقدية فاستعيدها ، واذكر ذات يوم انني اكتشفت ٢٤ دولاراً مخبأة في ثقب تحجبه احدى صور الصالون ، ولما اكتشفت لوليتا الأمر

في اليوم التالي اهتمت امامي الطباخة الامينة المسز هوليفان بانها
لصة قذرة .

على ان لوليتا سرعان ما ارتفعت الى مستوى غرائز دهائها
الفطري فوجدت نخباً أفضل لم استطع ان اكتشفه ، ولكنني
كنت قد خفضت اسعار عطاياها الدافئة تخفيضاً جذرياً بواسطة
تصعبي معها تصعباً شديداً قبل اعطائها اذنأ كتابياً بالاشتراك
في برنامج المدرسة المسرحي .. ولم اكن اذ خفضت خرجيتها
اخاف أن تفلسني بما تستجره مني من مال ، انما كنت اخشى
ان تقتصد وتجمع مبلغاً من المال يكفيها للهرب مني .

بل انني لا اعتقد بان تلك الطفلة ذات النظرات الثاقبة قد
تصورت بأنها تستطيع اذا اقتصدت خمسين دولاراً ان تصل
بواسطتها الى هولود او برودواي .. لتحاول تحقيق حلم يحول
في صدر كل مراهقة .. حلم الظهور في السينما او التمثيل على
المسرح .. فان لم يكن فان المجال مفتوح لتعمل في بار أو ملهى ،
حيث الحياة تبدو سهلة ممتعة مليئة بالرجال الرسميين والسيارات
الفارهة والنزهات القمرية ..

- ٨ -

حضرات القضاة :

لقد بذلت خير جهدي لمعالجة مشكلة الأطفال المراهقين
ولمعالجة مشكلة علاقات لوليتا مع اولئك الشباب ، بل حتى انني
اخذت اقرأ العمود المخصص للمراهقين في جريدة (بيردسلي ستار)

لاستهدي منها كيف يجب ان أتصرف . واذكر مما قرأت
المقال التالي :

« كلمة الى الآباء : لا ترهبوا صديق ابنتكم وتحملوه على تجنبها ..
قد يكون من العسير عليكم ان تدركوا ان الأولاد يجدونها
الآن جذابة .. فبينما لا تزال بالنسبة اليكم مجرد طفلة صغيرة
يراهم الاولاد لطيفة ساحرة مريحة وممتعة ولذا فهم يهونونها
ويغزونها .

ايها الأب انك الآن تحتل وظيفة كبيرة في شركة ما، ولكن
تذكر أنك لم تكن بالأمس سوى الطالب الجامعي جيم .. يتطوع
لمحل كتب زميلته جين ..

أتذكر ذلك ؟ ثم ألا تريد ان تكون ابنتك (وقد جاء
دورها الان) سعيدة بما تلقاه من اعجاب رفاقها الشبان الذين
تودهم ؟.

ولماذا لا تعامل ابنتك الشابة كضيفة في بيتك ؟.

ولماذا لا تسليها بالاحاديث ؟ ولماذا لا تخرجها من تحفظها
معك وتجعلها تشعر بارتياح معك ..

... إذا خالفت ابنتك القواعد وشدت عن الآداب فلا
تنفجر فيها امام شريكها في الجريمة بل دعها تنال رذاذ غضبك
في خلوة وعلى انفراد .. وعليك ان تكف عن جعل أصحابها
الشبان يشعرون انها ابنة غول عجوز ..

هذا بعض ما كنت اقرأه من نصائح .. ولكن الغول العجوز
الذي هو انا، قد وضع قائمة بما هو ممنوع قطعاً على لوليتا وبما

مسموح لها مع شيء من التردد .

أما رأس قائمة المنوعات فكان : المواعيد مع الشبان ، سواء كانت لوحدها أو مع رفيقة لها وسواء كان الموعد مع شاب واحد أو شابين أو ثلاثة في آن واحد.. فمثل هذه المواعيد تبدأ بنزهة خلوية أو حفلة بيتية كخطوة أولى ، وتنتهي الى تهتك جماعي.. ولكنني اسمح لها بالذهاب مع رفيقاتها البنات الى دكان الحلوى ، حيث يخضن حديثاً مغناجاً مع من يكون فيه من شبان صغار ، بينما كنت اراقبهن في سيارتي من مسافة مأمونة . لقد وعدتها بان انظر في مسألة السماح لها وهي بعد طفلة في الرابعة عشرة من عمرها أن ترتدي ثوب الرقص الرسمي (نوع من الثياب يجعل المراهقات الصغيرات يبدون كطيور البجع) هذا اذا دعيت ورفيقاتها من مجموعة مقبولة اجتماعياً من الشبان طلاب جامعة بطار لحضور حفلتهم السنوية الراقصة (هذا بشرط ان تذهب معهن المدرسات المشرفات عليهن بالطبع) ووعدتها كذلك بالسماح لها باقامة حفلة راقصة في بيتنا تدعو اليها رفيقاتها الظريقات والشبان الاكثر ظرفاً الذين تكون قد تعرفت عليهم في حفلة جامعة بطار .

ولكنني كنت مصرراً طالما ظل النظام الذي وضعته لحياتنا قائماً على ألا اسمح لها اطلاقاً بان تذهب مع أي شاب الى حفلة ملامسات في السينما أو نزهة معانقات في السيارة ، أو الى حفلات راقصة تقام في بيوت زميلات دراستها ، أو ان تدرج على التحادث هاتفياً مع الشبان الا في مدى مسامعي .

لقد اغضبت هذه القواعد لوليتا وأثارت ثائرتها علي ودعتني بالمحتال القذر واسوأ ذلك من النعوت ، وقد كنت خليقاً بأن افقد سيطرتي على أعصابي حيال شتاؤها ، لولا انني اكتشفت بأنها لم تكن غاضبة فعلاً لحرمانني اياها من اشياء معينة ، انما لحرمانني اياها من حق عام .

وهكذا كنت متمسكاً بالبرنامج التقليدي لما هو مألوف من التصرفات وما هو مسموح به ، حسب العرف القديم ، فبهذا البرنامج تكون البنت اكثر تحفظاً من أي مخلوق ، مهما كانت مسعورة بالشبق .

أرجوكم ألا تخطئوا فهمي ، فأنا لا استطيع أن اجزم بأنها لم تستطع في خلال الشتاء ، ان تتصل اتصالات غير سليمة وغير نظيفة مع شبان لا أعرفهم ، فلا بد مهما كانت رقابتي من وجود ثغرات تنفذ منها الى اساءة استخدام وقتها .. ولكنني استطيع ان اقسم بأنها لم تفعل شيئاً يدعو الى ذعر جدي .

أجل لقد كنت اشعر بأنها لم تخفي خيانة جدية ، وما كان شعوري لأنني لم اجد من يستأهل مزاحمتي من الشبان الذين يحومون حولها ، والذين يتراوحوون من صنف المغرمين بمداعبة الايدي والمعانقات في البوابات الى صنف الداعرين الواثقين بأنفسهم محترفي اغتصاب الفتيات في سياراتهم الرياضية الانيقة ، بل لأنني وجدت أن هؤلاء الشبان يبعثون الضجر في عشقتي الصغيرة المخلقة .

وعلى العموم فقد بدت لي أحسن تكيفاً مع وسطها ، مما

كنت أرجوه ، عندما كنت افكر بكيفية افسادها وأنا بعد
نزيل بيتها البرى ، ثم زوج امها الطموح .

ومع انني لم استطع الاعتياد على حالة القلق الدائمة في حياتي
العظيمة الاثم ، فانني كنت أشعر بأنني أبذل خير جهدي
لمحاكاة وضع الأب وتمثيل دوره ، وكنت كل يوم أثر موجة من
القنوط تعقب رحيل لوليتا الى المدرسة بعد « وصلة التعبد
الصباحية » كنت استلقي كل يوم على فراشها البارد واستعرض
أحداث اليوم الفاتت وأتفقد صورتي ودوري فيها ، كما كان
وليس كما كنت أرجو .. لقد كنت أتصرف معها تصرف
الأب الطبيعي فأخذها لنزهات بريئة وللسينا وأحياناً للمطاعم
والمكتبات .. واحادثها كما يحادث الأب ابنة ملزم بمرافقتها .

- ٩ -

وجدتُ رفيقاتها اللواتي طالما تقت الى التعرف عليهن ،
وجدتهن مخيبات للظن .. رأيت « اوبال » فتاة خجولة عديمة
الشكل ترتدي نظارة طبية ، ورأيت وعرفت ليندا هول بطة
التنس في الكلية وشككت في كونها حورية مسعورة عن حق
وحقيق ، ولكنها لأسباب مجهولة لم تأت الى بيتنا ، وربما منعت
من ذلك ولذا فلست أذكر منها سوى صورة غائمة لا تكشف
شيئاً كخيطة من شعاع الشمس تسلل الى غرفة معتمة . وكانت
بقية رفيقات لوليتا من العاديات باستثناء ايفا روزون التي كان
بوسعها ان ترتقي الى مصاف الحوريات المسعورات بالشبق ..

فقد كانت لاجئة من فرنسا ، وكانت من جهة اخرى مثالا صالحا للفتاة ذات الجمال غير الصارخ ، ولكنها كانت تتكشف أمام العين الخبيرة عن أنها تمتلك العناصر الأساسية لسحر المراهقات المسعورات ، وذلك بوجهها الصدياني وعينيها الناعستين ووجنتيها البارزتين ، وكان لشعرها النحاسي نعومة شعر لوليتا ، ولكن ملاحظتها كانت أقل خبثاً من مثيلاتها .

وكننت أحداثها بالفرنسية فأثير استياء لوليتا وكان سلوكها لم يزل نظيفاً يدعو للاعجاب ، ولكنها تأثرت بعالم المدرسة ، فكانت تفلت منها كلمات سوقية امريكية بلهجة قبضايات بروكلين مما كان يبدو طريفاً في فتاة فرنسية تتعلم في مدرسة أمريكية مختارة محافظة ..

ولسوء الحظ اسقطت لوليتا لأسباب مجهولة الفتاة الفرنسية من قائمة صديقاتها (على الرغم من أن عمها مليونير !) قبل ان يتاح لي التمتع بوجودها وبتردها على حديقة بيتنا .

ولعل القارئ يعرف أية اهمية أعلقها على أن تحيط بلوليتا حوريات مسعورات ، يمكن اعتبارهن بمثابة احتياطي لها .. او بمثابة جوائز ترضية !!

ولقد حاولت لفترة ما ان أشغل مشاعري برفيقتها مونا داهل ، التي كانت تكثر التردد على بيتنا ، وخاصة في فصل الربيع ؛ عندما اشتد حماسها للتمثيل ، ولطالما تساءلت عن الأسرار التي باخت بها لوليتا الغشاشة الماكرة الى مونا مقابل إباحتها لي بضمن باهظ تفصيلات لا تصدق عن علاقة غرامية

كانت لمونا داهل مع بحار في ركن منعزل من الشاطئ ..
فلقد كان من خصال لوليتا أن تأخذ كاتمة أسرار لها مثل
مونا داهل الانيقة المتحفظة المظهر ، الشهوانية المخبر المتمرس في
الحياة كأنتى ، البذيئة المزاج التي سمعتها تقول مرة لوليتا
ملاحظة بان تنورتها هي من الأصواف العذراء (الأصواف
العذراء تعبير امريكي يقصد منه القماش المنسوج من الصوف
الخالص) وأن ليس لها من صفات العذارى سوى تلك التنورة !
كانت ذات صوت مبجوح مثير وشعر اسود مجدول وعينين
بلون العنبر الداكن وشفتين شهوانيتين .. وكانت يداها ترتجفان ..
ولقد استطعت ان أحصل منها على معلومات عن بعض ما خفي
عني من حياة لوليتا في المدرسة .

ففي ذات يوم جاءت لتتمرن مع لوليتا على جزء من
مسرحية (ترويض النمرة) لشكسبير .. وكانت لوليتا غائبة
فجلست اجازيها أطراف الحديث .. وبشكل غير مباشر
سألته عن موقف لوليتا من الشبان فأجابتنى وهي تتطلع الى
بنظرات امرأة تعرف كيف تغوي الرجال :

« الحقيقة ان لوليتا لا تهتم كثيراً بالشبان الصغار . والواقع
اننا غريمتان ، فكلانا مغرمة بالقسيس ويفرر .. ضحكت
كثيراً فقد كان الامر نكتة مضحكة لأنه كان رجلاً بشعاً ذا
فك يشبه فك الحصان ، وكان يبعث على الضجر القاتل بحديثه
الدائم عن ذكرياته في سويسرا ..

وتنهدت مونا داهل تنهدة حادة قائلة : أوه انها سُكَّرة ..
حلوة ..

قالت هذا وتنهدت من جديد والتقطت كتاباً من رف
المكتبة وسألتي يجد مزيف عن رأيي في مؤلفه وهي تقرب
كرسيها من مقعدي بحيث استطعت ان أميز رائحة جسدها غير
المثيرة من رائحة العطر الذي كانت تتضمخ به .. وإذا اخذت
نفسي تراودني خطري خاطر مفاجيء : أأكون لوليتا قد
دبرت لي مكيدة معها ..

إذا كانت قد فعلت فإنها لا تكون قد هيأت لي البديلة
الصالحة المقبولة ..

وإذا جاءني هذه الفكرة اخذت اتجنب نظرات مونا التي
كانت تتركز على وجهي وبدأت احدثها في مواضيع ادبية ولم
تلبث لوليتا ان أطلت علينا وكُنستنا بنظراتها الباردة الاتهامية
فانسحبت وتركتهما لشأنهما .

- ١٠ -

في بعض الأحيان ، عندما تكون لوليتا مستغرقة في تحضير
وظائفها المدرسية نصف عارية تمص رأس قلمها وقد رفعت ساقها
وأراحتها على ذراعي المقعد العريض ، كنت اتخلى عن كل
وقاري العلمي وأتناسى كل خصاماتنا وأنسى كل كبريائي
كرجل ، وازحف على ركبتي الى مقعدها ، فتتطلع الي بنظرة
تحمل علامة استفهام غاضبة قائلة :

— اوه .. يكفي .. !

كانت تقول ذلك لأنها لم تتنازل مرة وتؤمن بأن في وسعي دون أن أرسم لذلك خطة ؛ أن أتوق الى ان أدفن وجهي بين طيات تنورتها وأن أتشوق الى ان أحضن ذراعيها الناعمتين الرقيقتين بل أطرافها الأربعة ، وأن آخذ رأسها بين يدي وأشد على جلدي خدها وأقبل عينيها ..

ولكنها كانت تمضي قائلة بضجر في هذه الحالات :

— أرجوك ان تتركني لوحدي .. بحق المسيح اتركني .

فأنهض من أرض الغرفة ووجهها يقلد باستهزاء معالم العصبية والتوتر في وجهي .. ولكنني أتغاضى عن ذلك وأعرف انني وحش خشن ..

ولكن لأضرب صفحاً عن مثل هذه اللحظات ولأمضي في رواية قصتي .

- ١١ -

في مطلع كانون الأول (ديسمبر) دعطني مس برات مديرة المدرسة لمحدثتي بشأن لوليتا التي كنت أعلم ان علاماتها المدرسية الاخيرة كانت منخفضة ، وبدلاً من ان اطمئن نفسي بان سبب الدعوة يرجع الى مثل هذا الأمر فأنني تصورت مختلف أنواع الاسباب المربعة واضطرت لأن اقوي نفسي ببعض المشروب قبل أن اذهب للملاقة المديرة ، وغصة الرعب في قلبي وقلبي .

كانت المديرية امرأة عملاقة ذات أنف عريض مفلطح وعينين صغيرتين وراء نظارتين مذهبتى الاطار ، وقد استقبلتني مشيرة بأن أجلس على مقعد متواضع ، بينما كانت « تقعي » على كرسي فخم دوّار وللحظة ظلت تحدق بي بابتسامة فضولية ؛ كما فعلت في اجتماعنا الأول (حسبما تذكرت بعد المواجهة لانني أثناءها أسأت تعبير الابتسامة ولم أذكر شيئاً عن مقابلتنا الأولى) .
ولما ردت بصرها عني انكفأت الى تفكير بدا مزيفاً وخيل الي انها تعاني حرجاً في بدء الحديث عن أمر مذهل ، اذ كانت تمسح بيديها طيات تنورتها .. وأخيراً قالت دون ان تتطلع الى وجهي :

- دعني أسألك سؤالاً فظاً يا مستر هيز .. إنك أب أوروبي من الطراز القديم أليس كذلك ؟
- كلا .. لست من الطراز القديم ، ولكنني قد أكون محافظاً ..

وتنهدت وتأوهت ثم ضمت يديها الى بعضهما بعضاً كأنما تدعوني الى المباشرة بالتحدث في صميم الموضوع وثبتت عينيها الزرقاوين الحادتي النظرات على وجهي وقالت :
- ان دوللي (تعني لوليتا) هيز طفلة بديعة ، ولكن يبدو ان بلوغها مرحلة النضج الجنسي يسبب لها بعض الضيق ..
أحنييت رأسي .. فماذا استطيع أن افعل غير ذلك .
وتابعت المس براس حديثها وهي تلوح بيديها المغطتين ببقع تدل على اضطرابات كبدها :

— ان لوليتا لا تزال كالمكوك تتأرجح بين منطقتي نحو الشرج والأعضاء التناسلية ..

— العفو .. لم افهم . أي منطقتين .

— ان الأوروبي القديم الطراز هو الذي يتكلم فيك .. كل ما أعنيه هو أن الحوافز البيولوجية والبسيكولوجية غير متمازجة وغير متصلة في لوليتا اتصالاً تام الدائرة .. إنها فتاة جذابة وذكية ، رغم انها مهمة .. ولذا فإن علاماتها تتدنى باستمرار وانني لأتساءل يا مستر هيز ..

وقطعت كلامها متظاهرة بالتفكير ثم استطردت :

— دعني اقدم لك بعض التفاصيل .. انها تشاكس المعلمة ريدكوك وتصرف بخشونة شديدة حيال المعلمة كورمارانت . إن عندي تقريراً من المعلمة المشرفة على صفها يفيد بأنها تتمتع بالغناء الجماعي مع رفيقات صفها ، رغم انها تبدو شاردة الذهن أثناء الغناء .

وتضع ساقاً على ساق وتهز ساقها اليسرى مع النغم .. وتستخدم عبارات سوقية .. وفي الاسبوع الاخير أخذت تتأوه كثيراً في الصف وتمضغ العلكة بشراهة ؟ ولكنها لم تدرج على عادة قضم اظافرها بأصابعها ولو فعلت لكانت أحسن انسجماً مع طابعها العام .. وذلك يعني علمياً أنها تمر في حالة الحيض .. ثم انها لا تنتمي الى أية شيعة كنسية في الوقت الحاضر .. وعلى فكرة هل كانت امها برو ... وقطعت حديثها قائلة : بالطبع هذا ليس من اختصاص أحد فهو من اختصاص الله وحده ..

ولنعد يا مستر هيز الى موضوعها إن التقرير يذكر اشياء
اضافية : إنها تبدو حاملة بعض الشيء.. وهي تحب المزاح وتتنقن
تدبير المقالب.. ويمكن أن تتفوق على بطولة التنس لولا شرورها..
الا إن المعلمة المشرفة على صفها لا تستطيع أن تقرر إذا كانت
لوليتا ذات سيطرة استثنائية على انفعالاتها أم لا .. ذلك ان
المعلمة تقول أن لوليتا لا تستطيع ان تترجم مشاعرها وانفعالاتها
بالأفعال ..

ولكن الأهم من ذلك هو ان الاعتقاد العام يفيد بأن لوليتا
رغم بلوغها الخامسة عشرة عديمة الاهتمام بالقضايا الجنسية.. بل
انها تكبت فضولها من اجل أن تخفي جملها بالمسائل الجنسية .
ولما صححت لها سن لوليتا بقولي إنها في الرابعة عشرة قالت :
لتكن في الرابعة عشرة .. فهذا لا يغير شيئاً من الوضع ، إنما لا
نؤمن هنا بالتوريات وبأساليب افهام المراهقات بالتورية القضايا
الجنسية الأساسية ، فنحن نؤمن بوجاهة إعداد تلميذاتنا لحياة
الأمومة الناجحة والتزواج .

وفي رأينا أن لوليتا تستطيع أن تحرز تقدماً ممتازاً إذا
صرفت ذهنها الى الدراسة .. فلوليتا ذات نزعة الى أن تكون
قليلة التبصر ومغفلة !. ولكننا نشعر بأن عليك أولاً أن تترك
لطبيب العائلة أن يلحق لوليتا حقائق الحياة ، وثانياً ان تسمح
لها بالتمتع بصحبة أشقاء زميلاتها في نادي الشباب وفي بيوت
آباء بناتنا .

- يمكننا أن نستقبل الشباب في بيتنا الجميل ..

- أرجو ان تفعل ذلك ، فعندما استجوبناها عن متاعبها رفضت ان تبحث وضعها البيتي .. ولكننا سألنا عنه من بعض صديقاتها .. إننا نرى ألا تعارض في السماح لها بالاشتراك في تمثيلية (مطاردة السحرة) فقد مثلت بإتقان دور الحورية الصغيرة أثناء التجارب .. ويسرني أن ابلغك ان مؤلف التمثيلية سيزورنا في الربيع ، وربما حضر بروفة التمثيلية في مسرحنا الجديد .. أعني أنه يجب عليك ان تتفهم ان الاشتراك في مثل هذا النشاط كان دائماً شطراً من مرح الشباب وهو الشابات ..

- لقد كنت دائماً أباً متفهماً ..

- لا شك .. لا شك ، ولكن معلمة الصف ، وانا أجنح الى الاتفاق معها ، تقول ان لوليتا تعاني مركب الأفكار الجنسية التي لا تجد مفرجاً عنها ولذا فهي تعجز وتهزأ برفيقاتها لأنهن يوعدن الشبان مواعيد « بريئة » ..

دعنا اذن نفكر معاً يا مستر هيز ولنتساءل ماذا دهمى هذه الطفلة ؟

- إنها تبدو طبيعية تماماً وسعيدة جداً في نظري .

قلت هذا وانا أشعر بأن ما تقدم من حديث كان مجرد مناورات قبل كشف الستار عن الفاجعة .. وخيل الي انهم يعرفون السر ..

واستطردت المس برات تقول :

إن ما يقلقني هو أن معلمات لوليتا ، وكذلك زميلاتنا يجدنها عدائية مخالفة للاجماع .. غير مرتاحة إلى وضعها .. كأنها

حبس ولذا فان الجميع يتساءلون لماذا تعارض معارضة شديدة في
ان تنال لوليتا كل المتع المسموح بها لمن في سنها ..

— هل تعنين اللعبة الجنسية ..

قلت لها ذلك بقنوط .. كأننا اسقط الأمر بيدي فقالت
وفها ينفرج عن ابتسامة :

— انني بكل تأكيد ارحب بهذا الاصطلاح الحضاري ..
ولكنني لم اقصد ذلك تماماً .. ذلك ان الحفلات الراقصة والحفلات
التمثيلية والاجتماعية اللاهبة وغير ذلك من اوجه النشاط ،
ليست فنياً « لعبات جنسية » عندما تجري تحت رعاية كلية بيردسلي
وان كانت البنات يقابلن الشباب على انفراد إذا كان هذا ما
تعترض عليه .

— حسناً .. ليكن ماتريدين ولتشارك لوليتا في التمثيلية ،
ولكن على شرط ان تقوم البنات بتمثيل ادوار الذكور ..
— انني معجبة بطريقتك الفنية في النقاش ، ولعل فكرتك
ستفرح المس غولد المهتمة بالتمثيلية ، ولكن دعنا نأتي الى بحث
قضية خاصة فنحن في مشكلة .. انني مخلوقة صريحة للغاية ،
ولكن التقاليد والأعراف هي التقاليد والأعراف .. انني اجد
صعوبة في الحديث عن الأمر .. على كل انت تعرف ان مدرستنا
تضم بنات أحسن العائلات ويهمننا المحافظة على علاقتنا مع تلك
العائلات ؛ ولكن لوليتا تجعل ظروفنا صعبة عندما تستخدم
كلمات قد لا تعرفها لكونك اجنبياً .. هل تريدني ان انادي
لوليتا لبحث الامر معها .. كلا لا تريد .. الحكاية ان لوليتا قد

كتبت كلمة فظيعة عامية ، قال لي عنها طبيب المدرسة انها كلمة مكسيكية سوقية للدلالة على جهاز البول .. لقد كتبتها لوليتا على بعض الكراسات الصحية التي وزعتها احدى المعلمات على التلميذات .. ولقد رأينا ان نحجزها في المدرسة ساعة بعد الإنصراف عقوبة لها ، ولكنك اذا كنت تريد ..

- كلا لا اريد ان تدخل في انظمة المدرسة .. ولكنها متى عادت الى البيت سأعرف كيف أؤدبها واجعلها تطلع عن ذلك .
- اجل افعل ذلك (قالت هذا ونهضت عن كرسيها) وعسى ان نجتمع قريباً لنحيلها على الدكتور كاتلز ليقوم بتحليل نفسيتها إذا لم تتحسن أحوالها .

عندما سمعت هذه الكلمات تساءلت في سري :

- هل يجب ان أتزوج هذه العانس لأخفقها ؟

واستطردت العانس تقول :

- ربما كان طبيب العائلة يود ان يفحصها جسدياً .. فحسباً روتينياً .. انها الآن في الصف تقضي عقوبتها مع تلميذة اخرى فاذهب لتراها ..

دخلت الى الصف فوجدت لوليتا جالسة على رحلة مدرسية تقرأ كتابا في التمثيل وأمامها جلست فتاة اخرى عارية العنق ذات شعر بلاتيني بديع ، كانت مستغرقة كذلك في قراءتها لا تحس بالعالم الخارجي .. فجلست بجانب لوليتا . وفككت ازرار معطفي وأقنعت لوليتا بعد ان اعطيتها ٦٥ سنتاً بالإضافة الى الإذن بالاشتراك بالتمثيلية بأن تضع يدها المغبرة بالطباشير

الملوثة ببقع الحبر تحت المنضدة .
لقد كان ذلك حماقة وتهوراً مني .. ولكنني بعد العذاب
الذي تعرضت إليه في مقابلتي للمديرة اضطررت الى استئثار وضع
كنت اعرف انه لن يتكرر مرة اخرى .

- ١٢ -

في أسبوع عيد الميلاد اصببت لوليتا بنزلة صدرية حادة
طرحتها محمولة في الفراش .. وجاءت الطبيبة فنصحت بأن
تلتزم الفراش اكثر من اسبوع .. وفي بادئ الأمر ارتفعت
حرارتها لدرجة صعب علي معها ان اقاوم إغراء المسرات غير
المتوقعة .. مسرات احتضان لوليتا وهي تتقلبنى بنار الحمى وتسعل
وتتأوه بين ذراعي ..

فلما استعادت صحتها اقمنا حفلة لها دعوت إليها بعض
الشبان .. ولعلي سكرت بعض الشيء وأنا احضر معدات الحفلة ،
ولربما جعلت نفسي اضحوكة .. عندما جاءت زميلات لوليتا
واشتركن في تزيين الغرفة واختيار الاسطوانات الراقصة .
والمفروض في هذه الحالات ان انسحب كأب تاركاً لبنتي
مجال اللهو .. ولكنني لم استطع فكنت اطل بين الحين والآخر
لأسباب تافهة .. رغم صعوبة ذلك .

وعلى كلٍ فإن الحفلة لم تكن ناجحة .. فقد تغيب احدى
المدعوات الثلاث ، بينما جاء احد الشبان المدعويين الثلاثة برفيق

له فكانت هناك زيادة قدرها شابان ..

وبعد انصراف المدعويين اطلقت لوليتا صيحة ضجر وتهالكت
على المقعد وقد مدت ساقيهما وذراعيها دلالة على تعبها وضجرها
واقسمت لي بأن مدعوياها الشبان كانوا من اغلظ الشبان الذين رأتهم
في حياتها ..

لقد سرني هذا الحكم منها على اولئك الشبان سروراً عظيماً
فاشتريت لها مقابله مضرب تنس ..

- ١٣ -

عندما اطل الربيع كانت لوليتا قد اصبحت هائمة مجنونة
بالتمثيل والمسرح .. انني اكره المسرح واعتبره شيئاً بدائياً
متعفنأ فاسداً .. ومن بقايا شعائر العصر الحجري والسخافة
العمومية ، رغم عبقرية بعض كتاب التمثيليات ..

وكننت في تلك الفترة ، شديد الاستغراق في أعمال الأدبية ،
فلم اهتم بقراءة النص الكامل لـ « الصيادين المسحورين » المسرحية
الهزلية التي كانت لوليتا تمثل فيها دور ابنة مزارع ، وأغلب
الظن انها مزيج من اساطير تافهة .

وكان للوليتا طرق جذابة جداً لضم يديها الطويلتين ، ولحفق
جفنيها ، وهي تبتهل إليّ الاّ أجيء لحضور تمرينات التمثيل .
وذات يوم من أيار رأيت « لو » في المساء توقف دراجتها
وتشد راحتها على شجرة صغيرة في أسفل حديقتنا ، فاضطربت

وتأثرت بالغ التأثر لحنان بسمتها حتى حسبت أن جميع آلامي
تضمحل . لقد قالت : « أتذكر اسم ذلك الفندق .. انك تعرفه
جيداً .. وفركت طرف انفها وصفرت بصخب .. الفندق الذي
اغتصبتي فيه ! . ألم يكن اسمه «الصيادين المسحورين؟» واستطردت
حالة : هذا اذن ما كان يعنيه ؟ . وصفت بيدها جذع الشجرة
اللامع ، وهي تطلق ضحكة ثاقبة ، ضحكة ربيعية ، ثم انطلقت
نحو الشارع وقد وضعت يداً حالة على فخذيهما الملتفتين بثوبٍ
قطني مزهر .

- ١٤ -

بما ان المفروض ان الموسيقى مرتبطة بميولها المسرحية فقد
سمحت للوليتا بأن تأخذ دروساً خاصة في البيانو مرتين في الاسبوع
لدى معلمة عانس .

و ذات مساء جمعة في نهاية (مايو) كنت ألاعب في غرفة الجلوس
غاستون بالشطرنج عندما رن جرس الهاتف ولما تناولت السماعة
سمعت صوت معلمة البيانو تسأل اذا كانت لوليتا ستأتي الى دروسها
يوم الثلاثاء القادم لأنها تغيبت عن درسها يوم الثلاثاء الماضي كما
تغيبت عن درسها هذا المساء ..

وكما يمكن للقاريء ان يتصور فقد طار لي وتوزعت أفكاري
وانا احاول الاحتفاظ برباطة جأشي امام غاستون الذي استطاع
ان يغلبني هذه المرة وانصرف مرحاً مبتهجاً بينما سارعت افتش
عن لوليتا فوجدتها جالسة الى مائدة المطبخ تأكل شطيرة وعيناها
مثبتتان على المسرحية تحفظ دورها فيها ولما احست بوجودي
رفعت عينيها بنظرات حانية سماوية ولم يهتز فيها عرق عندما

انباتها باكتشافى أمر تغيبها انما اجابت بأنها تعترف بأنها كانت طفلة رديئة للغاية إلا انها لم تستطع ان تقاوم الاغراء ولذا فإنها امضت ساعات الدرسين الموسيقيين في التمرن على المسرحية في الحديقة العامة مع رفيقتها مونا داهل .

سارعت الى الهاتف وطلبت بيت مونا داهل فردت علي امها التي ظننتي رفيق مونا اذ صاحت بها :

— مونا . ان روي يطلبك على التلفون ..

ولم تنتظر مونا للتحقق انما سارعت لتعاتب روي على شيء قاله أو فعله فقاطعتها وكشفت لها عن شخصيتي وسألته عن صحة رواية لوليتا فاجابت بلهجة كانت من اكثر اللهجات تواضعاً وببحة جنسية مثيرة :

— أجل يا سيدي .. انني وحدي الملوثة .. أجل لقد كان عملاً رديئاً .. وانني آسفة جداً .. الخ .. الخ .

عدت من التلفون الى غرفة الجلوس وانا اتحنج متشجماً .. كانت لوليتا متمالككة على كرسيها الهزاز وقد فردت جدائلها بشكل رائع وهي تقضم ظفراً من اظفارها وتتطلع إلي بنظرات هازئة من عينيها النائميتين العديمتي القلب ورفعت على ذراع المقعد ساقاً عارية كانت تهرها يمنية ويسرة .

في تلك اللحظة تبينت فجأة كم تغيرت لوليتا منذ ان قابلتها قبل عامين أول مرة .. وتساءلت هل حدث هذا التغيير في الأسبوعين الماضيين فقط ؟ لقد بدت على قسماتها صبغة من الحنان الأسطوري ..

ولكنني لم اثار بهذا الحنان فقد كانت تلك اللحظة تستقطب
غضبي المشفوع بعصاة الغيرة والقلق .. في تلك اللحظة تبخر
ضباب شهوتي التي كان يلفها في نظري .. تبخر وزال ولم يترك
شيئاً سوى ذلك الوضوح الخفيف ..

اجل لقد تغيرت لوليتا .. ان هيئتها الآن هي هيئة تلميذة
ثانوية مهمة الهندام وسوقية الذوق فهي تستخدم مستحضرات
التجميل الرخيصة وتلطخ بها وجهها غير المتسول بأصابع معروقة
قدرة دون الاهتمام بما يلامس بشرتها من معجونات ومسحوقات .
وتذكرت كم مرة كان تخرج بشرتها رقيقاً حبيباً في الأيام السابقة
عندما كنت ادحرج رأسها مداعباً على ركبتى .. لقد حلت
الآن حمرة مصطنعة غليظة مكان ذلك النضوج البرى في وجهها ..
عندما رأت لوليتا الغضب في نظراتي سارعت فلمت نفسها
وأنزلت ساقها البضة البديعة واسدلت عليها طرف ثوبها .. ولكنها
ظلت تثبت نظراتها في وجهي بعينين محمرتين مليئتين بالتحدي
بشكل أوحى لي ان لوليتا هذه اليتيمة المراهقة تستطيع ان
تكشفني للسلطات دون ان تتعرض للعقاب .

كم كنت مجنوناً احمق .. ولكنني وان عرفت ذلك حتى في
ساعة غضبي فانني لم استطع ان احول دون انطلاق اعصابي وانا
أراها في هذا التحدي مملوءة الوجه بالأصباغ بل حتى ان حمرة
شفتيها قد صبغت اسنانها بشكل ذكرني ليس بمونيك بل بعاهرة
مراهقة في احد بيوت البغاء التي ارتدتها منذ اجيال .. كانت
صغيرة ولكن شخصاً آخر التقطها قبل ان اقرر اذا كان صباها

الريان يبرر لي ان اخاطر بمقاربتها وبالتقاء داء وبيل منها ..
تماماً كانت الصورة متاثلة ..

وازحت صور ذكرياتي بينما قالت لي لوليتا هازئة :

– تكلم اذن .. هل كانت نتيجة التحقيق مرضية ؟
– أجل ولكنني لست أشك في أنكما قد دبرتما الأمر بل
لست أشك في انك بحث لها بكل شيء بيني وبينك .
– هكذا ..

فسيطرت على أعصابي وتابعت كلامي :

– لوليتا .. يجب ان نضع في الحال حداً لهذه الأشياء ..
انني مستعد لاجراjk من المدرسة ومن المدينة ولسجنك في
مكان لا يعرفه الا الله. ولكن يجب وضع حد لهذه المخاطر ..
انني مستعد لأزهق روحك وإزالتها من الوجود في وقت يقل
عن الوقت الذي تتطلبه تعبئة ثيابك .. يجب ان تكفي عن
هذه المخالفات والا لن يعرف أحد ما الذي سيحل بك .
– لن يعرف احد ما يمكن ان يحل بي .. هكذا ..

انتزعت من تحت قدميها المقعد الذي كانت تؤرجحه
فصاحت :

– هيه .. على مهلك ..

فصحت فيها بدوري ؟

– قبل كل شيء اصعدي الى غرفتك .

وأمسكت بيدها اجذبها وأخذنا نتصايح فقالت لي أشياء
مرعبة .. قالت لي أنها تكرهني. وقالت انني حاولت عدة مرات

ان أغتصبها عندما كنت نزيل امها .. وقالت انها واثقة من انني قد قتلتم امها وانها ستضاجع اول من يراودها وانني لن استطيع ان امنعها من ذلك .

فقلت لها ان تصعد الى غرفتها وان تريني كل مخابئها . وامسكتها من ذراعها النحيلة فحاولت ان تتملص حتى خشيت ان تتكسر عظامها .. وقلبي يذوب لوعة عليها .. بينما كانت تتطلع الي بنظرات لا تنسى ، نظرات تتم عن غضب بارد والدموع الحارة تنحدر على وجنتيها .. وفي تلك اللحظة ظل جرس الهاتف يقرع بالحاح وربما منذ زمن فقد غطت ضجة شجارنا على رنينه .. لقد تدخل الهاتف في لحظة دراماتيكية ..

ويبدو انه مقدر لي دائماً ان اشاطر ممثلي السينما خدمات الهاتف القدريية .. كان الجيران يتلفنون محتجين على الضجة فاعتذرت لهم بان لوليتا ورفيقاتها الشابات لا يقدرن الكثير من الاعتبار .. بسبب طيشهن .. وبينما كنت منشغلاً على الهاتف سمعت الباب ينصفق .. اين لو ؟ هل هربت ؟ ..

ومن النافذة رأيت شبحاً ينسل بسرعة عبر الحائل في الحديقة .. ورأيت الشبح يمتطي الدراجة وينفلت الى الظلام .. لقد حدث ذلك والسيارة في كراج التصليح فكان علي ان الاحقها راكضاً .. على جناح الخشية من الفضيحة .

لست استطيع حتى الآن ورغم مرور ثلاث سنوات ان اتخيل منظر ذلك الشارع الموحش في تلك الليلة الربيعية دون ان ينتابني الذعر .. كان بعض الجيران يقفون عند البوابات فكنت اضطر

الى ان اقطع هرولتي حتى لا اثير شكوكهم.. مضيت اركض ..
انني أتصور نفسي مهرولاً زائع العينين باحثاً عنها . ها قد
وجدتها ان شاباً يسندها في طريق جانبي على حاجز حديد وهو
يقضم شفتيها تقبيلًا .. اوه الحمد لله .. انها ليست هي ..
واخيراً بعد ان ركضت نصف ميل وجدت دراجة لوليتا
امام احد محلات بيع المرطبات.. فاندفعت الى الباب واقتحمته
الى الداخل .. اين لوليتا ! انها كانت تتلفن من الكابين الخاص
وما لبثت ان التفتت ولحنتني فاعادت السماعه وسارت نحو
تيس دلالاً قائلة :

- لقد حاولت ان اتصل بك في البيت .. لقد اتخذت
قراراً عظيماً .. ولكن يجب ان تشتري لي يا بابا قدحاً من
المرطبات قبل ان اخبرك به ..

اشتريت لابنتي الحبيبة كل ما طلبت من حلوى ومرطبات ..
واستمعت الى اطراء صاحب المحل لجمالها ونضارتها ..
وعدنا الى البيت ومطر الربيع يهطل مدراراً .. كانت
تركب دراجتها وانا اسير بجانبها عندما قالت لي :

- اسمع .. لقد قررت أمراً .. انني اريد ان اترك المدرسة ..
واكره تلك التمثيلية التي اعطوني دوراً فيها .. اجل لن اعود
اليها .. يجب ان نغادر البلد في الحال ونذهب في رحلة طويلة
ولكننا سنذهب هذه المرة الى حيث أريد أنا .. أليس كذلك ؟
فهزرت رأسي ايجاباً بينما تابعت متسائلة :

- سيكون الاختيار من حقي ؟ ..

- أجل ..
 افتر ثغرها .. واندفعت مرتمة على مقود دراجتها وانطلقت
 فرحة تسابق الريح .. ثم وقفت تنتظرنى تحت شجرة البوابة
 فلما وصلت قالت لي بأعلى صوتها :
 - سأفعل ما تريد .. ولتذهب التمثيلية إلى الجحيم .. هل
 تفهم ما اعنيه ؟
 ما كدنا ندخل القاعة المضاء حتى خلعت لوليتا كنزتها
 ونفضت شعرها المبتل ومدت الي ذراعين عاريتين ورفعت ساقاً
 قائلة :
 - احملني الى فوق .. انني اشعر بميل الى الغرام
 الرومانطيكى ..
 قد يهم علماء النفس ان يعرفوا انه كان بوسعي في تلك اللحظة
 ان أذرف سَيْلاً من الدموع ..

- ١٥ -

أخرجنا السيارة من المرائب بعد ان انتهى تصليح المختل
 من آلاتها وودعنا مدرسة بيردسلي بحجة ان ارتباطي بعقد مع
 إحدى شركات السينما في هوليوود أجبرني على الرحيل المفاجيء
 مع لوليتا ..
 كنت ادغدغ فكرة اجتياز الحدود على مهل الى المكسيك
 فأنا اليوم أشجع مما كنت عليه قبل عام ، وهناك اقرر ما اصنع
 بمحظيتي الصغيرة التي بلغ طولها الآن ١٦ بوصة وبلغ وزنها

واحداً وأربعين كيلو غراماً ، وكانت « لو » قد رسمت خط رحلتنا بحماسة مدهشة . ترى ، هل فقدت ، بفضل تأثير المسرح ، مزاجها اللامبالي الطفولي ، وأصبحت تظهر نافذة الصبر باكتشاف عجائب الحياة والواقع ؟

وفي إحدى وقفاتنا أمام إشارة المرور، أتت سيارة أخرى وتوقفت الى جانبنا ، ونظرت اليها امرأة شابة ذات قوام ممشوق (اين تراني قد رأيتها ؟) فحييت « لو » ثم انفصلت نحوي باندفاع وقالت وهي تشدد على بعض الكلمات : « من المؤسف ان تنتزع دولي من دورها - وليتك سمعت التهاني المذهولة من المؤلف بعد اجزاء التجربة ... »

وهست لوليتا بين اسنانها : « هذه هي الإشارة ، الخضراء ايها الابله ! »

- من هي التي طبخت هذه المسرحية ؟
- اوه .. انها امرأة طيبة مسنة « كلار كيلكشوز » على ما اظن .

- وهي التي قدمت لك التهاني ؟
- نعم يا عيني ! لقد وضعت قبلة على جبيني الطاهر ...
ثم ارسلت حبيبتي صرخة ضاحكة بطريقة مسرحية ..
وعند ذلك صارحتها بقولي :
- انك مخلوقة غريبة يا لوليتا . يسعدني وبذات الوقت يدهشني انك تخلت عن المسرحية قبل اسبوع واحد من نهايتها الطبيعية - اوه احترسي يا حيتي لوليتا من هذه الارتكاسات !

ان ثمة تغييرات عديدة مفاجئة في مشاريعك .. ثم عليك ان تكوني اكثر لطفاً معي ، يا لوليتا . ويجب ان تحافظي على حيتك .. فها انت منطلقة معي في رحلة طويلة رائعة ...

- ١٦ -

عدنا من جديد الى الانتقال من نزل ريفي سياحي الى آخر ..
ترحب بنا في كل نزل لافتات تحمل كلمات تبلور عقلية خاصة بالامريكيين :

اهلا وسهلا - لقد سجلنا عندنا رقم سيارتك (هذا تحذير للنزيل الذي ينوي الهرب دون ان يدفع) - مياه ساخنة استخدمها باسراف - تحتفظ لانفسنا بحق اخراج اي شخص غير مرغوب فيه وبدون انذار - اننا نعتبر نزلاءنا احسن وارقي الضيوف في العالم - الخ .. الخ ..

في تلك الاماكن المربعة كنا ندفع عادة عشرة دولارات من اجل غرفة بسرير مزدوج تصطف على شبكة باهيا اسراب الذباب التي تتحایل بشتى الوسائل للدخول الى الغرفة .. حيث لا تزال الوسادة تحتفظ عادة بشعرات او دبائيس من رأس نزيلة الليلة السالفة ..

ومع انه لم يكن خطر من تعرضي للسرقة فلقد احتفظت دوماً ضمن امتعتي بمسدس ورثته من ام لوليتا مع ارشادات

مطبوعة حول كيفية استعماله وحفظه .. وتقول تلك الارشادات
انه مصنوع خصيصاً من اجل الاستعمال المنزلي ومن اجل
السيارة ومن اجل ان يحمله الانسان ..
لقد تمرنت على التصوير بالمسدس واصبحت اصيب أي
هدف متحرك ..

- ١٧ -

مضينا في رحلتنا نحو الغرب من الولايات المتحدة ولكن
الجو لم يكن دائماً كما اشتهي فانا لا نستطيع ان اقسم جازماً بانها
استطاعت في مناسبة او مناسبتين اثناء الرحلة ان تتصل
باشخاص مجهولين او ان تبوح لهم ببعض المعلومات عن
علاقتنا ..

ف ذات مرة كنت املاً سيارتي بالزيت والبنزين عندما تركتني
لوليتا لقضاء حاجة ولكنها تأخرت كثيراً واخذ تأخرها يثقل
على ذهني .. ولم تكن تلك المرة الاولى والاخيرة التي اخذت
اجيل فيها ابصاري يمنة ويسرة وبكثير من القلق والانزعاج
فقد تكرر ذلك الأمر .. وكانت له ذيوله في ناحية تشيستنت
كورت ..

كانت قد ارادت ان تمر في طريقنا اليها عبر مدينة كاسيم
لأنها تبعد ٣٠ ميلاً فقط عن مسقط رأسها .. فوافقها على ذلك
ولكنها في صباح اليوم التالي بدت قلقة لا تستقر على حال ..

وغير راغبة في ان ترى ملاعب طفولتها يوم امضت شطراً من الوقت قبل خمس سنوات ..

كنت قد شعرت لاسباب بديهية بتخوف من هذه الزيارة الحاطفة على الرغم من اننا اتفقا الا نلقت الانظار اليها وان نبقي في السيارة والا نبحث عن الاصدقاء القدامى ..

لقد غيرت فكرها وارتحت لذلك كثيراً وقالت لي انها تريد ان تبقى في الفراش مع مجلاتها حتى الاصيل على الاقل لانها لا تشعر بانها على ما يرام .. وانتهت لي اشتهاؤها لبعض الفواكه فقررت الذهاب لشراء ما تشتهي ..

وفي المدينة حلقت شعري وقضيت بعض احتياجاتي فلما عدت بعد ساعة ونصف الساعة وجدت الخدم ينظفون الممرات في ذلك الفندق الريفى الذي حللنا فيه والمؤلف من اكواخ منفصلة في الحديقة .. ورأيت قرب غرفتنا شاباً عتيماً كان يحمل براداً نقلاً الى سيارة شحن فغاضتني منه الابتسامة التي حياني بها اذ مررت به ..

ودخلت الغرفة فوجدت لدهشتي لوليتا مرتدية ثيابها وقد جلست على حافة السرير وكان قميصها الضيق يبرز مواهب صدرها ومع انها لم تغتسل فقد كانت قد صبغت شفتيها بالحمرة وفرشت اسنانها الناصعة .. كانت جالسة ويدها في حجرها وهي ترسل نظرات حاملة متألقة بهريق شيطاني لم يكن يتعلق بي بحال من الاحوال .

القيت بكيس المأكّل والفواكه جانباً وقطعت الى قدميها

فوجدت نعلها متسختين بالوحل ولذلك قلت لها متهما :

— لقد خرجت أثناء غيابي ..

— لقد استيقظت لتوي وأطللت من البوابة إذ خيل إلي

انك قادم ..

رأت كيس الفواكه فاتجهت نحو الطاولة بينما كنت فريسة

شكوكي الغامضة .. اتطلع الى الوحل العالق بنعلها دون ان

انبس ببنت شفة .. متسائلا هل خانت ثقي في غيابي .. وفي

الحال تذكرت ابتسامة ذلك الجمال الشاب . فهرعت الى الباب

افتش بنظراتي عنه ولكنه كان قد اختفى مع سيارته ..

وصاحت لوليتا بي من العتبة :

— ما خطبك ؟ الى اين تذهب ؟

لم ارد عليها انما دفعتها الى داخل الغرفة وأمسكت بها

ونضوت قميصها عنها ثم تنورتها .. وعريتها تماما وخلعت نعلها ..

واخذت افتش بأبصاري عبر جسدها عن آثار خيانتها ولكن

الأثر الذي كنت استقصيه كان من الرقة والشحوب بحيث لم

يكن بالوسع تمييزه عمليا عن خيال رجل مجنون .

- ١٨ -

لاحظت ان هناك سيارة حمراء مكشوفة تتبعنا .. لاحظت

ذلك بانفعال وخشية وغيره .. فقد حسبت في بادئ الأمر ان

سائقها عشيق لوليتا فتبعنا ليستغلني في غيابي .. ثم ما لبثت

الخاوف والاخلية ان اجتاحتني وهزت اعماقي بالرعب ..
فقد يكون مطارداً شرطياً يريد التحقيق في تصرفي مع هذه
القاصرة .. شككت ذات مرة في انها أو أنها دست في شرابي
مخدراً فقد أغفيت مثقل الرأس ثم ما لبثت أن أفقت ليلاً على
طرقات تهز الباب فهرعت عارياً أفتحه ولوليتا نصف عارية في
سريرها .. وفي الظلمة وجدت رجلاً يرتدي قناع وجه صيني
أطلق في وجهي ضحكة ساخرة .. كان ذلك ليلة عيد المسخر ..
هذا صحيح .. ولكنني شككت في أن له مقصداً غير مقصد
مداعبتي .. إنني متأكدة من الأمر فما رأيته ليس حلاً أثاره
المخدر ..

إنني لا أستطيع بذاكرتي الضعيفة ان أحدد اليوم الذي
تأكدت فيه من أن السيارة الحمراء المكشوفة تطاردنا ولكنني
أذكر المرة الأولى التي رأيت فيها وجه سائقها بوضوح ..
كنت أسوق سيارتي ذات أصيل والمطر يتهاطل بغزارة
وكان الشبح الأحمر يبدو ورائي .. يطاردني بالحاح وبشكل
لا مهرب منه كداء السرطان .. وفجأة توقفت عند محطة بنزين
لاملاً خزان سيارتي وأشتري نظارة شمس فوجدت مطاردي يقف
بسيارته عند قهوة قريبة .. ولما دخلت الى مخزن المحطة لشراء
النظارة ألقى نظرة إلى الخلف فلمحت منظرأ رهيباً .. كان
مطاردي بوجهه العريض وجسمه العتي وصلعته وشاربيه المفتولين
وسرواله البني القاتم يستمع الى لوليتا وهي تطل بصدرها من
نافذة السيارة وتكلمه بسرعة ويدها تشتركان في الحديث مع

لسانها .. كانت تبدو جدية للغاية .. ولكن الذي أدهشني هو
إنني أحسست من شكل حديثها ان الرجل مألوف لديها .. وانها
معتادة على محادثة .. كانت هناك ألفة غريبة بينهما كما لو كانا
يعرفان بعضهما بعضاً منذ أسابيع ..

ثم رأيته يحك ذقنه ويهز برأسه ويعود قافلاً الى سيارته فإذا
هو رجل مربع القامة في مثل عمري تقريباً ، وكان ينزع في
الشبه الى « غوستاف تراب » وهو قريب سويسري من أقرباء
أبي ولما عدت الى سيارتنا وجدت لوليتا تدرس خريطة الطرق
فسألتها :

— ماذا سألك ذلك الرجل ..

— الرجل ؟ أوه ذلك الرجل .. لست أدري .. لقد سألتني
إذا كان عندي خريطة .. أظن أنه تاه طريقه ..
ولما مضينا قليلاً فاجأتها قائلاً :

— إسمعي يا لوليتا .. لست أعرف إذا كنت تكذبين أم
تصدقين ولا يهمني ذلك الآن ولكن ذلك الرجل ظل يلاحقنا طيلة
هذا اليوم كما كانت سيارته في باحة الفندق أمس وأظن بأنه
شرطي .. إنك تعرفين جيداً ماذا سيحدث وإلى أين ستذهبين
إذا علمت السلطات بأمرنا .. وهكذا فأنا أريد لمصلحتك ومصلحتي
أن أعرف ماذا قال لك وماذا قلت له .

— لو كان شرطياً فإن أسوأ ما تفعل هو أن تريه اننا خائفان
منه .. تجاهله يا أبي ..

— هل سألك الى اين سنذهب ؟

فأجابت ساخرة : اوه انه يعلم ذلك !

فقلت مستسلماً : على كل حال لقد شاهدت وجهه وهو يشبه

ابن عم لي يدعى تراب

— ربما كان هو تراب .. اوه انظر الى عداد السيارة ان رقم

٩ فيها يتحول الى الصفر .. عندما كنت صغيرة كنت اظن
ان الدوايب تتوقف عند رقم ٩ .

كانت هذه اول مرة تتكلم فيها عفويا عن طفولتها قبل ان
تدخل في عهدي .. لعلها غيرت الحديث بحيلة تعلمتها من تمرينها
المسرحي في المدرسة ..

على اننا تابعنا ذلك اليوم طريقنا غير مطاردين .. ولكن
مطاردنا عاد الى الظهور وراءنا في اليوم التالي .. عاد كنوبة
مرض مزمن .. وكانت حركة المرور خفيفة ذلك اليوم على ذلك
الطريق الجبلي وكان يتابعنا عن بعد ولكن ما من سيارة دخلت
المنطقة الفاصلة ، فظلمت ارى من مرآتي وجه الجامد الذي يشبه
وجه التمثال وبدت سيارته كمن تسير فقط لان خيطاً حريرياً
خفياً يشدها الى سيارتنا .. وطيلة الوقت كنت اشعر بوهج خاص
يأتيني من يميني من صوب لوليتا التي تضرجت وجنتاهما والتمتعت
عينها ببريق مرح ..

ومررنا بمدينة مزدحمة الطرق فلما خرجنا منها كان مزاحمنا
قد اختفى عن الانظار .. وما لبثت لوليتا ان شخرت هازئة
وقالت :

— لو كان ظنك فيه صحيحاً فان من الحق ان تتهرب منه ..
— انني افكر بأمره الآن من وجهة نظر أخرى ..
ورأت نظراتي المليئة بالمغازي فقالت :
— اوه انك منحط .. تحقق من الامر اذا استطعت .

امضينا بعد هذه المرحلة ليلة كثيبة في فندق حقير بارد بينما
كانت العواصف تهزج في الخارج .. وتبعث الخوف في نفس لوليتا
التي كانت تخشى العواصف الكهربائية وترتعد منها .. وكنت
اجد بعض السلوى والعزاء في خوفها هذا ..

— ١٩ —

مررنا ببريد مدينة ويس لنلتقط رسائلنا من شباك البريد
فقد كنا قد عينا مكتب بريد ويس كعنوان لنا .. كانت هناك
رسالتان واحدة تحتوي على علامات لوليتا المدسية وكانت
الثانية في مغلف ذي مظهر خاص .. ففتحته واخذت اطالع
محتوياته على اعتبار انني افعل شيئاً تتوقعه لوليتا .. واستغرقت
في قراءة الرسالة مستنداً الى كشك بائع الصحف ..

كانت رسالة من زميلة لها في الدراسة تتحدث فيها عن نجاح
المسرحية رغم غياب المؤلف وعن الدراسة .. وتقول عن نفسها ..
« سنذهب الى نيويورك بعد غد وسينذهب اهلي الى اوربا ولا
اعتقد بان هناك مناصاً لي من مرافقتهم .. وتختتم الرسالة باخبارها
بانها قد لا تعود الى بيردسلي لان والدها يريد ان تدخل المدرسة
في باريس لمدة عام .

ولما انتهيت قراءة الرسالة تطلعت أريد أن أستفسر من لوليتا عن صاحبتها .. ولكنني لم أجد أثراً للوليتا.. فبينما كنت أطلع الرسالة هزت لوليتا كتفيها واختفت .

ورأيت كناساً أحذب سألته عنها فقال : يبدو أنها رأت صديقاً فهرعت اليه .. وهكذا هرعت أنا بالاتجاه الذي أشار اليه .. وركضت ولكن لوليتا كانت قد اختفت ..

هل اختفت الى الابد ؟

لطالما تعجبت بعد هذه الحادثة بسنوات لماذا لم تختف الى الابد ذلك اليوم ؟ هل كان المانع أن ثوب استحمامها كان في سيارتي المقفلة ؟ هل كان عدم اختفائها شطراً من خطة عامة ؟

في تلك اللحظة لم أدرك شيئاً سوى أنها تركتني الى الابد.. وبدأت لي الجبال الجرداء المحيطة بالمدينة كأنها تتموج وتقهر ضاحكة ساخرة في وجهي وبدأت لي صخورها تتموج بصور لوليتا وبدأت لي الصور تذب وتلح في وهج الصخور ..

أخذت أدور في كل مكان باحثاً عنها في كل مقهى ومطعم وصالون مرطبات .. ودكان .. بقيت قليلاً في سيارتي وسط الشارع ثم فتشت الحديقة العامة .. وفجأة قلت لنفسي إنك أبله يا مهربت إذ تشك فيها فهي خليقة بأن تعود في ظرف دقيقة .. ولقد عادت فعلاً !

جاءت فجأة نحوي وأنا أوقف السيارة بمحاذاة الرصيف فأبعدت اليد التي وضعتها على كمي بابتسامة خجولة وفاجرة وصحت فيها :

— اصعدي إلى السيارة .

أطاعتني فصعدت بينما نزلت أزرع الرصيف جيئة وذهاباً
متصارعاً مع أفكار عديمة الأسماء محاولاً أن أرسم طريقة لمعالجة
مكرها .

ولم تلبث أن غادرت السيارة ووقفت من جديد الى جانبي
فاتجهت مشاعر سمعي اليها وهي تهتمهم لتخبرني بانها قابلت صديقة
قديمة لها ..

— نعم ؟ من هي ..

— بنت من بيردسلي .

— من هي ؟ .. إنني أعرف جميع أسماء زميلاتك ..

— لم تكن معي في المدرسة .. إنها من بلدة بيردسلي ..

— حسناً عندي دليل المدينة .. ما اسمها ؟ ماري أم جين ؟

— إنني أعرف اسمها الأول فقط .. إنه دوللي ..

— إذن هذا هو المبرر النهائي .. ولكن دعينا نبحث الامر

من جهة اخرى .. لقد بقيت غائبة ٢٨ دقيقة ، فماذا فعلت أنت
ودوللي في خلالها ؟

— ذهبنا الى دكان الحلويات ..

— وماذا شربتما ..

— كولا فقط

— حذار يا لوليتا .. إنني أستطيع التحقق من ذلك

— هي شربت الكولا .. شربت انا قدحاً من الماء ..

— حسناً .. هل كنتما في ذلك المكان ..

- بالطبع ..
- حسناً فلنذهب اليه ونشرب شيئاً
- انتظر لحظة .. اظنه ابعد من هذا المكان ..
- لا بأس تعالي .. سنمر على جميع المحلات الى ان نكتشف
ذلك المكان .

- اذهب الى الجحيم ..
- اسمعي يا لوليتا ، لن تفيدك الخشونة
- حسناً ، ولكنك لن تستطيع ان توقعني في الفخ .. حسناً
اننا لم نشرب شيئاً .. كنا نتحدث فقط ونحن نتفرج على الثياب
المعروضة في الواجهات

- واجهة أي مخزن مثلاً ؟
- ذلك المخزن .. هناك مثلاً
- هيا نتفرج عليه من قرب .. ولكن لماذا المدلورة . يجب
ان اخبرك انني سجلت رقم سيارة صديقنا الذي كان يطاردنا ..
ها هو لقد قيدته في دفتر التلفون .

فتحت الدفتر ويا لي من حمار ، لم احفظ الرقم ولم تبسق في
ذاكرتي منه سوى اعداده الاخيرة ونتيجة لذلك التزمت الصمت
واغلقت الدفتر ومضيت بسيارتي خارجاً من مدينة ويس وعلى
بعد اربعة اميال من المدينة توقفت عند فسحة مكسوة بالعشب
الذي بلله الندى فتطلعت الي لوليتا مبتسمة نصف مدهوشة
ودون ان ألفظ بكلمة وجهت اليها صفة عنيفة تركت كدمة
سوداء على وجنتها

وتابعت الطريق .. وهي تجهش وتبكي وانا احس بوخزات
التعذيب الباطني العذب .. وعندما وصلنا في المساء الى مدينة
(ميرانا) بدأت اغمرها بحبي محاولا مصالحتها فقبلت حتى اظافر
قدمها الطويلة الصفراء .. مرغت وجهي على قدميها .. ولكن
دون فائدة ، فقد كانت الاقدار قد حكمت بانتهاء امرنا ، وقضت
بان ادخل بعد قليل دوامة جديدة من العذاب والاضطهاد
فاتني ان اذكر انني لمحت بما لا يقبل الخطأ ، وانا اعبر احد
شوارع مدينة ويس تلك السيارة الحمراء المكشوفة ، ولكن كانت
تنقل اربعة من الشباب الصاخبين بدلا من صاحبها تراب
لقد صادفت حالة جديدة كل الجدة بعد مدينة ويس فلقد
تمتعت ليومين باطمئنان نفسي الى أننا غير مطارين والى أننا لم
نكن أبداً متبوعين ولكنني ما لبثت ان شعرت بان تراب قد
غير خطته وانه لا يزال يتبعنا ولكن في سيارة مأجورة اخرى ..
انه حרבاء ذلك الرجل الذي كان يغير من حين لآخر
السيارة التي يطاردنا بها .. مما جعلني احس بارتياح من كل سيارة
تسير ورائنا .. كما ان ضرورة ان اكون حذراً من ذلك الرجل
ذي الشارب المصقول والصلعة الحمراء قد قادتني الى تفحص كل
سيارة على الطريق .. امامي ويخاني وورائي ..
وعندما كنا في الطريق الجبلي ما بين سفو وتشامبيون
حظيت بلحمة واضحة رأيت فيها تراب في سيارة زرقاء ..
فأخذت اسوق سيارتي متجاوباً مع حركات قلبي ونبضاته
القارعة المشوشة ، وهكذا اخذت السيارة تميل يمنة ويسرة ..
فقلت لوليتا بمرح :

— يا حضرة .. انفخت أحد دواليبك ..

ولما توقفت فجأة اختل توازن لوليتا . وخرجت أتفحص
الاطار الايمن . كان صحيحاً ما قالته لوليتا .. وهنا لمحت تراب
وقد توقف على بعد ٥٠ ياردة وراءنا .. كان وجهه الأسمر يبدو
في ضوء النهار كنقطة من العنبر ..

كانت هذه فرصتي لاواجهه فاتجهت نحوه وانا اعتزم أن
أطلب اليه أن يعيرني كاشة مع أن عندي واحدة . ولكنه أخذ
يتراجع بسيارته الى الورا .. ومرت سيارة شحن أثارت موجة
من الغبار .. ولما انزاحت الموجة سمعت أزيزاً ورأيت سيارتي
تكرج الى الورا .. فقد نسيت أن أضع الفرامل .

وسارعت الى سيارتي حانقاً من ان لوليتا لم تتعلم شيئاً في
طيلة هاتين السنتين من مبادئ القيادة ولكن السيارة توقفت
قبل وصولي .. وإذ فتحت بابها شككت في أن لوليتا هي التي سارت
السيارة لتمنعني من الاقتراب من تراب .. ولكن حيلتها كانت
بدون جدوى فقد قام تراب قبيل ذلك بتسيير سيارته ولف بها
مختفياً عن الانظار ..

تابعنا رحلتنا الفظيعة .. وأنا مشئت الفكر تطاردني خاطرة
توحي إلي بانني خليق بان ارتكب جريمة قتل إذا صحت الظواهر
التي توحي إلي بانني بت على حافة الجنون .

وهكذا فكرت في ان انقل المسدس من علبة السيارة الى
جيبى حتى اكون متهيئاً للاستفادة من لوثة الجنون اذا ما
اصابتني .

كنت ابله احق اذ سمحت للوليتا ان تدرس التمثيل اذ ان ذلك وسع من خيالها وجعلها كثيرة الحيل سريعة البديهة .. سريعة الاكاذيب وقادرة على الاختلاق ..

ومع أن لوليتا كانت قد تقدمت في السن فانها لم تزال تلك الحورية المسعورة اكثر من اي زمن مضى تتألق اطرافها المشمشية اللون بالسعير .. ولا تزال انيقة التقاطيع خفيفة الحركة .. ولا تزال في لظى نزوات المراهقة فهي تفضل التمثيل على السباحة والسباحة على التنس .. ولا تزال عنيدة مصممة على ان تربح كل مباراة تنس بيني وبينها .. ولكنها في نهاية اللعبة تصبح لا مبالية بنتيجتها بشكل مثير .. وكانت في لعبها بريئة غير مخاتلة بحيث كان أي لاعب من الدرجة الثانية يستطيع ان يغلبها .. أجل هكذا كانت في اللعب تلك المراهقة القاسية القلب المخاتلة المكاراة الغدارة في كل شأن من شؤون الحياة .

اذكر ذلك بمناسبة الحادثة التي جرت لنا في ملعب تنس الفندق بمدينة تشامبيون فقد كنت الاعبها متمتعاً بمتابعة اناقة خطوط حركاتها عندما شعرت بالعطش فاتجهت الى الحنفية حيث اقترب مني شاب في قميص احمر عرف نفسه بانه بيل ميد وبأن رفيقته في اللعب هي المثلة (فاي بيج) واقترح على ان نشرب كأساً من الويسكي مشيراً الى رفيقته التي لمحتها تحادث لوليتا ..

و كنت على وشك ان اعتذر عندما استلقت انتباهي صرخة هازجة .. كان صبي مكتب الفندق يهزج باسمي منادياً بانني مطلوب على الهاتف من اجل مكالمة خارجية مستعجلة .
فارتديت سترتي وقلت للوليتا بعد ان تحسست المسدس في جيبي انني عائد بعد لحظة .. وابتسمت فردت لي الابتسامة!
حل بقلبي هدوء مفزع وانا اتبع الصبي الى الفندق متسائلاً بقلقي قاتل .. هل كشف الأمر وحلت النهاية ! وقلت لنفسي بانني سأناضل ولن اتركهم يأخذونني اخذ عزيز مقتدر .. قلت لنفسي ان من الأفضل ان اقتلها وادمر كل كياني على ان اسلمها لأحد ..

ولما وصلت قال لي كاتب الفندق ان مخاطبي قطع الخط وطلب ان اتصل به .. كانت المحادثة من مدرسة بيردسلي .. هاتف رقم ٦٨٢٨٢ وقد كتب الكاتب نقلاً عن المخاطب ان الأمر ضروري وهام جداً ومستعجل ..

فذهبت الى قمرة التليفون وطلبت الرقم وبالاتظار اخذت ازرع المر بنخطواتي .. وانا افكر .. وفجأة تذكرت ان مديرة المدرسة في طريقها الآن الى اوروبا وان المدرسة لا يمكن ان تكون هي مصدر المحادثة ذلك ان ما من مخلوق في بيردسلي يعرف انني سأكون هنا في هذا اليوم بالذات .. فطلبت الى الكاتب ان يتحقق فيما اذا كانت المحادثة التي وردتني قد جاءت فعلاً من بيردسلي .. وجاءت نتيجة التحقيق سريعة وقاطعة .. وليس هناك من مخبرة هاتفية من بيردسلي .. اذن القضية خدعة

والخبرة محلية ..

وعدت مثقل الخطى متجهاً الى الملعب ولحت من اول شرفة
لوليتا تلاعب احد الشباب ورأيتة يضربها بضرب التنس على
قفهاها متودداً عندما كانا يغيران موضعيهما .. كان رأسه
مستطيلاً كالبيضة وكان يرتدي سروالاً بنياً مدرباً .. ولقد
لحني فقذف بضرب التنس وهرع راكضاً الى سيارته الرمادية
التي كانت تنتظره على قارعة الطريق .. ولم يلبث ان اختفى
هو والسيارة .

ولما وصلت سألت بيل ميد :

— مستر ميد من كان ذلك الشاب ..

فهر ميد رأسه قائلاً انه كان شاباً فضولياً اقحم نفسه
في اللعبة ومضى ..

اخذت المضرب الذي كانت قبضته لا تزال ساخنة سخونة
مقرفة من يد ذلك الغلام وعدت بلوليتا الى الفندق وفي طريقنا
جررتها الى ممر تغطيه الخوائل .. كنت على وشك ان انفجر
باكياً على صدرها مناشداً اياها ان توضح لي بصدق ملابسات
هذه الأمور مهما اثار ذلك سخريتها وقسوتها وشجعها على التلاعب
بي .. كدت افعل ذلك لولا انني لحت اشخاصاً يجلسون تحت
ظل الخوائل جلسة بليدة .. ولولا انني لحت بيل وفاي قد سبقانا
وكانا يضحكان .. لقد وصلنا عندما انتهت النكتة !!

لا يهم .. لنرجى الأمر الى مرة اخرى ..

قالت لي لوليتا اذ وصلنا الى غرفتها بانها تريد ان تقضي بقية

الأصيل في المسيح .. حسناً ليكون ايها الجميلة التي تضارعين
هذا اليوم في جماله .

- ٢١ -

- لو .. لولا .. لوليتا ..

سمعت نفسي اهتف باسمها من باب غرفة الفندق بشيء وفيه
من القلق والألم .. وجدتها أخيراً في وسط باحة المسيح
المشوشة فقد خرجت قبل ان تنتهي من ارتداء ثياب الاستحمام
واخذت تلاعب كلباً مرحاً .. بدلاً من ان تلاعبني .

خرجت مرتدياً الروب دى شامبر لانني قصدت فقط ان
اعرف مكانها اذ لم يكن بوسعي ان اسبح وقلبي في هذه الحالة ..
لقد توقفت عن الصباح لأراقبها تركض وتتايل بالمياو الأحمر
المشودود .. كأن في حركاتها طابع من النشوة والجنون يجعلها
اكثر من فتاة صغيرة مرحة .. بل حتى ان الكلب بدأ مدهوشاً
من شطط حركاتها التي تكشف مشتياتها ..

وضعت يداً حانية على صدري وانا ارقب الوضع وخيل لي
ان المسيح الأزرق الواقع وراء الباحة لم يعد وراء تلك الباحة
بل اصبح ضمن وجودي وخيل لي ان اعضائي تسبح فيه كما
تسبح القواقع الطافية على مياه البحر عند الريفيرا الفرنسية .
وجدت احد المستحمين قد غادر المسيح ووقف نصف مختيء
في ظل الحاجز وهو يتابع لوليتا بانظاره ، كان يقف وراء

ستار من الضوء والظل .. ستار يشوه معالمه وكان يقف
متنكراً بعريه وقد ترامي ما تبقى من شعره على طرفي رأسه ..
فتطلعت الى وجه هذا الذي يتأمل (ابنتي) بنشوة وشهوة ..
وبينا وقعت لوليتا في لعبها مع الكلب واخذت تلوح بساقها
في الفضاء جرفته النشوة فاستند متهاكاً الى عمود .

لقد خشيت طيلة الوقت ان يكون من اولئك الشبان الذين
يلهبون خيال لوليتا .. ولكنني رأيت عندما انحسرت الشمس
انه ليس بذئبي خطر .. مجرد مخلوق تافه يشبه ابن عمي تراب
السويسري الذي كان يشرب بيرته مخلوطة بالبن ..

وفجأة كفت لوليتا عن لعبها .. وخيل الي ان الكلب بات
نتيجة ذلك كسير الفؤاد ..

واتجهت اليها لاقول شيئاً ولكنني افترشت العشب وقد
احسست بألم فظيع يحتاج صدري ثم ما لبثت ان تقيأت سبلاً
من البقايا السمراء والخضراء التي لا اذكر انني اكلتها ..
رأيت في تلك اللحظة عيني لوليتا كمن يحسب حسابه اكثر
مما كانت كمن افزعه الأمر .. وسمعتها تقول لسيدة عجوز ان
اباها مصاب بغثيان .

ولم ألبث ان تهالككت على كرسي طويل واخذت اجرع ما
لا يحصى من اقداح (الجن) .. ومع ذلك فقد نهضت في الصباح
التالي وقد وجدت القوة على قيادة السيارة ومواصلة الرحلة .

اخذ يتضح لي بان ما توهمته شرطياً يتبعني ويطاردني ليس الا انعكاساً لقوة الاضطهاد التي تركبني .. والتي تساعدها ظروف وملابسات تدخل الاوهام الى نفسي .

هكذا طردت فزعي .. وقررت ان ابدأ عهداً جديداً منذ مدينة (سلفر سبار) حيث اعطتني صاحبة المنزل مفتاح شقة من غرفتين وهي تضحك لي ضحكاً ماجناً .

خرجت لوليتا من السيارة فرأيتها ترتجف قليلاً فحسبت ان ذلك من فعل هواء الغسق .. ولكن عندما دخلت الى الشقة تهالكت على احد المقاعد ودفنت وجهها بين ذراعيها المتشابكين فوق الطاولة وقالت انها مزعوجة للغاية .

انها تمثل .. هكذا خيل الي .. انها تمثل حتى تتهرب من مداعباتي ومعانقاتي .. ولكنني كنت ألتهب شوقاً فلما حاولت معانقتها بدأت تتأوه بشكل محزن غريب .. اذن انها مريضة .. انها تحتضر .. لقد كانت بشرتها تلتهب فعلاً بالحرارة ولما قست حرارتها وجدتها تجاوز الاربعين باربعة اعشار .

كنت اعرف ان المراهقات يتعرضن لحالات هستيرية توصل حرارتهن الى درجات تبدو خطيرة اذا وصل اليها الانسان العادي .

ولقد كان بوسعي ان اكتفي باعطائها في حالتها هذه بعض الاسبرين وقليلاً من الخمر لتشفى من الحمى لولا انني اذ فحصتها

وجدت عندها التهاباً شديداً في الحنجرة .. فنضوت ثيابها عنها وكانت رائحة انفاسها حارة كاوية وكانت ترتجف من قمة رأسها الى أخمص قدميها وكانت تشكو من تصلب مفاجيء في اعلى ظهرها مما جعلني أظن كما يفعل الآباء الامريكيون عند هذه الحالة بانها مصابة بنوبة شلل الاطفال ..

ولما وجدت ان لا امل لي في ان اقاربها لفتتها في الروب دي شامبر وحملتها الى السيارة ومنها الى مستشفى الدكتور بلو الذي قيل لي انه احدث المستشفيات .

وفي المستشفى طمأنني الطبيب الى انها حالة من الحمى الوافدة وانه عالج مثلها اربعين حالة هذا الموسم .. ومع ذلك فقد وجدت ان خبرته الطبية هي ادنى بكثير من شهرته .

على كل لم يكن هناك مجال للاختيار فسجلت لوليتا على انها ابنتي وقلت للسكرتيرة الشقراء ان عمرها ١٦ عاماً « عملياً » وحاولت عبثاً ان اقنع ادارة المستشفى بان اقضي الليل هناك على اريكة ومهما كان ثمن ذلك ..

واضطرت الى ان اغادر المستشفى تاركاً لوليتا بين أيدي لا أثق بها كثيراً وتحت رعاية ممرضة خاصة .

وفجأة وانا اعود الى الفندق خيل الي ان مرضها ليس الا تطوراً جديداً في خطة طالما اشتبهت بها في خواطري فعذبتني احتمالاتها طيلة الرحلة وتصورت ان هناك شرطياً سرياً او عاشقاً متخفياً . قد دبر هذا المرض حتى يفصلني عن لوليتا نهائياً .

عند ذلك لم استطع الا ان اعود مرة اخرى الى البار اغرق

ومخاوفي وخيالاتي في الشراب .

بعد ثلاثة ايام تحسنت حالة لوليتا كثيراً وقال الطبيب انها ستشفى كلياً بعد يومين . ولقد زرتها ثمان مرات في هذه الأيام الثلاثة واكثر الزيارات كانت مخالفة للنظام وفي غير الأوقات النظامية . ولست اذكر من مجريات هذه الزيارات غير زيارة واحدة ظلت مرتسمة بوضوح في ذهني فقد حملت اليها معي عدة كتب ثمينة سافرت ٦٠ ميلاً لشراؤها فلما اقتربت من غرفتها خرجت من الباب الممرضة الخاصة ماري لور التي كانت قد اخذت تكرهني منذ اليوم الأول والتي وجدتها تشبه الحيوانات .. ووجدتها تحمل صينية الفطور وتضعها على الكرسي في الصالون فلما لمحتني اندفعت عائدة الى الغرفة كأنها تريد ان تحذر لوليتا من أبائها الطاغية يتسلل الى غرفتها حاملاً الورود والكتب .

قبيل ان ادخل تطلعت الى صينية الفطور لأرى إذا كانوا يغذون لوليتا جيداً فوجدت بين الصحاف مظروفاً عليه اسم أحد الفنادق ولكنه كان خالياً من أية كتابة .. فلما التقطت المظروف الفارغ ظهرت ماري لور من الغرفة فجأة وقالت لي ساخرة :

— من الأحسن الا تلمس شيئاً فقد تحرق أصابعك .

ورددت على سخريتها المبطنة باتهام مبطن قائلاً :

— لقد ظننت انها فاتورة ولم أعرف انها رسالة عاطفية .

قلت هذا ودخلت الى غرفة لوليتا فتبعثني الممرضة لتقول :

— اسمعي يا لوليتا ان اباك يظن انك انت التي تتلقين الرسائل

من صديقي .. كلا يا مستر همبرت ليست الرسالة لوليتا انما هي لي .

قالت هذا وتركت الغرفة بينما كانت لوليتا تتطلع إلي أو الى لا شيء بنظرات بريئة وقد احمرت وجنتاها وانسدل شعرها واستراحت ذراعاها العاريتان على الملاءة النظيفة .

قالت لي :

— ما هذه الأزهار الجنازية .. ولكن شكراً على أية حال .. ثم هل لك ان تكف عن حشو كلامك بالفرنسية فذلك يضايق الجميع ..

ومن جديد عادت الممرضة الحيوانية التي تتضوع ببقايا رائحة البول والثوم تحمل الصحيفة المحلية فخاطبت لوليتا من جديد بالفرنسية :

— ألم تعودني تحيينني يا كارمن ؟

كنت قد تعودت على دعوتها باسم كارمن تدليلاً .. ولكن لم اكن بحاجة الى ان اسألها ذلك فقد كنت أعرف في تلك اللحظة ان الأمل مقطوع من حبها .. وكنت أعرف انها والممرضة تتآمر على حبي اليائس ..

بل سأذهب الى ابعد من ذلك وأقول وفقاً لما اكتشفت بعد ذلك ان لوليتا كانت تخادع ماري وتلعب لعبة مزدوجة اذ قالت لها انها تريد ان تعيش في كنف عمها المرح وليس في كنفى انا الأب ذو المزاج السويدي .. القاسي المتعنت .. ولعل ماري

قد ظننت بأنني امنع لوليتا من متعة حب وعطف عمها (أخي المزعوم) .

ولما خرجت الممرضة قلت للوليتا والغصّة في حلقي وانا أكابد الغناء حتى استطيع ان ابلع ريقى :
— اسمعي يا كارمن .. سنترك هذه المدينة الكريهة حالما تغادرين سرير المرض .

— اجل .. وبالمناسبة اريد ان ترسل لي جميع ثيابي .
تابعت كلامي قائلاً ؟

— يجب ان نرحل لأنه ليس هناك من سبب للبقاء هنا .
— ليس هناك من سبب للبقاء في أي مكان .

وجاءت الممرضة لتذكرني بأن وقت الزيارة قد انتهى فغادرت الغرفة طائعاً ولوليتا تذكرني بأن احمل اليها ثيابها معي غداً .
ولكنني في اليوم التالي كنت ارتجف واسعل .. كنت فريسة حمى مفاجئة ، ولذا فلم اذهب انما ارسلت لها حقيقتي ثيابها مع ابن الارملة صاحبة الفندق .. وانا أتصور بأن الغاية كلها هي ان تعرض لوليتا على الممرضة كنوزها . وظللت يومين أهذي في فراشي فريسة الحمى .

وبعد الظهر سمعت قرعاً على باب غرفتي .. وكان صبي الفندق يحمل إلي خبراً هو ان الممرضة ماري قد تلفنت تسأل اذا كنت استطيع القدوم الى المستشفى اليوم ؟ . فقلت له ان يبلغها بأنني سألازم فراشي طيلة اليوم واني سأذهب غداً إذا تحسنت احوالي لرؤية ابنتي .

فلما خرج اخذت اغب الشراب الى ان نمت نخبوراً وصحوت
في اليوم التالي وقد استعدت كل صحي وكان أول ما فعلته انني
خرجت الى مكتب الفندق وتلفنت الى المستشفى اسأل .

كان الجواب ان كل شيء على ما يرام .. وان ابنتي قد
شفيت تماماً وتأكد الطبيب من شفاؤها ونظراً لأنني كنت مريضاً
فقد جاء عمها المستر غوستاف في سيارة كاديلاك ودفع فاتورة
الحساب نقداً وطلب اليهم إبلاغي بأنه ليس لي ان اقلق من مرضي
وانه يجب ان ادفي نفسي جيداً وانها ذاهبان الى مزرعة جدة
لوليتا كما اتفقنا على ذلك .

وذهبت فوراً الى المستشفى ولحسن الحظ لم أجد الممرضة وإلا
فإن اضطرابي كان كفيلاً بأن يفضح ما بدر مني من حالات
عصبية .. فلم يكن بوسعي ان اقول لهم ان غوستاف ليس
أخي .. فليس لي أخ .. وان لوليتا ليست ابنتي .

وأخيراً استطعت بعد التماعة تفكيرية ان اعزي نفسي بأن
الحرية في الوقت الحالي هي كل شيء .. وانني خيراً فعلت اذ
التزمت الصمت فقد كانت اية انزلاقة لسان كفيلاً بأن تورطني
وان تلصق بي جريمة .. وتظاهرت للدكتور بلو بأن دموعي هي
نتيجة اسفي على ادماني على المشروب رغم اصابتي بمرض قلبي ..
اعتذرت للجميع وهمست لنفسني وانا اخرج بأنني لازلت أملك
مسدسي ولا زلت رجلاً طليقاً حراً .. اجل لازلت حراً استطيع
ان اطارد الهاربة الآبقة .. ولا زلت حريتي تمكنني من ان
أزيل من الوجود .. ذلك الأخ .. أخي غوستاف ..

أمضيت أياماً طويلة وأنا اجوب الطرقات الجبلية في المنطقة
بحثاً عن الهاربين .. وللقاريء ان يتصورني متظاهراً بالوقار ..
متظاهراً بحب الطبيعة وأنا أخفي وراء قناع هدوئي حزني الهائل
واتزين بابتسامة وأنا افتش سجل كل فندق على الطريق متظاهراً
بالبحث عن قريب ظننت انه ينزل في الفندق .

ثم اضطررت الى ان اقوم بتحقيقياتى بشكل اكثر حذاراً مما
اضطرنى الى النزول في كثير من الفنادق .. وبهذه الطريقة
تفقدت سجلات ٣٠٠ فندق ونزل حصلت من عشرين منها على
الأقل على ما يشير الى تنقلات ذلك العفريت الذي أخذ لوليتا
والذي حل معها احياناً في غرف كنا قد حللنا بها قبلاً ..

ولقد اكتشفت بأنه عالم بتحرياتي إذ كان ينتحل لنفسه
اسماء افهمها وحدي .. ففي إحدى المرات اتخذ اسماً من مسرحية
هزلية ايطالية مشهورة .. وقد قالت لي صاحبة النزل بأنه
امضى خمسة ايام مصاباً بالرشح وكانت ترافقه ابنته «آن لور» ..
وما احتجت الى ان تصف لي الصبية فقد أدركت فوراً انها
لوليتا ..

ظلت المطاردة مستمرة وقد تكشف غوستاف في خلاها عن
مهارة عظيمة .. كان دائماً ينجح في تضليلي ولكنه كان دائماً يترك
لي مجالاً للأمل بأنه قد يكشف ذاته في المرة القادمة .. كانت
اللعبة شيطانية تهدم الأعصاب .. ولكنه لم يكشف ذاته قطعاً ..

وإن كان قد أوشك على ذلك ذات مرة .
لم تكن الآثار التي يتركها غوستاف كافية لكشف هويته
ولكنها كانت كافية لإظهار ماهية شخصيته .. الشخصية القوية
المسيطرة والذكاء الحاد والقدرة على الاشتقاق اللغوي ثم التبحر
في الثقافة وفي فن الجنس ولكنه لم يكن بارعاً في تنمية آثاره
فقد كان خط يده نساءياً وكانت هناك حروف لا تتغير مهما
حاول تغيير سمة خطه .

- ٢٤ -

عندما عدت الى بيردسلي في خلال تجبطني عبر المئات من
الأميال كنت قد بحثت ملياً احتمالاً مفزعاً .. فتكونت في ذهني
صورة تامة عنه .. خيل إلي ان المعلم الوحيد .. الرجل الوحيد
الذي كان يعلم في بيردسلي باستثناء غاستون والأب ريفور
مورتيس ، خيل إلي انه هو الذي خطف لوليتا وخاصة انني
تذكرت بأنها لم ترض يوم كنا في بيردسلي ان احضر محاضرة
يلقيها في قاعة المدرسة . وتذكرت ان غاستون كان قد وصف
هذا المعلم بأنه محاضر بارع .

لما وصلت الى بيردسلي علمت ان ريفر الاستاذ المنشود سيلقي
محاضرة في القاعة فاعتزمت امرأ خاصة وقد علمت انه عازب .
فذهبت وانزويت في أحد المقاعد مشمر الأكام والمسدس في جيبي .
وفجأة أدركت بأنني اضيع وقتي وانه ليس معقولاً ان يكون
خاطف لوليتا هو هذا الاستاذ .

فمت بمحاولة اخرى عقيمة لاكتشاف مقر لوليتا والاتصال بها عن طريق نشر اعلان في المجلات التي تقرأها ، ثم تجرأت على ان اتصل بتحري مدني خاص أعطيته ما سجلته في مفكرتي من اسماء انتحلها غوستاف ، وطلبت إليه ان يتخذها مستنداً لتحري حقيقة امره واكتشاف هويته ، ولكن الحيوان امضى سنتين يحقق في صحة هذه المعلومات وجاءني بعد ان قطعت صلتي المالية به يعلن لي بابتسامة الكافر ان هناك هندياً باسم بيسل برادن في الثمانين من عمره يعيش في مدينة دولوريس .. كان اسم بيسل برادن أحد الأسماء التي انتحلها غوستاف .

- ٢٥ -

لقد كتب هذا الكتاب ليكون عن لوليتا .. ولكن أما وقد وصلت الى هذه المرحلة فلعلي يجب ان ادعوه كتاباً عن لوليتا الضائعة المختفية ..

فترة غريبة من حياتي هي فترة اختفاء لوليتا لمدة ثلاثة أعوام .. ولعل من أبرز ملامح هذه الفترة انني لم اكن احلم قطعاً في منامي بلوليتا ولكنني كنت دائماً اراها ماثلة بكل الملامح في أحلام يقظتي .. كان خيالها يطاردني بصورة الجليلة في ليالي أرق الطويلة .. وإذ كانت تظهر في أحلامي فإنها لم تكن تظهر في شكلها المعتاد انما تظهر متنكرة في شكل فاليريا زوجتي الأولى أو شكل شارلوت امها .. أو تظهر بهيئة هي مزيج من فاليريا وشارلوت .

كنت دائماً أراها بهذه الصورة جاثية على أقدامي متوسلة
تحاول ان تستجدي شفقتي .

شيء آخر اذكره عن هذه الفترة هو انني احتفظت بجنار
ببعض ما تركته لوليتا من ثياب كنت اغمرها بقبلاقي واضمها
الى صدري مستروحا بقايا نسماها وضوعها ولما شعرت بعد ذلك
ان عقلي اخذ يتقوض جمعت هذه الآثار بالإضافة الى اغراضها
المخزونة في بيردسلي وارسلت ذلك باسم فاعل خير مجهول الى
احد المياتم على الحدود الكندية .

لو انني ذهبت الى منوم مغناطيسي متمكن في فنه فلربما
كان انقذني من هذا الجنون التدريجي ومن هذه الذكريات التي
طالما جثمت على ذهني وجعلتني أحيا أثناء أحلام يقظتي في الماضي
اكثر مما احيا في الحاضر .. بل انني بدأت في تلك الفترة افقد
الصلة بالواقع فلجأت الى مصح نفسي امضيت فيه فصل الربيع
ثم قررت ان اسوي بعض أموري في نيويورك لأذهب بعد ذلك
الى كاليفورنيا لأقوم بتحريات كبرى عن لوليتا وخاطفها .. وفي
هذه الأثناء نظمت في عزلي عدة قصائد اناجي فيها لوليتا ..
أذكر منها :

مطلوبة مفقودة : لوليتا هيز ..
الشعر كستنائي والشفتان من قرمز ..
عمرها خمسة آلاف وثلاثمائة يوم .
اين تحتبئين يا لوليتا هيز ؟

لماذا تختبئين يا حبيبتي ؟

ها انا بعد فراقك ..

كسير القلب غائم النظرات .

أي بساط ريح يحملك ؟

وأين تأوين في هذه اللحظات المسحورة ؟ .

ألا تزالين ترقصين أيتها الصغيرة الحبيبة ؟ .

آه : ما أحيلى امسيات الماضي .

وعناقنا الطويل قرب النار ، يا بدويتي .

سعيد سعيد هذا الذي يطوي الفيا في معك ؟

لوليتا يا حبي .. لوليتا يا جنوني ..

يا ذات العينين النائمتين ..

يا من لم تكن تغلق عينها يوم كنت اقبلها ..

ان العذاب والبغض يأكلاني ..

انني اموت تأنيباً وغيرة ..

لوليتا لوليتا اين انتِ ؟ ..

انني اموت بدونك انت . الخ .. الخ ..

انني إذ أحلل هذه الاشعار فإنني ألاحظ بأنها حقاً وليدة خيال

رجل مهووس .. فكل ما فيها من وزن مهتز انما ينسجم فعلاً

مع إنفعالاتي من خيالات وذكريات حياة محمومة مع لوليتا .. لقد

انغمست في الشعر .. قرأت كثيراً من الشعر وكتبت كثيراً من

القصائد ولكنني لم أنس لحظة ضغط حافز الانتقام الذي كان

يهيمن على خواطري ..

أكون كاذبا لو قلت (ويكون القارىء مجنوناً لو صدق) بأن
صدمة فقدي للوليتا قد شفتني من نوازع شذوذى .. فلم يكن
بوسع طبيعتي اللعينة ان تتغير مهما تغير حبي لها .

فقد ظلت عيناى على الرغم من إرادتي تكتسنان الملاعب
والحدائق العامة حيث تلهو الصغيرات بحثاً عما يتكشف من
أجسادهن الناعمة المراهقة .. بحثاً عن مثيلات لوليتا .. عن
أجساد ترمز الى ما في جسدها من سعي مشبوب في إطار صياني .

هنالك فارق واحد انتابني ، ذلك انني لم أفكر لحظة في ان
أتمتع بالنعمة مع عذراء مراهقة صغيرة .. سواء كانت حورية
أصيلة أم حورية مزيفة .. اجل لم تطارد احلامي مثيلات لوليتا
ولم أجد غيرها في خيالي يقطن تلك الجزيرة السحرية . جزيرة
الحوريات المراهقات المسعورات بالشبق .. فلقد انتهت صلة
غيرها بهذه الجزيرة في الوقت الحالي على الأقل .

إلا ان سنتين كاملتين من التخبط والسعي الرهيب وراء شبح
الهاربة قد جعلتاني اعتاد على نوع من الشبق الدائم .. على التحسس
بالشبق وكنت اشجع هذه النوازع عمداً ذلك انني كنت أخشى
ان انحدر الى الجنون بسبب فراغ حياتي .. خفت ان يحرني هذا
الفراغ الذي أعيش فيه الى الانغماس في جنون مفاجيء عندما
يواجهني إغراء عارض يتجسد في مراهقة مسعورة اصادفها في
طريق جانبي موحش ..

أجل لقد أخذت الوحدة تفسدني واخذت احتاج الى من
يلازمني ويعني بي واصبح قلبي جهازاً عضوياً هستيرياً لا يوثق به .
ولهذا وفي هذا الجو دخلت ريتا الى مسرح حياتي .

- ٢٦ -

كان عمر ريتا يبلغ ضعف عمر لوليتا بينما بلغ ثلاثة ارباع
عمرى .. وكانت فتاة بالغة نحيفة سوداء الشعر شاحبة البشرة
ذات عينين مستطيلتين جميلتين وملامح واضحة الخطوط وذات
عجز يأخذ بمجامع القلوب .
لقد كانت بركناً حياً وأظن ان دماً اسبانياً او بابلياً يسير في
عروقها ..

لقد التقطها ذات ليلة ربيع في ايار (مايو) في مكان ما بين
مونتريال ونيويورك .. وعلى وجه التحديد في بار مظلم كانت
فيه مخمورة سكرى ولقد أصرت حيناً رأيتني على اننا كنا زميلي
دراسة ووضعت يدها النحيلة الرقيقة على يدي الحشنة ذات
الشعر الكثيف .. ومع انها قد اثارت بعض نفوري فإنني
قررت ان اعطيها الفرصة لتثبت جدواها لي وهكذا تبينتها
كرفيقة دائمة لي ..

كانت ريتا لطيفة وبالغة اللطف ورياضية الروح بشكل كانت
فيه لا تأبى ان تستسلم لأي مخلوق محزون .. بل لأي مخلوق
يتظاهر بالتعاسة .. كما تقدم له بعض العزاء .. أجل كانت رقيقة
القلب في هذه الشؤون .

عندما التقيت بها أول مرة كانت قد اكتشفت لتوها ان زوجها الثالث يخونها .. كما اكتشفت ان عشيقها النظامي السابع قد هجرها كذلك مثلما فعل قبله ستة عشاق .. وقد همها الأمر .. أما هؤلاء الذين مروا بحياتها مر السحاب فإنهم لم تهتم بأمرهم .. وعلمت ان لها أخاً نافذاً ذا مركز سياسي مرموق ويشغل منصب العمدة في بلده .. وعلمت ان هذا الأخ يدفع لأخته الصغيرة العظيمة (ريتا) شهرياً بضع مئات من الدولارات بشرط ألا تعود اطلاقاً الى البلدة .. ولقد شكت لي من ان جميع عشاقها كانوا مع ذلك يأخذونها في نزعات ليلية حول تلك البلدة مما كان يثير فزعها من ان يشي بها أحد الى أخيها فتحرم من النفقة الشهرية ..

لقد استخدمت سيارتها الرياضية الأنيقة للسفر الى كاليفورنيا كما أريح سيارتي المتعبة .. وظلت ريتا ترافقني في اسفاري سنتين من صيف ١٩٥٠ الى صيف ١٩٥٢ وكانت معي اجمل وأرق وأبسط فتاة يمكن تصورها .. بل كانت اقدر من أدخل العزاء على قلبي وامتعني بالراحة .. وبالتالي فإنها قد جنبتني بالتأكيد دخول مستشفى المجاذيب .

ولما قلت لها انني ألاحق فتاة معينة من أجل أن أبقر بطنها وافقت رأساً على الخطة .. بل انها قامت بتحريات خاصة أوقعتها في يد محتال فعادت الى البيت ذات ليلة وقد فرغت حقيبتها من المال واصيبت هنا وهناك بكدمات في جسمها ..

كانت جريئة متهورة تهوى الألاعيب الخطرة حتى انها اقترحت

ذات يوم ان تلعب بمسدسي الروليت الروسية (لعبة تقضي بترك رصاصة واحدة في خزان المسدس الدوار ثم تدويره بسرعة وتوجيه الفوهة الى رأس اللاعب والضغط على الزناد فاذا صدف ان جاءت الرصاصة الوحيدة عند الزناد قضي على اللاعب) .. لعبناها مرة ولكننا وجهنا فوهة المسدس الى جناح السيارة فأحدثت الرصاصة خدشاً اذ مست الحديد .. لا زلت اذكر كيف زقزقت مبتهجة حينذاك .

ومهما تكن مقابلها فقد كان فيها من الغنج والدلال والمهارة في القبلات ما أبعدني عن إتيان المنكرات من الأعمال بل ان عشرينها جعلتني اكف عن مطاردة الهاربة وجعلتني اتصور ان خاطفها ليس إلا رجلاً بربرياً بدائياً يتمتع بها ولكن ليس في نطاق اظهار مواهبها .

بعد ان قررت الاقتناع بريتا صدف ان ذهبنا في طريق العودة شرقاً الى مدينة صغيرة كانت يوم ذاك مقراً لمؤتمرات من مؤتمرات تجار المواشي والمحاصيل .. من تلك المؤتمرات التي تحفل بالرجال البدان الخنزيري الوجوه الذين يعبّون ما أمكنهم من جمعة ويسكي ويتلوحون هنا وهناك متوددين الى كل انسان .

وفي الليل أفقنا - انا وريتا العزيزة - لنجد شخصاً ثالثاً في غرفتنا . كان شاباً أشقر الشعر ابيض البشرة ذا اذنين رقيقتين شفافتين لم أذكر ولم تذكر ريتا إنه سبق ان رأيناه .. كان جسمه ينضج بالعرق وهو نائم يشخر على السرير المزدوج بثيابه الداخلية القذرة قرب الطاهرة ريتا ..

فهبث ريتا تستر عريها بمعطفي الذي كان أول ما وقع بين يديها .. وحاولنا إيقاظه بالماء فلم يستيقظ وتبيننا انه تسلل من الباب الذي لم نحكم أقفاله .. واخيراً اخذنا نهزه هزاً عنيفاً فلما استعاد وعيه وجدناه فاقد الذاكرة تماماً وهكذا لم يستطع ان يذكر شيئاً ينبئ عن هويته إلا ان ريتا تبينت من كلامه انه من أهالي بروكلين ..

وسارعنا نلبسه ثيابه ثم اخذناه الى اقرب مستشفى وغاردنا المدينة .

وبعد نصف عام كتبت ريتا الى المستشفى تسأل عن أخباره فجاء الجواب بأنه لا يزال فاقد الذاكرة لا يذكر أي شيء عن ماضيه .

ماكنت لأذكر هذه الحادثة لولا انها قد اطلقت في ذهني سلسلة من الأفكار تمخضت عن دراسة كتبتها عن الذاكرة وفقدانها في احدى المجلات وقلت فيها من بين ماقلته ان التحسس بالزمن يستند الى مجرى الدورة الدموية ويتوقف على تحسسه بذاته وادراكه لها .. وهكذا فإن العقل يتوزع بين قطبين .. قطب أحداث الماضي المخزونة في الذاكرة وقطب أحداث المستقبل القابلة للاختزان ..

ونتيجة لهذا البحث العلمي دعيت للتعليم في كلية كانتربن لمدة عام في شقة مفروشة من الشقق المخصصة للشعراء والفلاسفة بينما نزلت ريتا لوحدها في فندق في الضاحية فكنت أزورها خفية مرتين في الاسبوع وكان ذلك ترتيباً لا بد منه إذ خفت ان

يثير سكانها معي لغطاً لا يتناسب مع مركزي كأستاذ ..
ولم تلبث ريتا ان اختفت عن الأنظار ولكن بصورة اكثر
انسانية من لوليتا . ولم ألبث بعد شهر ان وجدتھا في سجن
البلدة .. ورأيتها مزهوة جداً ومعتدة بنفسها فقد أزالوا لها في
مستشفى السجن زائدتھا الدودية كما انها استطاعت ان تقنعني بأن
القراء الجميل الذي اتهمت بسرقة من السيدة « رولاندا كرام »
كان في الواقع هدية عفوية ، ربما بدافع كحولي من السيدة
رولاند بالذات ..

ولقد استطعت ان أخرجها من السجن بدون اللجوء الى
أخيها صاحب النفوذ وكان حزيناً ١٩٥٢ قد حل وحل معه
موعد انتهاء عقدي فأخذتها معي في طريق العودة الى نيويورك
عن طريق برايسلاند حيث توقفنا عدة ساعات في السنة الماضية .
وتملكني حافز شديد في ان أحيأ من جديد ذكرى إقامتي في
برائيسلاند مع لوليتا . فقد كنت في مرحلة من وجودي فقدت
فيها كل امل بالعثور على آثار خاطفها .. وهكذا أخذت احاول
ان اعود الى مسارح حياتي السابقة معها كيأ استعيد ما يمكن
استعادته من الذكريات .

ذهبت أجدول في المرافق التي كنت قد زرتها مع لوليتا مدفوعاً
بذلك الحافز الغريب الذي لا أستطيع تفسير طبيعته . فلما عدت
وجدت ريتا تعاقب الخمر بلامح حزينة مع رجل اشيب قالت لي
انه كان رفيق دراستها .. كانت سكرى من جديد وقد آذيت
قبضتي إذ ضربته على فكه حتى استخلصها منه .. ثم أخذتها

وسرت بها في العراء قليلا حتى تستفيق بلفحات الهواء البارد
فأخذت تنتحب قائلة انني انا الآخر سأتركها واهجرها في
القريب العاجل كما فعل الجميع معها . فأخذت اداعبها حتى
أسري عنها وغنيت لها من وحي الساعة أغنية مضحكة إلا انها
ظلت تبكي لهذا السبب أو ذاك فأخذتها الى السيارة واتجهت فوراً
الى نيويورك ولم يمض قليل وقت حتى كانت تزقزق بالسعادة ونحن
في شرفة بيتنا النيويوركي من جديد ..

- ٢٧ -

ذات يوم تلقيت رسالة هستيرية من جون فارلو جاري
السابق في رامسدال وهو المحامي الذي كلفته بالاشراف على
تصفية تركه زوجتي المتوفاة شارلوت هيز أم لوليتا ..

كنت أعرف ان زوجته قد توفت إلا انني توقعت ان يبقى
مخلصاً لذكرها كأرملة مزمن حزين بليد كما كان دوماً .. ولكنني
فوجئت به يقول في رسالته انه عاد الى امريكا الجنوبية وعهد
بجميع اعماله الى زميله المحامي جاك ريندمولر في رامسدال
وقال انه تزوج من فتاة اسبانية وانقطع عن التدخين فازداد
وزنه ١٥ كيلو غراماً .. وقال عن زوجته الجديدة انها صغيرة
السن وانها بطلة من بطلات الترحلق على الجليد (السكي) وانها
سيذهبان الى الهند لقضاء شهر العسل . وبدا من رسالته انه
مرتاح لتخلصه من قضية تركه شارلوت هيز فقد ازعجه أقاربها

الذين ذكروا له ان لوليتا مجهولة الاقامة وأنني أعيش مع مطلقة عابثة مشهورة .. وقال لي ان الذين يستأجرون منزل شارلوت منذ ذهابنا يريدون شراءه وان من الافضل ان اخرج لوليتا من مخبئها بسرعة حتى يمكن اتمام معاملة البيع . وارفق رسالته بصورة له مع زوجته السمرء وهما في وضع رقيق على ثلوج جبال جمهورية تشيلي .

نسيت ان اذكر انني التقطت مع تلك الرسالة رسالة اخرى ظننتها في بادىء الأمر من ام ريتا التي كانت تلاحقني دائماً برسائل مختلفة الخطوط تقول فيها انني وريتا منسجمان انسجاماً رائعاً وانه سيكون من الرائع ان اتزوجها .. على كل حال فتحت الرسالة الثانية ذات الخط النسائي التي اخذت تخاطبني بصوت الأمر الواقع :

والذي العزيز ..

كيف الحال ؟ لقد تزوجت وأصبح أماً عما قريب واعتقد أنني سأرزق صبياً . وربما في عيد الميلاد .. لقد كان صعباً ان اكتب اليك ولكنني اكادأجن لانه ليس لدينا ما يكفي لسداد ديونتنا وللخروج من هذه المدينة الحقيبة الخائقة . ان زوجي «ديك» موعود بوظيفة كبيرة في آلاسكا حيث سيعمل وفق اختصاصه الميكانيكي .. هذا كل ما اعلمه عن الوظيفة ولكنها تبدو عظيمة .. اغفر لي اذا كنت اخفيت عنك حتى الآن عنواني اذ كنت اعرف انك حاقد علي ، هذا بالاضافة الى انني حريصة على الا يعلم ديك شيئاً ..

ارجوك يا ابي ان ترسل لنا حوالة مالية سريعة.. اننا
نستطيع ان نتدبر امرنا بمبلغ اربعمائة او ثلاثمائة دولار ..
ارسل أي مبلغ فهو يساعدنا ، ذلك ان المال سيبدأ بالتدفق
علينا حالما نصل الى آلاسكا . ثم انك تستطيع ان تبيع البيت
القديم اذا لزم الأمر .

ارجوك ان ترد على رسالتي فقد قاسيت الكثير من الشظف
والاحزان .. وتقبل تحيات ابنتك الحامل ..
لوليتا (مسز ريتشارد شيلر)

- ٢٨ -

عدت من جديد الى الطرقات وحيداً في سيارتي الزرقاء ..
سيارة ام لوليتا .. عدت من جديد الى السفر وحيداً فقد كانت
ريتا تغط في نوم عميق وفي عالم آخر عندما قرأت تلك الرسالة
واخذت أصارع امواج العذاب التي اثارتها في نفسي .

ألقيت نظرة على ريتا اذ كانت تبتسم في نومها وقبلتها على
حاجبها المعروق وغادرتها الى الابد بعد ان حررت رسالة
وداعية رقيقة ألصقتها بورق الصمغ على جبهتها فقد كانت هذه
هي الطريقة الوحيدة لاضمن انها ستقرأها .

قلت لنفسي وانا استقل السيارة :

— ها انا وحدي من جديد .

ولكنني لم اكن وحيداً فقد كان يلزامني مسدسي الأسود

و كنت شديد التحسس به فما وصلت الى اول بقعة خالية حتى
اخذت اقرن على الكيفية التي ستموت بها المسز ريتشارد شيلر
(لوليتا سابقاً) موتاً عنيفاً ..

لقد وجدت قميصاً صوفياً عتيقاً في السيارة علقته في احد
الغصون وتخيلته بديلاً للوليتا وتمرنت عليه واذ كنت انفذ فيه
حكم الأعدام شعرت بضجر مما بدا لي تصلباً في حركة الزناد ..
فتساءلت اذا كان يجب ان ازيتة .. ولكنني قررت انه ليس
عندي من وقت فائض لهذا الأمر . وهكذا عدت الى السيارة
متابعاً رحلتي مع مسدسي الاسود تاركاً القميص معلقاً مثقوباً
بالرصاص ..

كان تاريخ خطاب لوليتا ١٨ ايلول اما المدينة الصادرة عنها
الرسالة فهي كولوننت وهي ضاحية صناعية صغيرة تبعد عن
نيويورك ٨٠٠ ميل

فكرت في بادىء الأمر ان اجد السير طيلة الليل والنهار
ولكنني بعد التفكير قررت الاستراحة ساعات في فندق ريفي
على الطريق قبيل اميال معدودات من المدينة ..

كنت طيلة الوقت افكر ، وخلصت من تفكيري الى ان
العفريت الذي خطف لوليتا ليس بائع سيارات ربما عرفها في
بيردسلي يوم انفجر دولاب دراجتها فتطوع لنقلها بسيارته الى
منزل معلمة البيانو .. ومنذ ذلك الحين علق بها وتحايل حتى
انترعها مني ..

ضبت منبه الساعة بحيث اغادر الفندق في السادسة صباحاً

وقررت ان اتألق بشكل خاص لهذه المناسبة وبتلك العناية
المأثرة عن النبيل الذي يتأهب لخوض مبارزة رتبت اوراقى
وتحمت وعطرت جسدي النحيل وحلقت وانتقيت قميصاً
حريرياً وبذة جديدة ومعطفاً ثيناً وشاحاً كشميرياً ..

للأسف لم استطع ان اتناول فطوري ولكنني ما حفلت بذلك
واعتبرت عدم قدرتي شيئاً ثانوياً واكتفيت بمسح فمي بمنديل
حريري وانا اشعر بالغصة في قلبي والمرارة في فمي .

ووجدت البيت بعد تفتيش طويل .. كان بيتاً حقيراً كئيباً
تتصاعد من ورائه اصوات المطارق .. فأوقفت سيارتي وفككت
فيها هادئاً مدة دقائق .. لقد وصلت الى نهاية رحلتي .. اجل
انتهى هذا التجول المحموم يارفاقي .. وجدت نبضي مضطرباً ،
فدقيقة كان ينبض بمعدل ٤٠ ضربة ودقيقة اخرى كان النبض
يتسارع ليصل الى مائة ضربة .. وفي تلك الاثناء نقلت مسدسي
الى جيب سروالي اليمين .

وظهر من وراء البيت كلب لا يوصف توقف لحظة مدهوشاً ثم
اخذ ينبح صوبي بعينه المقروحتين وبطنه الملوث بالونحل .. وما
لبث ان انفلت مبتعداً وهو ينبح صوبي بين الحين والآخر .

- ٢٩ -

خرجت من السيارة واطبقت بابها بقوة فأحدث ضجة هزت
جوانب فراغ ذلك اليوم المعتم .. واجاب الكلب على الضجة
بنباح جديد. ولما ضغطت على زر الباب شعرت باهتزازاته تسري

في كل كياني .. وطال انتظاري فضغطت زر الجرس من جديد ..
وسمعت حفيفاً يتجه صوب الباب يرافقه عواء مبحوح ثم فتح
الباب :

كانت اطول ببوصتين .. وتضع نظارتين وقدعقت شعرها
بشكل جديد وتحلت بحلق جديد. ما ايسر صورة هذه المخلوقة
التي تمثلتها طيلة سنوات ميتة بيدي .. بدت حلي بشكل مريع
هائل .. فقد انتفخ بطنها بحيث بدأ رأسها اصغر مما كان .. وقد
فقدت سمرتها فبان الزغب على ساعديها ..

وصاحت اذ رأتي بلهجة فيها كل الدهشة والترحيب :
- يا ... ه ..

فغمغمت ويدي على قبضة المسدس :
- زوجك في البيت ؟

ما كان بوسعي ان اقتلها انذاك فقد كنت احبها .. كان حباً
من النظرة الاولى والنظرة الأخيرة .. والنظرة الدائمة والنظرة
الأبدية ..

وهتفت بي لوليتا برنة مرحبة مرحة :
- هيا ادخل .. تفضل ..

وقالت ذلك وازاحت بطنها المكورة لتفسح لي طريقاً فمررت
دون الاحتكاك بالوليد المغلف في بطنها .. ولكنني شممت رائحة
العرق مصحوبة برائحة ما علق يجسمها من المطبخ .. فاصطكت
اسناني كالآبله .. بينما اغلقت الباب وطردت الكلب ولحقتني الى
الصالون هي وبطنها ..

وقالت لي وهي تشير بيدها :

— هو ذا زوجي ديك ..

وتطلعت عبر المطبخ الى الباحة حيث رأيت شاباً اسود
الشعر ينحني على محرك يصلحه ويحاذيه شاب آخر يذراع واحدة
يتطلع اليه بينما استطردت لوليتا قائلة : هل اناديه ؟

فلما اجبت سلباً بسطت راحتها ، كما تفعل الراقصة الهندية اذ
تفتتح الرقص ، لتخبرني بين الجلوس على المقعد الهزاز او الديوان
الذي يتحول الى فراشها الزوجي بعد العاشرة ليلاً .

وجلسنا على الديوان وامتدت يدي بحذر تلامس في جيبي
المسدس الأسود الملفوف بالمنديل فلما اقترحت ان تدعو زوجها
من جديد فتعرفني عليه قلت لها :

— ليس هذا ما انشده .. انني اريد معرفة الآخر ..

هنا اختفت نظرة الترحيب المشرقة من وجهها وتغضنت
جبهتها كما كانت تفعل في ساعات مراراتها معي :

— اوه ..

— اجل اين هو ! اجيبي بسرعة ؟

فقالت وهي تهز رأسها اضطراباً :

— اسمع .. لا يجب ان تفتح هذا الموضوع

— كلابل سأفتحه ..

ولما كانت امرأة عاقلة فقد كبحت اعصابها واخبرتني بان
ديك لا يعلم شيئاً من أمر ماضيها الحافل وانه يظن انني ابوها وانها
ابنة عائلة ارسقراطية هربت عمداً من بيتها الوثير المترف ، كما

تفضل الاطباق في مطعم وتعيش من كسبها .. انه يصدق كل شيء ولقد صدق كل اكاذيبها فلماذا اريد ان ازيد من مصاعبها بإثارة الماضي وكشف خباياه ؟

فقلت لها ان عليها ان تكون منطقية ويجب ان تدرك بانها يجب ان اعرف ما حدث اذا كانت تتوقع ان تنال المعونة التي جئت لتقديمها وهكذا استطردت ملحاً :
- هيا اعطني اسمه ..

كانت تظن بانني كنت قد حضرت اسمه منذ زمن طويل .. انه اسم مثير وقد قالت لي انها ما كادت تصدق نفسها ما حدث .. وما كادت تصدق ان صاحب هذا الاسم هو الذي استخلصها مني .. ولكنها عادت تقترح ان انسى الامر فماذا يهم الآن اسمه بعد ان تزوجت . وحاولت تغيير الحديث بان اقترحت علي تدخين سيكارة فأجبت :
- كلا .. اعطني اسمه .

فلما هزت رأسها سلباً قائلة ان الوقت قد فات للعتب علي ما مضى كما انني لن اصدق ما لا يصدق ، قلت لها انه يحسن بي اذن ان اذهب .. يكفي انني رأيتها .
هنا ادركت عنادي فقالت : هل تريد معرفة اسمه حقاً انه .. عند هذا الحد انخفضت صوتها وزمت شفيتها وذكرت اسماً لا بد ان القارئ اللبيب قد حزره من قبل ..

خيل لي كذلك انني عرفت الاسم دون ان اعرفه اطلاقاً !! فلم اصب بدهوة ولا بهزة . وبدأت الأشياء تتسلسل في ذهني

بترتيب ، بينما اخذت تحدثني عنه وانا اذوب في بوتقة هذا السلام الذي حل بي اخيراً وانقذني من التشويش الكاوي ..

قالت لي انه كان الرجل الوحيد الذي جنت بجهه .. سألتها الا تحب ديك فقالت : اوه ديك انه حمل وديع .. انها سعيدان معاً ، ولكنها تعني بالحب شيئاً آخر .. اما انا فاني لم ادخل قلبها بالطبع فلم يكن لي نصيب من حبها الحقيقي ..

كان في كلامها ما يدل على انها تعتبرني قد ادركت ان ذلك الرجل الذي اختطفها مني قد عرف كل شعرة من جسمها الجميل . وكانت عيناها اذ تتحدث عنه تلتصعان ببريق خاطف .. تمازجه بعض المرارة ؛ ولكنه ينم عن شغف عميق .. اما علاقتنا نحن الاثنين فكانت تعتبرها كحفلة طويلة ثقيلة الظل .. مملة .. ملل وصلة تدريب .

ضربت على ركبتي بحركة عفوية فناشدتني الا اكون عصبياً فقد مضى ما مضى وقالت لي انها تعتبرني أباً طيباً .. عطوفاً .. ومضت لوليتا تروي لي مزيداً من الامر :

كيف لم اعرف بانه قد عرف امها قبلاً ؟ لقد كان عملياً صديقاً قديماً من اصدقاء العائلة .. وقد جاء الى رامسدل ونزل في ضيافة عمه وألقى محاضرة في نادي امها .. بالطبع منذ سنوات طويلة . وانه دأبها حينذاك وعانقها وقبلها امام الجميع فأثار غضبها .. كانت حينذاك في العاشرة وقبل ان تعرفني بسنتين .. قالت لي انه رأى معي في احد الفنادق وكان يكتب المسرحية التي لعبت فيها دوراً فيما بعد في مدرسة بيردسلي .. اجل انه

المؤلف المسرحي كليبر الذي جعلتني اظنه امرأة عانس . اجل
ان الحياة كذبة بعد اخرى ولو كتب احد ما قصة حياتها لما
استطاع قاريء ان يصدق مجرياتها .

عندما وصلت الى هذا الحد من روايتها تصاعدت جلبة من
المطبخ حيث ولجه ديك ورفيقه بيل بحثاً عن البيرة ، فلما لحاني
دخل بيل الصالون فصاحت لوليتا بصوت ثاقب ، كان غريباً على
اذني وينم مع ما فيه من مرح على حزن دفين :
- ديك هذا ابي ..

كان ديك ثقیل السمع بسبب اصابة تعرض لها في الحرب .
تصافحت مع ذلك الشاب الطويل الذي جلب لي علبة بيرة
مع تحياته وقد بدا عليه انه ظن انني جئت لانزل في البيت بعض
الوقت ، ولذلك فقد بادر مقترحاً بان ينام هو ولوليتا على فراش
اضافي يفرشانه في المطبخ . فهزرت يسدي مستبعداً الفكرة
وابلغت لوليتا بانني ما جئت الا لزيارة عابرة اذ سأوجه فوراً
الى ريد سبورغ لألي دعوة بعض الاصدقاء المعجبين فنقلت اليه
لوليتا النبأ بصراخها الثاقب . ولم يلبث ديك ان انسحب مبتسماً
قائلاً انه سيذهب لاصلاح شيء ما وانه يظن ان لدينا اخباراً
كثيرة يجب ان نتبادلها على انفراد .. وتمنى ان يراني قبل ان
اذهب .

ولما ذهب نهضت فاجلستني لوليتا من جديد على الكرسي
الهزاز فلم اطق الا ان اسألها من جديد .
- اذن لقد خنتماني ؟ اين ذهبتما ؟ اين هو الآن ؟ ..

وقدمت لي سيكارة رفضتها فاشعلتها لنفسها .. كانت هذه اول مرة اراها تدخن فيها .. كان ذلك شيئاً محرماً ،عندما كانت في عهدي .. ومن خلال سحب الدخان الازرق اللطيف بدت لي لوليتا وكأنها امها شارلوت هيز تنضو اكفانها وتخرج من القبر ..

وقطعت لوليتا الصمت المخرج قائلة :

- كلا لم اخنك لقد كان صديقاً قديماً .. صحيح ان احدى صديقاتها قد حذرتها منه فهو يحب الفتيات الصغيرات .. بل انه سجن ذات مرة في نيويورك لتحرشه بمراهقة .. ولكنه لم يكن مثلي او مثلها مخلوقاً عادياً انما كان عبقرياً .. كله مسرات .. قالت لي وانه انفجر ضاحكا عندما اعترفت له بحقيقة ما كان يجري بينها وبينني وقال انه كان يعتقد بأن مثل تلك العلاقة الآثمة قائمة بيننا .. قالت لي بأنه اخذها اول مرة الى مزرعة لاهم امرها الآن احداً فقد احترقت واضمحلت .. قالت لي انه اتصل بها ذات مرة وهي تلعب التنس .. والهب خيالها اذ قال لها انه سيأخذها في ايلول (سبتمبر) الى هوليوود ليعدها تجربة سينائية كما تؤدي دوراً في رواية سينائية كتبها .. ولكن لسوء الحظ لم تأت ظروف مناسبة لتحقيق الفكرة ..

- اين هذا الخنزير المحتال الآن ؟

- انه ليس بخنزير .. لقد كان رجلاً رائعاً في كثير من الوجوه ولكن المسكرات والمخدرات هي التي قضت عليه .. وكان بالطبع - مذاقاً خبيراً بالقضايا الجنسية .. وكان يجعل من

وقدمت لي سيكارة رفضتها فاشعلتها لنفسها .. كانت هذه اول مرة اراها تدخن فيها .. كان ذلك شيئاً محرماً ،عندما كانت في عهدي .. ومن خلال سحب الدخان الازرق اللطيف بدت لي لوليتا وكأنها امها شارلوت هيز تنضو اكفانها وتخرج من القبر ..

وقطعت لوليتا الصمت المخرج قائلة :

- كلا لم اخذك لقد كان صديقاً قديماً .. صحيح ان احدى صديقاتها قد حذرتها منه فهو يحب الفتيات الصغيرات .. بل انه سجن ذات مرة في نيويورك لتحرشه بمرأته .. ولكنه لم يكن مثلي او مثلها مخلوقاً عادياً انما كان عبقرياً .. كله مسرات .. قالت لي وانه انفجر ضاحكا عندما اعترفت له بحقيقة ما كان يجري بينها وبينني وقال انه كان يعتقد بأن مثل تلك العلاقة الآثمة قائمة بيننا .. قالت لي بأنه اخذها اول مرة الى مزرعة لاهم امرها الآن احداً فقد احترقت واضمحلت .. قالت لي انه اتصل بها ذات مرة وهي تلعب التنس .. والهب خيالها اذ قال لها انه سيأخذها في ايلول (سبتمبر) الى هوليوود ليعدها تجربة سينائية كما تؤدي دوراً في رواية سينائية كتبها .. ولكن لسوء الحظ لم تأت ظروف مناسبة لتحقيق الفكرة ..

- اين هذا الخنزير المحتال الآن ؟

- انه ليس بخنزير .. لقد كان رجلاً رائعاً في كثير من الوجوه ولكن المسكرات والمخدرات هي التي قضت عليه .. وكان بالطبع - مذواقاً خبيراً بالقضايا الجنسية .. وكان يجعل من

كل صديقة له عبدة طيعة .. قالت انها وجدت في المزرعة ما لا
استطع ان اتصوره .. اجل لا استطيع ان اتصور ما كان يفعله
ورفاقه ورفيقاته في المزرعة ، حيث رفضت الاشتراك معهم
لأنها كانت تحبه وحده حقاً ولذلك فقد طردها ..

– ماهي تلك الاشياء ؟

– اوه .. اشياء فظيعة قذرة .. اشياء لا يصدقها الخيال ..
كان هناك شابان وفتاتان وثلاثة رجال .. وكان هو يطلب من
الجميع ان يتخالطوا وهم عراة تماماً ، بينما تقوم امرأة عجوز
بالتقاط افلام سينمائية لهم ..

وبعد هذا رفضت لوليتا ان تخوض في تفاصيل ما كان يحدث
في تلك المزرعة .. مشيرة الى انها متزوجة والى انها تحمل جنيناً
في بطنها ..

واستطردت لوليتا تروي لي امرها :

– لقد رفضت الانغماس معهم .. كنت اريد ان اكون له
وحده ، ولكنه لم يرض فطرطني .. وبعد ذلك لم يحدث ما بهم ..
ففي شتاء ١٩٤٩ وجدت عملاً في احد المطاعم حيث ظلت أعمل
سنتين ثم التقيت بديك ..

سألتها اذا كانت اثناء ذلك قد عادت الى الاتصال بالآخر
فنفت قائلة انها لم تكن تعرف فعلاً اين استقراره الأمر ، ولكنها
لو ارادت معرفة مقره لما صعب الأمر عليها فهو شهير
ومعروف ..

لقد عرفت كل ما اردت ان اعرفه فكففت عن سؤالها

مزيداً من التفاصيل، اذ لم تكن تخالجي اي نية في تعذيب حبيبتي .
وفي تلك الاثناء تصاعد من المطبخ صوت الراديو في اغنية
عن جنون الحياة والاقدار .. فاعمضت لوليتا عينها وفرجت
فمها وألقت برأسها الى وسادة الديوان .. فبدت كأنها امرأة
بلت الحياة وتجاوزت كثيراً سن السابعة عشرة ..

تطلعت اليها وتأملت لها ملياً فعلمت يقيناً ، كما اعلم بانني
سأموت ، وانني احبها اكثر من اي شيء رأيته او تخيلته
او رجوته في هذا العالم .

لم تكن في تلك اللحظة سوى صدى باهت لتلك الحورية
المسعورة التي طالما عانقتها وانا اهزج فرحاً في الماضي .. كانت
زهرة ذابلة ، ولكنها لم تزل تحتفظ بشيء من ضوعها وبقطرات
من الندى .. واحد الله على ان هذا الصدى لم يكن الشيء الذي
احببته وعبدته ..

ومع ذلك فقد كنت واثقاً من قدرتي على ان اعيدها كما
كانت .. انني اقول هذا لانني اريد الدنيا ان تعرف كم احب
لوليتا .. اجل انني لا ازال احب حتى هذه اللوليتا الحامل
الشاحبة التي تحمل جنيناً من رجل آخر . ولهذا فكرت حينئذ
باننا نستطيع ان نعود الى ما كنا عليه .. فقلت لها :

- اسمعي .. ربما قد يبدو كلامي في غير مكانه .. ولكن
يجب ان اقول ما اقول .. ان الحياة قصيرة وليس بين هذا
الصالون وسيارتي العتيقة سوى عشرين او خمس وعشرين
خطوة . انها مسافة قصيرة للغاية .. فيها لنجتازها معاً ..

الان .. تعالي معي كما انت .. وسنعيش حتى الابد من السعداء .
فقال لي وقد فتحت عينيها ولممت ذاتها كحبة تتأهب
للسع :

- أتعني انك لن تعطينا (تعطينا !!) بعض المال الا اذا
ذهبت معك الى فندق ؟ أهذا ما تعنية ؟
- كلا .. لقد أسأت فهمي .. انني اريدك ان تتركي ديك
وتتركي هذا المكان الكريه اريدك ان تأتي لتعيشي معي وتموتي
معي .. ولتشار كيني كل شيء ..
فقال لي ووجها يتلون وملاحظها تتغضن :
- انك مجنون ..

- فكري في الأمر .. ليس هناك من شروط .. انك لن
تكوني مقيدة معي بشرط الا ... ولكن لا يهم انني سأعطيك
جهازك حتى لو رفضت الذهاب معي ..
فلما ابدت شكها ناولتها مظروفاً يحتوي على ٤٠٠ دولار وعلى
شيك بمبلغ ثلاثة آلاف وستمائة دولار .

تناولت هديتي المالية بفرح وما لبثت جيبتهها ان اصطبغت
بالدماء المحترقة وقالت وهي مبهورة الانفاس :
- اتعني انك تعطينا اربعة آلاف دولار ؟

غطيت وجهي براحتي وانفجرت باكياً وسكبت تلك اللحظة
دموعاً لم اسكب من قبل في حياتي دموعاً بمثل حرارتها وتركت
الدموع تخضب وجنتي وتقططر على ذقني ولم استطع ان امسك عن
البكاء ، وعندما امسكت يدي باشفاق قلت لها :

- سأموت اذا مستيني .. قولي هل انت متأكدة من انك
لا تريدن الذهاب معي ؟ اليس هناك أمل في ان تأتي ؟ اجيبي ؟
- كلا .. ما من امل يا عزيزي ..

كلا .. هذه قضية غير واردة .. اذا ذهبت من منزل زوجي
فسأذهب الى كليز كيلتي .. اعني ..

ارتبكت لوليتا عندهذا الحد كأنها كانت تقول لقد حطم هو
قلبي اما انت فقد حطمت حياتي .. ثم استأنفت :

- انه كرم عظيم منك ان تعطينا كل هذا المبلغ الكبير انه
يسدد كل ديوننا ونستطيع ان نساغر الى الاسكا في الاسبوع
القادم .. انك تستطيع ان تفهم الحالة .. ارجوك لاتبكي ..
انني آسفة لانني خدعتك ، ولكن ما حدث قد حدث ..

مسحت وجهي واصابعي من آثار الدموع ، بينما كانت تغمر
المظروف المالي بابتسامة الشكر .. وارادت ان تنادي ديك ،
ولكنني قلت لها انني راحل بعد لحظة ولا اريد ان اراه اطلاقاً .
وحاولت لوليتا ان تصطنع موضوعاً للحديث ، بينما غلف
الضباب نظراتي وخيل الي انني لا ازال ارى في هذه الشقية الجبل
طفلة مراقة في الثانية عشرة .. ذات الطفلة التي اخذتها معي في
رحلة مسعورة مسحورة .

وما لبثت ان عدت الى موضوع المال فقلت لها ان هذا
المبلغ هو ايجار بيت امها ..

وابدت دهشتها فقد كانت تظن ان البيت قد بيع منذ زمن
بعيد وزدتها دهشة عندما قلت لها ان الهامي سيرسل لائحة

بإرثها وان حالتها المالية مسرة فقد تركت لها امها سندات ارتفعت اسعارها كثيراً ..

طلبت مني لوليتا ان ابقى فقلت لها انني مضطر الى الرحيل .. اجل كان يجب ان ارحل وأن اكتشف مقره لازهاق روحه ..

وقامت لتودعني نظراً لأنه ما كان بوسعي ان التحمل قبله من شفتيها فقد اخذت انكفيء الى الوراء كلما خطت هي وبطنها المتكورة خطوة نحوى ..

وودعني الى الباب حيث وقفت السيارة وقد دهشت اذ تطلعت الى السيارة بنظرات لا مبالية رغم ما تقترن به من ذكريات .. ذكرياتها وهي مراقة دخلت باب الحياة الجنسية عن طريق هذه السيارة .. سألتها مرة اخيرة بضراعة :

كلمة اخيرة .. هل انت متأكدة تماماً من انك لن تعودى الى .. لست اعني في الغد او بعد الغد .. انما اعني يوماً ما ؟ الن تأتي يوماً ما ؟ الن تعودى لتعيشي معي ؟ .. انني سأخلق لنفسى الهاً جديداً وسأشكره بصرخات ثاقبة اذا اعطيتني هذا الأمل الميكروسكوبي الضئيل ..

— فاجابت باسمه :

— لا .. لا ..

— لو اعطيتني هذا الأمل لغيرت مجرى حياتي كلها .. قلت هذا .. ولم اشهر مسدسي عليها، كما قد يتبادر الى ذهن

القارىء الساذج .. اجل فما خطر لي ذلك قطعاً ..
وهتف جبي الازلي الذي مات يودعني .. اقول جبي الذي
مات لأنها ميتة وخالدة حسب الاتفاق الرسمي مع ما يدعى
بالسلطات القضائية .. فلقد اتهمت باننى قتلتها واخفيت جثتها ..
ورضيت بهذه التهمة ..
ماكدت اندفع بسيارتي مبتعداً حتى سمعتها تصيح بصوت
مرتحف تنادي ديك واخذ الكلب يتوثب ملاحقاً سيارتي، ولكنه
لم يلبث ان كف عن الجري فقد كان كلباً هرماً وبديناً ..
ومضيت اسوق سيارتي تحت سيل من الأمطار كان يقابله
سيل من الدموع لم استطع ايقافه .

- ٣٠ -

وتوجهت عائداً بسرعة الى مدينته رامسدال عن اقرب طريق
لاصفي حساب خاطف لوليتا .. ذلك المؤلف المحتال . وفي
الطريق توقفت في احدى القرى للراحة ، وكما استعرض قضيتي
من جديد .. فرأيت بأقصى البساطة والصفاء ذاتي وحبيبي ..
ورأيت مما مر بنا من احداث كانت حتى ذلك الحين تعود الى
ذاكرتي غائمة ..

تذكت انني قبل عامين قد ابدلت بهداية من قسيس كاثوليكي
ذكي إلحادي بالمذهب البروتستنتي بايمان تسليمي كاثوليكي هو
علاج قديم ، بما فيه من عنصر الاعتراف والحل من الخطيئة، لفك

عقد الاثم في النفس .. لقد ابدلت هذا بذالك في لحظة من الفضول
الميتافيزيكي بأمل ان استنتج من شعوري بالاثم وجود كائن اعلى
مطلق ..

لقد بذل ذلك القسيس كل جهده وعاملني باللطف فانا شاكر
له ، ويا للأسف لم استطع ان اتجاوز عن واقع انساني بسيط هو
ان ما من شيء يستطيع ان يُنسى لوليتا الشبق المنحرف الذي
عرضتها اليه مهما وجدت في الاعتراف من راحة وجدانية
وعزاء روحي . فما لم يثبت لي بانه من غير المهم اطلاقاً ان تحرم
طفلة مراقة امريكية هي لوليتا هيز من طهارة طفولتها على يد
منحرف مهووس .. اجل ما لم يثبت لي ذلك (وان الحياة
الخلقية بأن تكون اضحوكة لو امكن اثبات ذلك) فإنني لا اجد
وسيلة تشفيني من شقائي سوى القاء اللوم على الاقدار بتلك
الطريقة الاعتذارية التي تؤلف فناً قديماً من فنون التحلل من
الذنوب .

- ٣١ -

ها انا من جديد اعود لزيارة رامسدال .. جئت اليها هذه
المرة من طرف البحيرة وكان الوقت ظهراً وكل ما في الكون يلتئم
ويبدو بجلاء .. ولقد مررت بالمقبرة وألقيت التحية على قبر
شارلوت ، ثم مررت بالبيت القديم ، حيث علقت عليه لوحة
تعرضه للبيع .. كانت مقفل النوافذ يخيم عليه هدوء الموت .

وبعد ان توقفت برهة قدت السيارة مسرعاً الى الفندق الذي
حلت به منذ خمس سنوات ، عندما جئت الى المدينة اول مرة ..
فقد شعرت بانني اضيع وقتي بتأملات لا طائل منها .

في الفندق صادفت جمعاً من رفيقات شارلوت .. يتبادلن
الوداع المتكلف بعد ان انتهين من مأدبة اجتماعية .. ولقد عرفتني
منهن أم فيليس رفيقة لوليتا فقاربتني بصيحة دهشة وابتسامة
مزيفة تتألق بالفضول وبالغمزات واللمزات (كأنها كانت تتساءل
هل صنعت بلوليتا ما صنعه الميكانيكي فرانك لاسال البالغ من
العمر خمسين عاماً بالطفلة سالي هورنر البالغة من العمر ١١ عاماً ..
كانت الحادثة فضيحة الموسم عام ١٩٤٦ عندما جئت الى رامسدال)
وشرحت لها بشيء من النشوة انني اعيش في كاليفورنيا وان
لوليتا قد تزوجت من مهندس شاب مرموق .. فكان جوابها
انها لا تقر هذه الزيجات المبكرة ، وانها لا يمكن ان تدع ابنتها
فيليس البالغة من العمر ١٨ عاماً الآن ان ..
وقاطعتها مستجوباً :

— بالطبع .. ولكن هل اخبرتك فيليس رفيقة لوليتا في تخيم
البنات كيف كان ابن المدير تشارلي هولمز يفسق بالبنات اللواتي
ترعاهن أمه ؟

غابت الابتسامة عن وجهها وصاحت :

— يا للعار ... لقد قضى هذا الغلام نجبه في كوريا ...
تركت هذه العجوز لاذهب الى بيت الدكتور مولنار خال
ذلك الوحش الذي اغوى حبيبتي .. لاستقصي عنه بهراعة

لا تثير الشبهة .. والواقع انني استطعت ان اخفي نواياي فقال لي
الطبيب بعد حديث متشابك بانه يظن بانني استطيع ان اجد
كيلتي في بيته في ضاحية غريم رود ..
نزلت من عنده مسرعاً الى السيارة واخرجت مسدسي
وحشوته بثمان طلقات تتوق الى الزناد .



على الطريق شرح لي عامل محطة البنزين كيف اصل غريم رود
ونظراً لانني اردت ان اتأكد من وجوده فقد حاولت الاتصال
ببيته هاتفياً ؛ ولكن مصلحة الهاتف اخبرتني ان هاتفه موقوف
عن العمل بانتظار ان يسدد المترتب عليه ..
تساءلت اذا كان ذلك يعني انه قد رحل ؟
وسقت سيارتي يراودني قلق شديد من ان يكون قد غادر
بيته .. فوصلت الى ضاحية باركينغتون وقد بدأت الظلمة تخيم
فقررت ان اقضي ليلتي هنا لأعيد بسط خطتي ..
على انني مضيت الى غريم رود من اقرب طريق وكان الظلام
قد بدأ يخيم على الكون ويحجب الرؤية . ولما وصلت الى امام
البيت ارتسمت في ذهني صورة تلك القصور التي تجري فيها
حفلات الفسق مع صغيرات في بداية ربيع العمر وتصورت
لوليتا في هذا البيت الفاسق فعلى الدم في عروقي . على انني
كبحت نفسي فلكل شيء ميعاده .. يكفي انني عرفت البيت
الآن .

غادرت الفندق في الثامنة من صباح اليوم التالي بعد ليلة طال فيها سهادي وامضيت بعض الوقت في مدينة باركينغتون القريبة من غريم رود وظلت تلاحقني طيلة الوقت خيالات تفاصيل عملية اعدام كيلتي .. ولما خيل الي ان خراطيش المسدس قد تبلمت من زيتته فانني ابدلتها حتى لا اترك سبيلاً لطاريء مفاجيء ومسحت المسدس جيداً ولففته كوليـد صغير بقطعة من القماش ..

ثم عدت الى غريم رود ترافقني عاصفة مدوية من الأمطار والبروق والرعود فلما اقتربت منها كانت العاصفة قد هدأت وعادت الشمس تسطع والعصافير تزقزق .. وبدأ لي البيت قائماً في لجة من الوهج ثم ما لبثت ان ادركت اذ وطأت الأرض التي بدت لي مقلقة بانني قد افرطت في تنشيط نفسي بالكحول .

قرعت الجرس فأجابني صمت مطبق خيل الي انه يهزأ بي ولكنني لم اياس فقد رأيت سيارته في الكاراج وهكذا طرقت على الباب بشدة ولما لم يجب احد على طرقاتي دفعت الباب فانفجرت دفتاه كما يحدث في القصص الخرافية .

اغلقت الباب خلفي برفق وشققت طريقي عبر ردهة فسيحة بالغة البشاعة ومن الردهة تلصلصت على غرفة الجلوس المجاورة فلاحظت اقداحاً فيها بقايا السهرة وخلصت من منظرها الى ان صاحب البيت لا يزال نائماً في غرفته وهكذا

اندفعت صاعداً الى الطابق الثاني ويدي اليمنى تطبق على
مسدسي المتهيء للانطلاق . وتفقدت ثلاث غرف منامة فوجدت
ان احداً ما قد نام في واحدة منها الليلة الفائتة .. واخذت اتفقد
بقية الغرف .. كان هناك العديد منها ثم ما لبثت ان توقفت
واصابتنني لوثة من الغباشة والدوخة فقد خطرت لي انه ليس من
الحكمة ان ادع لطريدي فرصة اللجوء الى غرفة واقفال بابها
عليه اذا صدف ان خرج من مكان ما ورآني .. اجل اصابني
ذهول استمر عدة دقائق قبل ان اهرع الى استخلاص المفاتيح
من ابواب الغرف تحوطاً لهذا الطارئ ..

وبينا كنت أتوجه للبحث عنه في الحمام الثالث خرج صاحب
الدار منه مخلفاً وراءه ذيلاً رفيعاً من الماء المتساقط من شعره
وحاولت ان اختبئ في زاوية الممر الا انها لم تحميني ولم تخفني
تماماً .. ولم يلبث ان مر بي في منشفته دون ان يعيرني التفاتاً
ولربما كان السبب في ذلك يرجع الى انه لم يلمحني او حسبني
شبحاً من اشباح اوهامه التي تلمبها المخدرات التي يتعاطاها ..
على كل حال تابع طريقه كأنما يسير في نومه منحدرأ الى الطابق
الاول .. وفي هذه الاثناء وضعت آخر مفتاح في جيبي وتبعته
الى الردهة الامامية حيث رأيته يفتح فمه وباب البيت نصف
فتحة ليطل من الباب على الدنيا المشمسة كشخص خال ان
احداً ما قد ناداه .. ثم ما لبث ان قفل الباب وعاد متجهاً الى
غرفة نومه عبر القاعة غير عابئ بالشبح الذي رآه يقف في وسط
الدرج انما اتجه الى غرفة منامته بكل اطمئنان ، اما انا فقد

تركته يدخل الى غرفته وذهبت الى المطبخ حيث مسحت
مسدسي من الشحم والزيت ثم اندفعت الى غرفة النوم بخطوات
النمر . خطوات خفيفة اندفاعية .. بينما كان قلبي ينبض بفرح
كالفرح الذي يساور النمر اذ يقفز على فريسته القفزة القاضية ..
وفي الطريق الى الغرفة قابلني سيد البيت في الصالون
الشرقي الاثاث فقد كان قد احس بي وشعر بانه قد مر ما يكفي
من الوقت كما يتحقق من هويتي فسألني بصوت أجش وهو
يصوب نظراته نحو الشمال الشرقي من رأسي :

— والآن من تكون حضرتك ؟ هل انت بروستر ؟

تبين واضحاً من سؤاله انه جاهل تماماً بأمرى وانه تحت ما
يدعي برحمتي .. فوجدت انني استطيع امتناع نفسي بملاعبته
فقلت :

— لقد حذرت انني مسيو بروستر .. دعنا نتحدث قليلاً
قبل ان نبدأ العمل .

فاهتز شارباه .. اذ لم يبد ان الأمر ازعجه فخلعت معطفي
الشتوي وبانت سترتي السوداء وتحتها قميص اسود بدون ربطة
وما لبثنا ان جلسنا على كرسيين عريضين ..
وقال لي وهو يحك ذقنه الممتلئة ويفتح فمه عن ابتسامة
خبثية :

— انك تبدو لي كجاك بروستر .. أي ان الشبه بينكما
ليس ملحوظاً وبارزاً .. ولكن احد اصحابي قال لي ان لجاك
أخاً في مصلحة التلفون ذاتها التي يعمل فيها ..

شعرت بغبطة سـمـاوية لا توصف .. فقد كان من النعم
العظمى ان ا تأمل بمئات النظرات المتعجبة المتسائلة الى تفاصيل
هذا المخلوق تراوحه نغمات الألم والقلق من وجودي .. وان
اعرف ان هذا الوحش الشبه مخدر الشبه مهووس قد فسق
بلوليتا واغواها .. أجل كان ذلك نعمة ولكنها لا تطاق ..
قلت له :

— أجل انني لست احد الاخوين بروستر ..
فهبز رأسه متعجباً مسروراً أكثر من قبل فقلت له :
— حاول ان تحزر من أنا ..

فأجاب : اذن جئت تزعجنا بخصوص تلك المكالمات الهاتفية
الخارجية .

— انك تقوم بتلك المكالمات مرة بعد اخرى ؟
— لست انا .. انهم أصدقائي .. الناس الذين يأتون الى هذا
البيت فيغزونه دون استئذان ويستخدمون المطبخ والبراد
والحمام والتلفون لمكالماتهم الهاتفية .. ولذلك فاني أرفض أن
أدفع أجرتها ..

— معك حق .. ولكن هل تذكر فتاة تدعى دولوريس
هيز . اعني لوليتا .

— بالطبع .. ربما هي التي قامت بتلك المكالمات .. انها
كانت تطلب كل مكان بالهاتف من واشنطن الى الجحيم .. ولكن
ما اهمية ذلك بالنسبة لك ؟

— انني مهتم بالأمر يا كيلتي .. فأنا أبوها ..

- هراء .. انت لست أباهـا .. هراء .. لا بد انك وكيل
احدى شركات النشر الفرنسية .. لقد ترجموا لي الى الفرنسية
روايـتي (كبرياء الجسد) ..

- لقد كانت ابنتي يا كيلتي .. فأنا أبوها ..
كان كيلتي في حالة نفسية جدية لا يمكن معها لأي شيء ان
يدهشه ولكن لا مبالاته لم تكن تامة فقد كان يراوحه قلق يلتمـع
في عينيه التامة باهتة .. ولكن عينيه عادة الى جـود نظراتهما
وهو يقول :

- انني شخصياً مغرم بالأطفال .. وان الآباء هم دائماً من بين
أعز أصدقائي .

والتفت مفتشاً عن شيء ما وتحسس جيوبه ثم حاول ان ينهض
من مقعده فصحت به بصوت كان أعلى مما قصدت :
- اجلس مكانك ..

- لست بحاجة لأن تصرخ في وجهي
قال ذلك متذمراً بلهجة متخنثة وأردف قائلاً :
- لقد أردت أن أدخن سيكارة .. سأموت إذا لم أدخن ..
- إنك ستموت على كل حال ..
- أوه كفى مزاحاً .. لقد بدأت تضايقني .. ماذا تريد ؟ هل
أنت فرنسي ؟ هل تريد أن تشرب شيئاً .. تعال الى البار لنشرب
كأساً ..

وقطع كيلتي كلامه فقد رأى المسدس الأسود مبطوحاً على
راحتي كأنما كنت أقدمه اليه .. وقال لي وهو يقلد لهجة الاشرار

في الأفلام السينمائية :

— هذا مسدس بديع .. ماذا تريد مقابله ؟

رفع يده فضربتها بيدي ولكنه استطاع ان يقلب على طاولة منخفضة علبة انيقة تناثرت منها السيكارات فقال فرحاً :

— ها هي السيكارات .. والآن نحن بحاجة الى كبريت

— اسمع يا كيلتي .. اريدك ان تعبرني كل انتباهك ..

انك ستموت بعد لحظة .. وقبيل ذلك سيكون ما تبقى لك من الوقت حالة جنونية دائمة .. لقد دخنت سيكاارتك الأخيرة بالأمس .. اعزني انتباهك وحاول ان تفهم ما سيجري لك ..

فقال وهو يجذب انفاساً من سيكارة غير مشتعلة :

— انني مستعد كما احاول الانتباه اليك .. لا بد انك يهودي

استرالي او ألماني لاجيء الى امريكا .. ولكن هل يجب ان تتحدث إلي حقاً ؟ هذا بيت مسيحي كما تعلم ولربما كان الأفضل ان تغادره .. وكف عن اللعب بهذا المسدس .. ان لديّ مسدساً اضخم في غرفة الموسيقى .

صوبت مسدسي نحو قدمه وضغطت على الزناد فتطلع الى

المسدس ثم الى قدمه بينما أزرّ الزناد ولكن الرصاصة لم تنطلق فبذلت مجهوداً ثانياً وهكذا انطلقت الرصاصة وثقبت السجادة السمكية .. ومسني شعور جنوني بأن الرصاصة لم تستقر في موضعها وانها ستقفز من جديد الى الفضاء ..

وقال لي كيلتي بغير انفعال كبير :

— هل فهمت ما أعنيه .. يجب ان تكون اكثر حذراً . هيا

اعطني هذه اللعبة بحق المسيح .

ومد جسمه يحاول أخذ المسدس ولكنني دفعته الى مقعده
والغبطة تغمرني فقد آن الأوان لإهلاك عدوي ومع ذلك فقد
كنت حريصاً على ان اجعله يدرك بأنه سيلقي حتفه على يدي..
وهكذا قلت له :

— هيا ركز افكارك على لوليتا هيز التي اختطفتها ..

فصاح : انني لم اخطفها .. انك مخطيء تماماً إنما انقذتها من
فاسق متوحش .. هيا أرني بطاقتك البوليسية بدلاً من تصويب
نارك الى قدمي ايها القرد .. اين هي شارتك البوليسية ؟ انني
لست مسؤولاً عن اعمال اغتصاب الفتيات التي يقوم بها غيري..
انه سخف ان اتهم باغتصاب لوليتا . لقد ذهبت معي في جولة
كانت سخيفة ثقيلة على نفسي .. ثم انك استعدت لوليتا أليس
كذلك ؟ .. هيا لنشرب شيئاً في البار ..

وهنا سألته ببرود اذا كان يريدني ان اعدمه واقفاً أم جالساً
فقال :

— آه دعني افكر .. ليس هذا بسؤال هين.. وبالمناسبة لقد
ارتكبت خطيئة بدعوة لوليتا الى مرافقتي وصدقني انني لم اسر
برفقة ابنتك . فأنا عملياً رجل عنين اذا اردت الحقيقة .. ومع
ذلك فقد امضت معي اجازة بديعة وقابلت اناساً ممتازين بارزين..
وفجأة انقض علي فطار المسدس الى ما تحت الخزانة . ولحسن
الحظ كان كيلتي ضعيف البنية فلم اجد كبير عناء في دفعه من
جديد الى مقعده .

وسألني وهو ينفخ ويشخر وقد كتف ساعديه :
- والآن ؟ ماذا سنفعل ؟

الخنيت فلم يتحرك .. فازددت في الخنائي لالتقاط المسدس بينما
استطرد يقول :

- كف عن هذا العبث بالحياة والموت .. انني مؤلف مسرحي
كتبت التمثيلية التراجيدية والدراماتيكية والكوميديا وانني
كاتب حوار ماهر اعرف جميع الحيل المسرحية .. هيا دعنا نحل
المشكلة عملياً ونتفق على تسويتها مادياً .

وإذ كنت منبطحاً بجانب الخزانة كنت احاول ألا يغيب عن
بصري وقد رأيته من جديد يحاول ان ينهض وفجأة لاحظ
بأنني لم ألاحظ ان المسدس هو في غير الجانب الذي افتش فيه عنه
فانقض علي من جديد وأخذنا نتصارع متكاملين كطفلين ونحن
نتقلب على الأرض .. كان عارياً تحت الروب دي شامبر وقد
شعرت بالإختناق في كل مرة ركبني فيها يحسده البدن ..
ومضينا نتقلب متصارعين تماماً كما يحدث في افلام رعاة البقر
الامريكية .

وأخيراً استعدت قواي واستعدت السيطرة على الموقف
فأجلست ضحيتي في مقعده بعد ان استرجعت المسدس وقررت
ان افحص المسدس فلربما قد فسد فيه شيء فقد حرصت من ان
تكون استعداداتي تامة قبل ان انتقل الى المرحلة الثانية .. ولما
تيقنت من حسن استعدادي اقترحت عليه ان يقرأ بذاته حكم
الإعدام الصادر عليه مني .. وناولته ورقة مطبوعة بالآلة الكاتبة

تحتوي على الحكم مكتوباً بعبارات شعرية .. فقد اردت ان تكون عدالتى شعرية . وقد جاء فيها :

وبما انك قد استثمرت ضعف خاطئة .. ونظرألأنك استغللت حراجه مراكزي وانا في وضع لا حول لي فيه ولأطول .. وفي وقت كنت فيه التمس أرق الرجاء وانا مقصوص الجناحين احلم بالزواج في مدينة جبلية ساحرة مع حبيبتي الصغيرة لوليتا ..

وبما انك قد استغللت براءتها وخدعتني وخدعتها وبما انك عرقلت خلاص روحي باتحاد روحي معها .. ولأنك أغويتها وهي في سن المراهقة حيث يدخل الصغار مرحلة تجارب الخطأ والصواب في الحياة .. وبما انك أغويتها وهي لم تزل طفلة لاهية .. ونظراً لأنك سرقتها من وصيها العاجز تاركاً اياه في اشد حالات اليأس والقنوط والقلق .. بما انك اخذت تلك الدمية الجميلة وتلاعبت بها ثم حطمتها وألقيتها الى قارعة الطريق ونظراً لأنك سببت لي ما لا يطيقه انسان من العذاب والقهر .. نظراً لكل ما جنته يدك يجب ان تموت » .

قرأ هذا الحكم الشعري وهو يعلق بين الحين والآخر على جمال اسلوبه فلما انتهى ناولني الورقة قائلاً :

– الحق يقال انها قصيدة ممتازة .. انها احسن ما قرأت لك من قصائد ..

وهنا سألته من جديد جاداً إذا كان له ما يقوله جدياً قبل ان يموت .. سألته بعد ان أعددت مسدسي بحيث ينطلق الرصاص عند اول ضغط .. ولهذا فقد تطلع إليه وأطلق آهة

عالية وقال :

— والآن يكفي يا هذا .. انك ثمل وانا مريض .. دعنا
نرجىء الأمر فاني بحاجة الى الراحة والهدوء قبل ان يأتي
اصدقائي لأخذي الى الصيد .. الحقيقة ان مهزلة تصويب المسدس
اصبحت مزعجة مضجرة .. اننا نحن الاثنين خبيران بالعالم ..
بالجنس بالشعر المنشور .. بالصناعة الادبية والاجتماعيات .. فاذا
كنت تحمل لي في صدرك غلاً فاني مستعد لأن ادفع لك غرامة
تزيل غلك .. بل انني مستعد من اجل ذلك لمبارزتك وفق
تقاليد الفروسية القديمة واترك لك اختيار سلاح المبارزة ومكانها
ان ذاكرتي وبلاغي ليست اليوم كما يرام ولكنني اذكر مع ذلك
يا عزيزي همبرت بأنك لم تكن وصيلاً مثالياً كما انني لم اقسر
ربيبتك على ان تلحق بي بل هي التي جعلتني انقلها الى ملاذ
اسعد وإلى بيت اهنأ .. ليس الى هذا البيت فهو غير حديث
كبيت المزرعة التي شاطرتني اياه لوليتا مع اصدقاء اعزاء .. ان
هذا البيت مع ذلك مريح فسيح واقترح عليك ان تحل فيه إذ
انوي قضاء زمن طويل في بريطانيا او فلورنسة .. او غيرها ..
اجل خذ البيت اسكنه مجاناً .. ولكن بشرط ان تكف عن
تصويب هذا المسدس البشع الى وجهي .. ثم انني استطيع ان
اهديك مع البيت اذا كنت محباً للكلاب كلبه ذات ثلاثة اجراء ..
والآن لنكن منطقيين .. اذا افلتت منك رصاصة فإنك
ستصيبني يجرح مفزع سأشفى منه واذهب للنقاهة في مصح
استوائي بينما ستتعفن انت في السجن .. انني اؤكد لك بأنك

ستكون سعيداً اذا اقامت في هذا البيت .. بل سأعطيك ما استحقه من حقوق نشر وتمثيل مسرحيتي التالية .. ان عندي رصيداً كبيراً في البنك كما تعلم .. ولكنني انوي ان اقترض . إن الاقتراض يسرنى .. انه حافز .. ولذا لا انوي الا ان اقترض واقترض واقترض ..

ثم ان هنالك فوائد اخرى تفيد منها اذا قمت في البيت .. ان السيدة فيبريسا .. اسم غريب أليس كذلك؟؟ تقوم بخدمته مرتين في الاسبوع .. انها ذات بنات وحفيدات .. نسيت ان اقول لك انني اعرف عن مدير البوليس شيئاً يجعله عبدي المطيع انني كاتب مسرحي لقبت باسم مترلنك امريكا .. هيا كف عن تصويب المسدس لقد اذلتني وجعلتني لا اعرف اذا كنت احسنت العمل بتقديم تلك العروض إليك ؟ والآن كن لطيفاً والى هذا المسدس جانبا .. وانصحك بأن تخلط بعد الآن الويسكي بالروم .. انني اعرف زوجتك المتوفاة معرفة سطحية .. انك ستحب هذا البيت ويمكنك ان تستخدم ثيابي الموجودة فيه .. ثم انني املك مجموعة رائعة فريدة من الكتب والصور الجنسية المهيجة .. بالاضافة الى كتاب ميلاني دايس مزين بثمانمائة صورة لثمانائة جهاز تناسلي .. صورتها تلك الكاتبة الرحالة الممتازة .. وبلاضافة كذلك الى صورجنسية مضيئة هيا الى هذا المسدس .. واذا كنت تائقاً الى رؤية عملية اعدام فسادبر لك الأمر .. ليس كل انسان يعرف ان الكرسي الكهربائي مدهون بالأصفر .

عندما وصل الى هذا الحد من هزره ضغطت الزناد فدوت

أول رصاصة ولكنها أصابت هذه المرة شيئاً صلباً .. لقد أصابت الكرسي الهزاز فأخذت أترجح الى الأمام والوراء . واطلقت رصاصة أخرى أصابته في يده فأخذ يلوح بها مألوماً ثم اندفع كالبرق واتجه الى غرفة الموسيقى التي نسيت ان اسحب مفتاحها ولذا هجمت عليه واخذنا نتعارك للحصول على المفتاح .. وانتصرت عليه مرة أخرى فحار فيما يفعل واندفع يعزف على البيانو بيده الدامية انغماساً هستيرية مرتجلة .. وصوت زفيره يملأ جو الغرفة . ووقفت أرقبه متسليةً محاولاً ان احفظ تلك الأنغام المحمومة .. وفجأة رأيته يحاول ان يفتح بقدمه باب خزانة قرب البيانو .. وهكذا فان رصاصتي التالية أصابته في مكان ما من جانبه فنهض قافزاً الى الأعلى .. كنمر في سيرك .. ككابوس من كوابيسي .. ارتفع كما لو كان يريد التعلق بجبال الهواء .. ثم هبط على قدميه وعاد مرة أخرى رجلاً عادياً ما لبث ان لجأ الى القاعة ..

انني من هذه الزنزانة أرى نفسي وانا اتبعه عبر القاعة بقفزات عريضة طاوعتني عليها ساقي .. كنت قوياً رشيقياً في هذه القفزات كراقص الباليه وقد قفزتها ليس فقط من اجل ان ألحق به بل كذلك من أجل ان اسبقه واتخطاه .. ذلك لأن باب القاعة لم يكن مقفلاً كما يجب .. وإذ رأيته سبقتة اخذ يسير بخطوات وثيدة رزينة وبدأ يصعد الدرج فغيرت وضعي إلا انني لم ألحقه بل اكتفيت بأن اطلقت عليه ثلاث او اربع رصاصات في تتابع سريع كانت تصيبه يجرح نازف كل مرة .. وكان وجهه

ينقبض انقباضة مألوفة بشعة مضحكة ، كلما أصابته إحدى الرصاصات ، كما لو كان مهرجاً يبالغ في اظهار الألم .. وكان يغلق عينيه نصف اغلاقاً ويرتعد ويصدر آهة متخشنة .. كما لو كنت أدغدغه ..

ثم بدأ يقول بلغة سليمة وبلهجة البريطانيين ، كلما أصبته برصاصة عمياء في جانب من جسده الدامي :

— آه إنها تؤذيني يا سيدي .. كفى يا سيدي انك تسبب لي ألماً فظيماً . أرجوك ان تكف عن هذا العمل الخشن يا سيدي .. آه ان الألم شديد شديد يا سيدي .. آه هذا فظيع رهيب يجب عليك بحق الله ان تكف عن اطلاق النار .. وأخذ صوته يضعف ويخبو إذ وصل الى قمة السلم ومع ذلك فقد ظل يسير رغم الرصاصات التي ملأت بها جسده الدامي .. وبدأ لي كأن رصاصاتي تحقق ذلك المسكين بحقن من الطاقة ، كما لو كانت هي محقونة بإكسير الحياة .. وكان جلدّه على الموت مثار قرني واشمئزازي وإشفاقي .

حشوت المسدس من جديد بيدين سوداوين مضرجتين بالدم فلقد لمست شيئاً ضمخه بنجيعة الكثيف ، ثم تبعته الى الطابق الثاني والمفاتيح ترن في جيبي كالدرهم فوجدته ينتقل من غرفة الى غرفة والدماء تنزف منه وتضفي عليه مهابة دامية ، بينما كان يحاول ان يجد نافذة مفتوحة يهرب عبرها .. فلما رأي اني اخذ هيز رأسه سلباً محاولاً ثني عن قتله فصوبت مسدسي الى رأسه ففر الى غرفة نومه وينبوع من الدم ينفجر من المكان الذي كان يدمي

بإذنه اليسرى ..

ولما دخلت عليه صاح بي وهو يسعل ويزجر :

- اخرج .. اخرج من هنا ..

كان ما رأيته يشبه منظرأ في كابوس .. فعلى الرغم من الدم الذي يحلله ويتقاطر منه وعلى الرغم من جراحاته فقد رأيته .. رأيت تلك العجينة الدامية .. رأيته يدلف بعظمة الى سريره كما لو كان في أتم عافية ..

ولما اسدل الملاءة على جسمه صوبت مسدسي من قرب وأخذت امطره بالرصاص ، حيثاتكور جسده فاضطجع مستويا وخرج الزبد ملونا بالدم وتعاقد حول شفثيه .. ثم ما لبث ان اطلق نفثة دامية كالبالون ثم تلاشت .

ربما كنت قد اضعفت في ذلك الحين صلتي مع الواقع ، ولكن لثانية أو ثانيتين .. ربما جننت في تلك البرهة ولا أقول هذا للدفاع عن نفسي ، اذ انني اريد أن اؤكد مسؤوليتي عن كل نقطة دم سالت منه وخرجت مع ريقه من فمه ..

في لحظة الجنون تلك انتقلت بي الخيلة موقتاً فرأيت نفسي كما لو كنت في مخدعي الزوجي ورأيتهم كزوجتي شارلوت مريضة في فراشها .. فصوبت فردة النعل إليه بدلاً من تصويب المسدس إذ كنت جالسا على المسدس .. ثم اتخذت على الكرسي وضعاً ادعى للراحة ومكثت لحظة الجنون تلك وانا استشير ساعة معصمي . كان زجاجها قد خلع ، ولكنها ظلت تسير ورأيت اذ أفقت من لحظة الضياع ان عملية الاعدام قد استغرقت اكثر

من ساعة فلم اهتم إذ همدت حركته أخيراً .. على انني لم أطق
ان ألمسه لأجزم بأنه قد مات حقاً . وعلى كل حال كان يبدو عليه
انه قد مات فعلاً ، فقد ذهب ربع وجهه وتناثر نخاعه وربضت
على تلك الوليمة النخاعية ذبابتان ، ربما لم تصدقا ان الحظ الطيب
يمكن ان يقدم لهما مثل هذا الغذاء الشهي الوفير ..

نظرت الى يدي فلم أجدهما احسن حالاً من يدي الممرضتين
فغسلتهما في الحمام المجاور بأحسن ما استطعت ، وإذ فعلت ذلك
اصبحت في وضع استطيع معه مبارحة المنزل ، وإذ أخذت انزل
الدرج دهشت ، عندما اكتشفت ان ما توهمته طينياً في اذني كان
في الحقيقة ألحاناً موسيقية تتصاعد من راديو الصالون مختلطة
بأصوات بعض الأشخاص .

وبالفعل وجدت عدداً من الأشخاص الذين بدا عليهم انهم قد
وصلوا لتوهم وكانوا يعبون الشراب .. وميزت رجلاً بديناً في
مقعد عريض وفتاتين جميلتين يجداول سوداء فاحمة وبشرة
شاحبة .. كانتا شقيقتين بلا ريب وكانتا تجلسان جنباً لجنب على
الأريكة ، ثم رأيت رجلاً مشرق الوجه يحمل قدحين من البار ..
وقفت في مدخل الصالون وقلت للجميع :

لقد قتلت لتوي كلير كيلتي .

فأجابني مشرق الوجه : حسناً فعلت ..

ومضى يقدم قدحاً الى الفتاة الكبرى بينما لاحظ الرجل
البدين قائلاً :

— كان يجب ان يقتله أحد ما .. وقبل زمن طويل ..

وهنا سمعت صوتاً من وراء حاجز البار فتطلعت ورأيت
شعراء تهتف :

- ماذا يقول هذا السيد ؟

- انه يقول انه قد قتل كيلتي ..

وعلق على الحديث رجل كان يقعي بجانب خزانة الاسطوانات :

- حسناً .. اعتقد أنه كان علينا بالذات ان نقتله ذات

يوم .. وعلى كل حال لا أصدق انه قتل ، ولست مستعداً لانتظاره

اكثر واذا كان يريد الذهاب للصيد فعليه ان ينزل في الحال .

وقال الرجل البدين من مقعده :

- ليعط احدكم هذا الرجل قدحاً ..

وفجأة توقفت الموسيقى لحظة وسمعنا ضجة من أعلى السلم

فتطلعنا متجهين الى مصدرها لنرى ان كيلتي قد استطاع ان

يزحف الى عتبة الدرج ، ولنراه يترنح متخبطاً ليقع صريعاً ، وقد

لفظ انفاسه الأخيرة ..

وصاح رجل يجاني ..

- عجل يا كيلتي . انني اعتقد انه لا يزال ..

ولم اسمع بقية كلامه فقد طغت عليه الموسيقى إلا انني قلت

لنفسي :

- هذه هي نهاية المسرحية التي وضعتها لإنهاء حياة كيلتي ..

وهكذا غادرت المنزل بقلب مثقل ومشيت الى سيارتي ،

حيث وقفت امامها سيارة ووراءها سيارة فوجدت صعوبة في

إخراجها والانطلاق بها الى عرض الطريق .

ما بقي من القصة ليس سوى ظل باهت يذوي في الذاكرة..
فقد خرجت من البيت وسقت منحدرأ رجوعاً الى بار كينغتون
حيث تركت معطفي في غرفتي والمسدس في الحمام ..
لم يكن بيت كيلتي بالبيت الخلق بأن أحب الحياة فيه.. هكذا
قلت لنفسى وأنا اشعر بالرغبة في ان انسى كل ما حدث .. ذلك
انه علمت بأن خصمي قد مات فإن الارتياح الوحيد الذي أصابني
كان يتمثل في تخلصي من عبء ذهني ثقیل .. فقد كان علي لو لم
يمت ان اتصور ذهنياً لعد أشهر مراحل شفائه مما اصابه ومراحل
عملياته الجراحية وفقاً لصحته .. ولربما زارني في سجنى وجعلنى
أحس به كشبح ..

امتد الطريق أمامى منبسطاً وخطر لي ان اتغاضى عن جميع
القوانين الانسانية وهكذا اخذت اسير على الجانب الأيسر من
الطريق مجرباً شعور مخالفة القوانين فوجدته شعوراً لذيذاً ..

ثم اخذت اسوق ببطء ولطف ولكن مستمراً في مخالفة
القوانين فكانت السيارات التي تمر بي تزجر بشدة بزماميرها أما
التي كانت تأتى في مواجهتي فكان اصحابها يصيحون ويشتمون
فزعين .. وما لبثت ان وجدت نفسى اقترب من الأماكن
المأهولة .. ومضيت أخالف قوانين السير فكنت اشعر اذ اسير
رغم وجود شارة الضوء الأحمر بذات اللذة التي كانت تراوحنى
اذ كنت اسرق رشفة من النبىذ المعتقد الذى كان محرماً علي اذ

كنت صيباً .

ولكن استمراري في المخالفات ما لبث ان عقد الأمور
وهكذا وجدت سيارتين تعترضان سبيل سيارتي بشكل أجبرني
على التوقف ولكنني استطعت ان انقلب ونجحت في الانكفاء
عائداً الى الطريق الريفي ثم اضطرت الى التوقف بعد رجتين أو
ثلاث فقد اصطدمت بقطيع من البقر .

وجاءت بعد ذلك الأيدي تسحبني من السيارة حيث كنت
في الواقع اتوق الى ان اسلم نفسي لمن يريد دون الأتيان بأية مقاومة
ودون التعاون مع من يحبرني .

واذ كانوا ينقلونني الى عربة الإسعاف أرخيت مفاصلي متمدداً
بهذه العناية في حملي من رجال البوليس والاسعاف .. وفي تلك
الأيام اخذت اسمع هديرأ أعاد الى الذاكرة ذلك الهدير الذي
سمعتة ذات يوم شعرت فيه بالغثيان وأنا اسوق السيارة بحثاً عن
لوليتا الهاربة فأنحدرت الى طريق جانبي بأمل ان يحسن الهواء
النقي من حالي وتبينت هاوية سحيقة أوقفت سيارتي قريباً
وجالدت إغراء قوياً بأن اندفع بسيارتي إلى احضانها .

ان هذا الهدير الذي عدت وسمعتة لم يكن سوى تغريد
الطفلات المراهقات وهن يلعبن ويمرحن .. اجل لم يكن سوى
ذلك ليس إلا ..

هذه هي قصتي كلها .. لقد أعدت قراءتها فوجدت فيها طعماً
من المرارة .. وشممت منها رائحة النجيس ورأيت الذبابتين
الخضراوتين تحومان على ما تناثر من دماغ كيلتي .

وفي سردي لهذه القصة حاولت جهدي ان اخفي ما يؤدي
الناس وجربت عدة اسماء مستعارة لنفسي قبل ان يقع اختياري
على اسم هبرت هبرت .

وعندما بدأت قبل ستة وخمسين يوماً في كتابة لوليتا في هذا
الآطار من النبضات الوجدانية وفي جو من العزلة والانفراد
فكرت في استخدام هذه القصة أثناء محاكمتي ولكن ليس لانقاذ
رأسي انما بالطبع لإنقاذ روحي وخلصها ..

غير انني لما وصلت الى منتصف القصة أدركت بأنني لم استطع
أن أخلق بيانياً لوليتا كما كانت في حياتها .

لأسباب قد تبدو أكثر بديهية مما هي في الواقع أعارض في
عقوبة الأعدام معارضة فكرية لا شك ان القاضي الذي سيفصل
في قضيتي يشاركني إياها . ولو انني قاضيت نفسي ولحكت على
هبرت هبرت بالسجن ٣٥ عاماً بجرمة الاعتصاب وأعلنت عدم
مسؤوليته عن التهم الباقية .

ولما كانت لوليتا خليقة بأن تعمر أكثر مني حق لو حكمت
بتلك المدة ولم أحكم بالأعدام ، فانني اتخذت الاجراءات القضائية
الآيلة الى عدم نشر المذكرات ما دامت لوليتا على قيد الحياة ..
وهكذا فعندما يقرأ القارئ هذه القصة فإن كلينا (لوليتا
وأنا) سنكون في عالم الأموات .

(تمت)

لوليا

قصة حب تعالج حالات وانفعالات عاطفية
قد يجد فيها المنافقون الإجتماعيون مايجب ان
يثير الخجل والذعر ، والحقيقة انها رواية واقعية
يوضح الكاتب في كل صفحة من صفحاتها
عاطفة من عواطف الحب بكل بساطة وصدق...
لذلك تعتبر عملاً فريداً في تاريخ القصة
المعاصرة.. وقد امتازت لوليتا بأنها تضع
العاشقين على مذبح المجتمع كما صنعت كل
قصص الحب الشهيرة في الماضي ..

